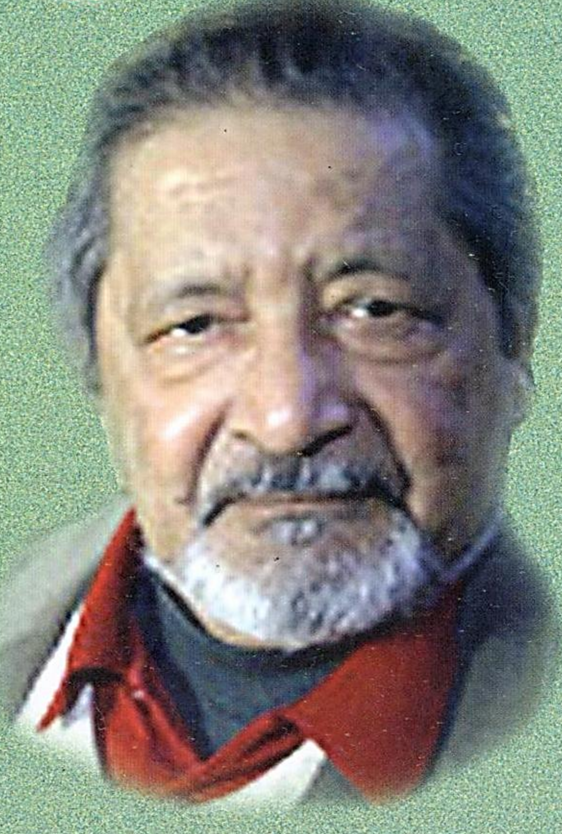
٢٠٠١

مكتبة نوبل

ف. س. نايبول

نصف حياة



علي مولا

ترجمة:
د. عابد اسماعيل



مكتبة نوبل

Author:V.S. Naipaul
Title:Half A Life
Translator:Dr. Abed Ismael
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2002

اسم المؤلف : ف . س . نايبول
عنوان الكتاب : نصف حياة
المترجم : د . عابد اسماعيل
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٢

دار المدى للثقافة والنشر

سورية – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

٢٠٠١

مكتبة نوبل

ڤ. س. نايبول

نصف حياة

ترجمة

د. عابد اسماعيل



هذا الكتاب اختراع.
إنه ليس دقيقاً حيال ما يصفُ
من بلدانٍ وفتراتٍ وحالات.

١
زيارة من سومرست موم

سأل ويلي تشاندران والده ذات يوم: "لماذا اسمي الأوسط سومرست؟ الأولاد في المدرسة اكتشفوا ذلك لتوّهم، وهم يسخرون مني."

قال والده بلا رغبة: "سُميت على اسم كاتبٍ إنكليزي عظيم. أنا متأكد أنك رأيت كتبه في نواحي البيت."

"لكنني لم أقرأها. هل أنت معجب به كثيراً؟"

"لست متأكداً. أصغ لما سأقول، وكوّن رأيكَ."

وهذه هي القصة التي بدأ والد ويلي تشاندران بسردها. استغرقت وقتاً طويلاً. ولطالما تغيرت القصة فيما كان ويلي يكبر ويترعرع. أشياء كثيرة أضيفت، وفي غضون الوقت الذي غادر فيه ويلي الهند متوجهاً إلى إنكلترا، كانت هذه هي القصة التي سمعها.

* * *

جاء الكاتب إلى الهند (قال والد ويلي تشاندران) للحصول على معلومات بخصوص رواية عن الروحانيات. كان ذلك في عام ١٩٣٠.

أتى به إليّ مديرُ كلية المهراجا. كنت أقوم بعمل تكفيري عن إثم اقترفته، وكنت أعيش كمتسول في الباحة الخارجية للمعبد الكبير. كان مكاناً عاماً جداً، ولهذا وقع اختياري عليه. كان أعدائي من موظفي المهراجا يتعقبونني، وقد شعرت هناك، في باحة المعبد، حيث حشود الناس تغدو وتذهب، بأمان أكبر مما وجدته في مكتبي. كنت متوتر الأعصاب جراء هذه العقوبة، ولكي أهدّئ نفسي، قطعتُ عهداً بالصمت. وقد جلب لي هذا قدراً من الاحترام المحلي، بل والشهرة. كان الناس يأتون للنظر إلي، بوصفي صامتاً، وبعضهم يجلب الهدايا. كان على سلطات الولاية أن تحترم قسمي، والخاطر الأول الذي انتابني، عندما رأيت مدير الكلية بصحبة الشخص الأبيض الصغير الحجم، هو أن ثمة مؤامرة لإجباري على الكلام. هذا ما جعلني عنيداً جداً. أدركَ الناس أن ثمة أمراً ما يجري، فتحلقوا حولنا ليشاهدوا المواجهة. كنت أدرك أنهم كانوا يساندونني. لم أقل شيئاً. الكاتب والمدير قاما بالحديث كله. تحدثا عني، وكانا ينظران إلي وهما يتحدثان. جلست ورحت أنظر من خلالهما كأنني أعمى وأصمّ، أما الحشود فكانت تنظر إلينا نحن الثلاثة.

هكذا بدأ اللقاء. لم أقل شيئاً للرجل العظيم. من الصعب أن تثق الآن، لكنني لا أظن أنني كنت قد سمعت به عندما رأيته في البدء. الأدب الإنكليزي، الذي ألمّ به، يضمّ براونينغ وأناساً من هذا القبيل، ممن اطلعت عليهم في الجامعة، خلال عام أمضيته هناك أو نحو ذلك، قبل أن أتخلى بحماقة عن الثقافة الإنكليزية، استجابة لنداء المهاتما، مقوّضاً نفسي مدى الحياة، وأنا أراقب أصدقائي وأعدائي يزدهرون مالاً وشأناً. ذلك، على أي حال، كان شيئاً آخر. سوف أخبرك عنه في وقت لاحق.

الآن أريد أن أعود إلى الكاتب. عليك أن تصدق بأنني لم أكن قد قلت له أي شيء على الإطلاق. لكن، وربما بعد مرور ثمانية عشر شهراً، وفي كتاب الرحلات الذي أصدره الكاتب، كانت توجد صفحتان أو ثلاث عني. وكان يوجد ما هو أكثر عن المعبد والحشود والثياب التي كانوا يرتدونها، وعن هدايا الجوز والطحين والأرز التي أحضروها معهم، وعن ضوء ما بعد الظهيرة على الحجارة العتيقة للباحة. كل ما كان قد أخبره به مدير كلية المهراجا وجد طريقه إلى هناك، بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة. من الواضح أن المدير حاول أن يفوز بإعجاب الكاتب، من خلال قوله أشياء جيدة عن إبرامي لأكثر من قسمٍ عن نكران الذات. كان ثمة بضعة سطور أيضاً، وربما مقطع بكامله، تصف، بالطريقة التي وصفَ بها الحجارة وضوء ما بعد الظهيرة، هدوءَ بشرتي ونعومتها.

تلك هي الطريقة التي أصبحت بها مشهوراً. ليس في الهند، حيث ثمة الكثير من الغيرة، بل في الخارج. وتحولت الغيرة إلى حنق عارم عندما ظهرت الرواية المشهورة للكاتب خلال الحرب، وبدأ النقاد الأجانب يرون فيّ المصدر الروحي لرواية (شفرة الموسى).

عــقــابي توقف. الكاتب- الذي أدهش الجـمـيع كـونه مناوئاً للإمبريالية- كتب بتملّق في كتابه الهندي الأول؛ كتاب ملاحظات الأسفار، عن المهراجا وولايته وموظفيه، بمن في ذلك مدير الكلية. نتيجةً لذلك تبدل موقف الجميع. تظاهروا بأنهم يرونني مثلما كان الكاتب يراني: رجلٌ من طبقة رفيعة، يشغل منصباً رفيعاً في حاشية المهراجا، ومن نسل من الناس أدّوا شعائر مقدسة للحاكم؛ رجلٌ يدير ظهره لحياة زاهية، ويعيش متسوّلاً على صدقات أفقر الفقراء.

أصبح صعباً عليّ الخروج من ذلك الدور. ذات يوم بعث لي المهراجا نفسه تمنياته الطيبة عبر أحد مستشاري القصر. هذا أقلقني كثيراً. كنت أمنّي النفس أنه بعد وقت وجيز ستكون هناك متع دينية أخرى في المدينة، وأنه سيسمح لي بالفرار والتركيز على طريقتي الخاصة في الحياة. ولكن، وأثناء احتفال ديني مهمّ، عندما أتى المهراجا بنفسه، عاريَ الظهر تحت شمس الظهيرة الحارقة، كنوع من التوبة، وقدّم لي بيده هدايا النسيج وجوز الهند، التي جلبها أحد أعضاء حاشيته المتأنقين- وغدٌ أعرفه جيداً- أدركت أن الفكاك أصبح مستحيلاً، ومكثت لأمضي حياة غريبة كان القدر صبّها عليّ.

بدأت أستقطب زواراً من الخارج. كانوا بصورة رئيسة أصدقاء للكاتب المشهور. أتوا من إنكلترا ليكتشفوا ما كان الكاتب قد اكتشفه. أتوا ومعهم رسائل من الكاتب. أحياناً كانوا يأتون ومعهم رسائل من موظفي المهراجا الكبار، وفي أحايين أخرى كانوا يأتون ومعهم رسائل من أناس قاموا بزيارتي سابقاً. بعضهم كانوا كتاباً، وبعد أسابيع أو شهور من قيامهم بالزيارة، كانت تظهر بعض المقالات في المجلات اللندنية عن هذه الزيارات. مع هؤلاء الزوار رحت أتملّى حياتي، حتى صرت أكثر انسجاماً معها. أحياناً كنا نتحدث عن أولئك الذين قاموا بالزيارة، والناس الذين معي كانوا يقولون بكثير من الرضا: "أعرفه. إنه صديق جيد." أو كلمات من هذا القبيل، وهكذا، وعلى مدى خمسة شهور، من تشرين الثاني إلى آذار، وقت شتائنا أو "المناخ البارد"، كما يقول الإنكليز، للتفريق بين الفصل الهندي والفصل الإنكليزي، شعرتُ أنني أصبحت شخصيةً اجتماعية، وشخصاً وسط شبكة أجنبية صغيرة من المعارف والثرثرات.

يحدث أحياناً عندما تقترف زلّة لسان لا تريد أن تصحّحها أنك تحاول أن تتظاهر أن ما قلته هو ما عنيته. ويصادف غالباً أن ترى أن ثمة بعض الحقيقة في خطئك. ترى، على سبيل المثال، أنه عندما تُسقِط شيئاً عن اسمٍ صالحٍ لأحدهم، يمكن أن يقال إنك تقلل من شأن ذاك الاسم. بذات الطريقة تقريباً، وأنا أتأمل الحياة الغريبة التي فُرضت علي عبر ذلك اللقاء مع الكاتب الإنكليزي العظيم، بدأت أرى أنها طريقة في الحياة كنت أحلم بها منذ بضع سنوات: الرغبة بالتخلّي والتواري والفرار من الحطام الذي صنعتُهُ بحياتي.

يجب أن أعود إلى الوراء. نحن ننحدر من نسلٍ من الكهنة. كنا مرتبطين بمعبد معين. لا أعرف متى شُيد المعبد أو أي حاكم بناه، أو كم من الوقت ارتبطنا به، ولسنا من أولئك الذين يتمتعون بذاك النوع من المعرفة. نحن ننتمي إلى كِهَانة المعبد، وعائلاتنا شكلّت جماعة صغيرة. أظن أنه في وقت ما كان يمكن أن نكون جماعةً غنيةً ومزدهرةً، يقوم على خدمتنا، بطرقٍ متعددة، أناسٌ قمنا بخدمتهم. ولكن عندما فتح المسلمون البلاد أصبحنا جميعنا فقراء. الناس الذين خدمناهم لم يعد باستطاعتهم مدّ يد العون لنا. الأمور أصبحت أكثر سوءاً عندما أتى الإنكليز. كان ثمة قانون، لكنّ السكان ازدادوا. أصبح عدد كبير جداً منا في جماعة المعبد. هذا ما كان جدي قد أخبرني به. التزمنا بكلّ القواعد المعقدة للجماعة، لكن، في الحقيقة، كان ثمة القليل مما يسدّ رمقنا. أصاب الناسَ الوهنُ والضعفُ ووقعوا بسهولة فريسةً للمرض. أيّ مصيرٍ لجماعتنا الكهنوتية! لم أكن أحب سماع القصص التي رواها جدي عن تلك الفترة من سنوات ١٨٩٠.

كان جدي جلداً وعظماً عندما قرر أن يغادر المعبد والجماعة. ظنّ أنه سيذهب إلى المدينة الكبيرة حيث قصر المهراجا، وحيث يوجد معبد مشهور. قام بالتحضيرات كما استطاع، مدخراً كميات قليلة من الأرز والطحين والزيت، موفراً القرش بعد القرش. لم يخبر أحداً بأي شيء. وعندما حان الموعد استيقظ باكراً جداً، وبدأ يسير تحت جنح الظلام إلى حيث تقع محطة القطار. كانت تبعد أميالاً عدّة. مشى لمدة ثلاثة أيام. مشى بين أناس كانوا فقراء جداً. وكان أكثر بؤساً من أي منهم، لكن كان ثمة البعض من هؤلاء ممن رأوا أنه كاهن شاب يتضور، وقدموا له الصدقات والمأوى. وفي نهاية المطاف وصل إلى محطة القطار. روى لي أنه كان قد أصبح في تلك اللحظة خائفاً وضائعاً، وعلى وشك استنفاد قوته وشجاعته، فلم يكن يرى أي شيء من العالم الخارجي. وصل القطار في الظهيرة. كان يحمل ذكريات عن حشود وضوضاء، ومن ثمّ كان الليل. لم يكن قد سافر على متن قطار من قبل، ولكنه كان طوال الوقت ينظر إلى داخله.

في الصباح وصلوا إلى المدينة الكبيرة. استدلّ على طريقه إلى المعبد الكبير ومكث هناك، متجولاً في باحة المعبد لكي يتجنب أشعة الشمس. في المساء، بعد صلوات المعبد، كان يتم توزيع طعام الوقف. لم يُستثنى هو من ذلك. لم تكن كمية كبيرة، لكنها كانت أكثر مما تعوّد أن يقتات عليه. حاول أن يتصرف كما لو كان حاجّاً. ما من أحد طرح أسئلةً، وتلك كانت الطريقة التي عاش بها خلال الأيام القليلة الأولى. ولكن فيما بعد اكتُشف أمره، وتمّ استجوابه. روى قصته، ولم يرمه موظفو المعبد خارجاً. أحد هؤلاء الموظفين كان رجلاً طيباً، اقترح على

جدي أنّ باستطاعته أن يصبح كاتب رسائل. وراح يزوده بالتجهيزات البسيطة، من قلم وريشة وحبر وأوراق، وذهب جدي وجلس مع كتّاب رسائل آخرين على الرصيف خارج المحاكم قرب قصر المهراجا.

معظم كتاب الرسائل هناك كانوا يكتبون بالإنكليزية. كانوا يجهزون للناس التماسات قضائية من كل الأنواع، ويساعدون في قضايا حكومية متعددة. لم يكن جدي يعرف الإنكليزية. كان يعرف الهندية ولغة منطقته. كان ثمة العديد من البشر في المدينة ممن فروا من منطقة المجاعة، وأرادوا أن يرسلوا أخباراً إلى ذويهم. لذلك كان ثمة عمل لجدّي، ولم يكن أحدٌ يغار منه. كان الناس أيضاً منجذبين إليه بسبب الثياب الكهنوتية التي كان يرتديها. واستطاع بعد فترة وجيزة أن يؤمّن دخلاً حسناً. وأقلع عن عادة التسلل خفيةً إلى باحة المعبد في المساءات. عثر على غرفة لائقة، وأرسل في طلب عائلته. ونتيجة عمله في كتابة الرسائل وصداقاته في المعبد، استطاع أن يتعرف إلى المزيد من الناس، ومع مرور الوقت استطاع أن يحصل على عمل محترم ككاتب في قصر المهراجا.

ذاك النوع من العمل كان آمناً. لم يكن الأجر جيداً جداً، ولكن لم يسبق لأحد أن طُرِد، والناس يعاملونك بتقدير. وسقط جدي بسهولة في تلك الطريقة من الحياة. تعلم الإنكليزية وحصل على الدبلوم من المدرسة الثانوية، وأصبح بسرعة أعلى مرتبة في الحكومة من أبيه. أصبح أحد مستشاري المهراجا. كان ثمة العديد من هؤلاء. كانوا يرتدون زياً باهراً، وفي المدينة كانوا يُعامَلون كآلهةٍ صغيرة. أعتقد أن أبي كان يريدني أن أكمل في الطريق نفسها، وأستمرّ في الصعود الذي ابتدأه. بالنسبة

لوالدي بدا الأمر كأنه إعادة اكتشاف لشيء من الطمأنينة في جماعة المعبد التي كان على جدّي أن يفرّ منها.

لكن كان ثمة عفريت صغير من التمرد في داخلي. ربما كنت قد سمعت جدي يتحدث مرات كثيرة عن فراره وخوفه من المجهول، ناظراً فقط إلى الداخل خلال تلك الأيام الرهيبة، وغير قادر على رؤية ما حوله. وصار جدي أكثر غضباً كلما طعنَ في السنّ. قال عندئذ إن جماعة معبده كانوا حمقى جداً. لقد رأوا الكارثة تقع، ولم يفعلوا شيئاً تجاهها. هو نفسه قال إنه أجّل الأمر حتى اللحظة الأخيرة قبل أن يفرّ، وهذا هو السبب الذي جعله، عندما أتى إلى المدينة الكبيرة، يتسلل خفية إلى باحة المعبد، مثل حيوان نصف متضوّر. تلك كلمات رهيبة يستخدمها. أصابه غضبه بالعدوى. وبدأتُ أكوّن فكرةً ما بأن هذه الحياة، التي كنا نحياها جميعاً في المدينة الكبيرة حول المهراجا وقصره، لن تدوم، وبأن تلك الطمأنينة أيضاً كانت مزيفة. عندما كنت أفكر في ذلك كان ينتابني الهلع، لأنني لم أستطع أن أرى ماذا يمكنني أن أفعل لحماية نفسي من ذاك الانهيار.

أعتقد أنني كنت مهيَّأً لعمل سياسي. كانت الهند تغصّ بالسياسة. غير أن حركة الاستقلال لم تكن موجودة في ولاية المهراجا. كانت غير قانونية. وعلى الرغم من أننا كنا على دراية بالأسماء العظيمة، والأفعال العظيمة في الخارج، لكننا كنا نراها من بعيد.

في تلك الآونة كنت في الجامعة. كانت الخطة أن أحصل على إجازة جامعية ومن بعدها أحصل ربما على منحة من المهراجا لأدرس الطب

أو الهندسة، وبعد ذلك أتزوج من ابنة مدير كلية المهراجا. كلّ هذا تمّ التحضير له. لم أفهم المقرر الجامعي، ولم أفهم رواية (مدير بلدية كاستربريدج). لم أستطع أن أفهم الشخصيات أو القصة، ولم أعرف الفترة التي كانت تجري فيها الأحداث. مع شكسبير كنت أفضلَ، لكنني لم أعرف كيف أتذوق شللي أو كيتس أو ووردزورث. عندما قرأت أولئك الشعراء كان لسان حالي يقول: " ولكن هذه مجرد حزمة من الأكاذيب. لا أحد يشعر بتلك الطريقة." كان البروفيسور يجعلنا ننسخ ملاحظاته. كان يمليها صفحة إثر صفحة، وكل ما أتذكره بصورة رئيسة هو أنه لم يلفظ اسم ووردزورث أبداً، بسبب أنه كان يملي تلك الملاحظات ويريدها أن تكون مختصرةً، ولأنه كان يريدنا أن ننسخ هذه الملاحظات بدقة. كان دائما يقول (W)، ذاكراً فقط الحرف الأول، وليس أبداً ووردزورث. قالَ (W) هذا، وكتب (W) ذاك.

كنت أعيش فوضى عارمة، ويطغى علي شعور بأننا جميعاً نعيش في طمأنينة مزيفة، وأنني عاطل، أكره واجباتي الدراسية، عارفاً أن أشياءً عظيمةً كانت تحدث في الخارج. كنت أبجّل الأسماء العظيمة لحركة الاستقلال. شعرت بالإهانة جراء كسلي، وجراء خنوع الحياة التي كانت تُحضّر من أجلي. وعندما سمعت نحو عام ١٩٣١ أو ١٩٣٢ بأن المهاتما دعا جميع الطلاب إلى مقاطعة جامعاتهم، عقدت العزم على أن أستجيب للنداء. وفعلت أكثر من ذلك. في الباحة الأمامية أضرمت ناراً صغيرة لرواية (مدير بلدية كاستربريدج)، ولأشعار شللي وكيتس، وملاحظات البروفسور، وعدت إلى البيت أنتظر العاصفة كي تهبّ على رأسي.

لاشيء حدث. يبدو أن لا أحد أخبر أبي عن أي شيء. ما من رسالة أتت من عميد الكلية. ربما لم تكن تلك بالنار الكبيرة. ليس سهلاً أن تحترق الكتب، إلا إذا كان أمامك نار مشرئبة لتوها. ومن الممكن أنه وسط فوضى وضجيج الباحة الأمامية للجامعة، حيث نار الشارع متقدة لتوها هناك، فإنّ ما قمت به في زاوية صغيرة لم يظهر بذاك الفعل الغريب جداً.

شعرتُ بالعقم أكثر من أي وقتٍ مضى. في مناطق أخرى من الهند كان ثمة رجال عظام. أن أكون قادراً على اقتفاء خُطا هؤلاء الرجال العظام، بل أن أرمقهم بنظرة فقط، بدا ذلك لي نعمةً. كنت مستعداً لأن أدفع أي شيء لكي أكون على تماس مع عظمتهم. هنا كانت توجد فقط حياة الذل حول قصر المهراجا. ليلة إثر أخرى رحت أناقش ما يجب أن أفعله. كنت أعرف أن المهاتما نفسه مرّ بأزمة مماثلة قبل سنة أو سنتين فقط في صومعته. ظاهرياً كان يعيش سلاماً هناك، وحياة من الروتين، يبجّله كل من حوله، لكنه كان في الواقع قلقاً إلى درجة العذاب حيال الطريقة التي يمكنه أن يعيد بها البلاد إلى صوابها. وكان أن أتى بالفكرة الخارقة وغير المتوقعة لمسيرة الملح، وهي مسيرة طويلة من صومعته إلى البحر لصناعة الملح.

وهكذا، وبينما كنت أعيش آمناً في البيت، في منزل والدي السكرتير ببزته الرسمية، متظاهراً (من أجل السلام) أنني مازلت في الجامعة، لكنني كنت أعيش معاناة رهيبة كما أسلفت، شعرتُ أخيراً أن الإلهام قد هبط علي. شعرتُ بكل يقينية أن القرار الذي أتاني كان عادلاً، وكنت مصمماً على تنفيذه حتى النهاية. لم يكن القرار شيئاً سوى أن أجعل من نفسي أضحيةً. ليس تضحية فارغة، أو فعلاً لحظياً-

فكلّ أحمق بإمكانه أن يقفز من فوق جسر أو يرمي بنفسه أمام قطار- بل نوعاً دائماً من التضحية، شيئاً كان يمكن للمهاتما نفسه أن يوافق عليه. كان قد تحدث كثيراً عن شرور التقسيم الطبقي. لم يقل أحد إنه كان مخطئاً، ولكن قلة قليلة فعلت شيئاً من أجل ذلك.

كان قراري بسيطاً، وهو أن أدير ظهري لأسلافنا، أولئك الكهنة الحمقى الخانعين المحكومين بالأجنبي، ممن كان جدي قد حدثني عنهم، وأن أدير ظهري لكل الآمال الغبية التي علقها والدي عليّ، بأن أصل إلى منصب رفيع في خدمة المهراجا، ولكل الآمال الغبية لمدير الكلية في أن أتزوج ابنته. كان قراري أن أدير ظهري لكل هذه الطرق من الموت، وأن أدوس فوقها، وأفعل الشيء النبيل الوحيد الذي في طاقتي، وهو أن أتزوج من أدنى امرأة يمكنني العثور عليها.

والحقّ أنه كانت في ذهني امرأة ما. كانت ثمة فتاة في الجامعة، لم أكن أعرفها. ولم أتكلم إليها. كنت فقط قد رمقتها. كانت صغيرة الحجم وخشنة الملامح، قبلية تقريباً في مظهرها، سوداء بصورة ملحوظة، مع نابين علويين كبيرين يبدوان ناصعَي البياض. كانت ترتدي ألواناً بدت في بعض الأحيان مشرقة جداً، وأحياناً بدت وحلية تتناسب مع سواد بشرتها. بدت وكأنها تنتمي إلى طبقة منبوذة. كان المهراجا قد أعطى عدداً من المنح الدراسية "للمنبوذين" كما كانوا يُسمّون. كان المهراجا معروفاً بتقواه، وتقديم المنح كان واحداً من أفعاله في حقل الصدقة الدينية. ذاك في الحقيقة كان خاطري الأول عندما شاهدت الفتاة في قاعة المحاضرات أول مرة مع كتبها وأوراقها. كثيرون كانوا ينظرون إليها، لكنها لم تكن تنظر إلى أحد. ورأيتها بعد ذلك مرات عدّة. كانت

تمسك قلمها بطريقة صبيانية متحدية وغريبة، وتنسخ ملاحظات البروفيسور عن شللي، و (W) بالطبع، و براونينغ و أرنولد، والنقاط المهمّة في المناجاة في مسرحية (هاملت).

الكلمة الأخيرة-هاملت- سببت لنا الكثير من المتاعب. كان البروفيسور يلفظها بثلاث أو أربع طرق مختلفة، وحسب مزاجه، وعندما كان يختبر معلوماتنا عن ملاحظاته، ويكون علينا أن نلفظ الكلمة، كان كل واحد منا، يمكنك أن تقول، يفعل ذلك بطريقته. كان الأدب يمثل بالنسبة للكثيرين منا ذاك النوع من التشويش. كنت أظنّ لسبب أو لآخر أن فتاة المنحة، بما أنها فتاة منحة، كانت تستوعب أكثر من أي واحد منا. ولكن عندما طرح البروفيسور ذات يوم سؤالاً عليها- لم يكن يوليها في العادة أي انتباه- رأيت أنها تفهم أقل بكثير مما كنت أتصور. لم تكن تملك تقريباً أيّ فكرة عن القصة في (هاملت). كل ما كانت تتعلمه مجرد كلمات. كانت تعتقد أن المسرحية تجري أحداثها في الهند. وكان سهلاً على البروفيسور أن يسخر منها، وأن يضحك الطلابُ في الصف، وكأنهم يعرفون أكثر منها.

بدأتُ بعد ذلك أولي الفتاة انتباهاً أكبر. كنت مأخوذاً بها ومشمئزاً منها. كان يمكن أن تكون من أدنى الناس. وقد يكون أمراً لا يطاق التأمل في عائلتها وعشيرتها ووظائفهم. عندما كان أناس من هذا النوع يرتادون المعبد، كان يتمّ إبقاؤهم بعيداً عن المصلّى، أو المختلى الجوّاني حيث صورة الإله. لم يكن الكاهن المبجّل يريد أن يلمسَ هؤلاء. كان يمكن أن يرش الرماد المقدّس عليهم بالطريقة التي يُرمى فيها الطعامُ إلى كلب. كل أنواع الأفكار من هذا القبيل خطرت لي وأنا أتأمل فتاة

المنحة، هي التي كانت تشعر أن عيون الناس عليها، لكنها لم تكن لتردّ حتى بنظرة. كانت تحاول أن تحافظ على رباطة جأشها. لم يكن الأمر يحتاج إلاّ إلى القليل لتحطيمها. وبالتدريج، وبسبب انبهاري، اعتملَ قليلٌ من الشفقة عليها، ورغبةٌ في النظر إلى العالم من خلال عينيها.

تلك كانت الفتاة التي فكرتُ أنه يجب أن أذهب إليها وأطلب يدها، وأعيش في صحبتها حياة من التضحية.

كان ثمة قاعة لتناول الشاي، أو مطعم تعوّد الطلاب ارتيادَه. كنا نسميه الفندق. كان يقع في حارة خارج الطريق العام. وكان رخيصاً جداً. عندما كنت تسأل النادل عن السجائر، كان يضع علبة مفتوحة على الطاولة، وكنت تدفع فقط ثمن ما تستهلكه. هناك ذات يوم رأيت فتاة المنحة، وحيدةً بثيابها الرمادية تجلس وراء الطاولة المستديرة ذات العلامة المميزة تحت المروحة السقفية. ذهبت وجلست إلى طاولتها. كان يجب أن تبدو مغتبطة، لكنها بدت مذعورة. وبعدها فهمت أنه بالرغم من أنني قد أكون عرفت من هي، لكنها ربما لم تنظر إليّ. في الصف الدراسي لم أكن ذاك الشخص المميّز.

وهكذا، ومنذ البداية كان ثمة ذاك التحذير الخفيف. لاحظته، لكنني لم أعره انتباهاً.

قلت لها: "سبق أن رأيتك في صف الأدب الإنكليزي." لم أكن متأكداً أن ذلك هو الشيء الصحيح الذي يجب أن أقوله. ربما جعلتها مداخَلتي تشعر بأنني سبقَ وشهدتُ إهانتها عندما حاول البروفيسور حثها على التحدث عن (هاملت). لم تقل شيئاً. أتى النادل النحيل، البشوش الوجه، ببدلته البيضاء القذرة التي كان يرتديها منذ أيام،

ووضع كأساً منقطاً من الماء على الطاولة، وسألني ماذا أريد. هذا ما خفّف من إرباك اللحظة بالنسبة لي. لكن ليس بالنسبة لها. كانت في حالة غريبة، وتشعر بأنها مراقَبة. شفتها العليا الداكنة جداً ارتخت ببطء- مثل طراوة سحلية، كما ظننت- فوق أسنانها البيضاء الكبيرة. كانت المرة الأولى التي لاحظتُ فيها أنها تضع المساحيق. كان ثمة تورّد أبيض خفيف على وجنتيها وجبهتها، وهذا ما جعل البشرة الداكنة منطفئة، ويمكنك أن ترى أين ينتهي المسحوق، وأين يبدأ الجلد المشعّ بالظهور ثانية. نفرتُ وخجلتُ وتأثّرت.

لم أكن أدري عن ماذا سأتحدث. لم أستطع أن أقول: "أين تعيشين؟ ماذا يعمل والدك؟ هل لديك إخوة؟"

كان يمكن لكل هذه الأسئلة أن تسبب المتاعب. ولكي أكون صريحاً لم أكن أريد أن أعرف الأجوبة.

كان يمكن للأجوبة أن تسحبني إلى قعر الجحيم. لم أكن أريد الذهاب إلى هناك. هكذا جلستُ ورحتُ أحتسي القهوة، وأدخن سيجاراً رخيصاً من العلبة التي كان النادل قد أحضرها من أجلي، ولم أنبس ببنت شفة. نظرتُ إلى الأسفل ووقع بصري على قدميها السوداوين النحيلتين داخل سندلها الرخيص، وأصبت بالدهشة ثانية لفرط تأثري.

تعوّدت الذهابَ إلى حانوت الشاي كلما سنحت لي الفرصة، وفي كل مرة أرى الفتاة هناك، كنت أجلس إلى طاولتها. ذات يوم دخلت بعدي. لم تأتِ إلى طاولتي. شعرت أنني في مأزق. تأملت البشر الآخرين في حانوت الشاي، أناس تنتظرهم حيواتٌ آمنة وعادية، وشعرت لمدة دقيقة طويلة أو اثنتين، لكي أكون صريحاً، أنني خائف قليلاً، وفكرت بالتخلي عن فكرة حياة التضحية. كان بإمكاني بكل بساطة أن أظل

جـالسـاً إلى طاولتي. ولكن، وتحت سطوة الإحســاس بالفـشل، وبعض الانزعاج من لامبالاة فتاة المنحة، ذهبتُ وجلستُ إلى طاولتها. بدت كأنها تنتظر ذلك، كما أنها تحركت باتجاه آخر كأنها تفسح مكاناً لي.

هكذا مـضت الأمـور في ذلك الفـصل. لا كلمـات قـيلت، ولا لقـاء خارج حانوت الشـاي، ومع ذلك هناك نوع خاص من العلاقـة كان قد بدأ ينشأ بيننا. بدأنا نتلقى نظرات غريبة في حانوت الشـاي، وبدأتُ أتلقى تلك النظرات حتى عندما أكون وحيداً. جُرحت مشاعر الفتاة. كنت أرى أنهـا لا تعـرف كـيف تتـعـامل مع تلك النظرات المحـاكـمـة. ولكن الذي جـرحهـا منحني رضـا غـريـباً. فـكرت في ذلك النوع مـن المحـاكـمـة- من الخدم، الطلاب، النـاس البسطاء- كأول الثمـار الحلوة لحـيـاة التـضـحـيـة. كانت تلك أولى الثمار فقط. كنت أعرف أن معارك أخرى عدّة تنتظرنا، وامتحانات أشدّ، بل ثماراً أحلى.

أولى تلك المعـارك لم تكن لتـتـأخـر. ذات يوم في حـانوت الـشـاي تكلمت الفـتـاة إلي. كنت قـد تعـوّدت الصّمتَ فـيـمـا بيننا- بدا طريقـة مثـاليـةً للتـواصل- وتلك الجـرأة من شـخص كنت أظنه منبـوذاً أصـابتني بالدهشة. اختلطت هذه الدهشة بغضبي إزاء صوتها. أدركت عندئذ أنني في الصفّ، وحـتى أثناء مـشكلتـهـا مع البـروفـيـسور حـول (هاملت)، لم أكن قـد سمعتـهـا سوى أنهـا تغـمغم فـقط. لم يكن صوتهـا المسمـوع بتلك الطريقة، عبر طاولة الشـاي الصغيرة المربعة، ناعماً وخجولاً وينحو باتجاه بعض الحـلاوة، كمـا تتوقـع من فـتـاة صغـيـرة الحجم، نحيلة وحـيـيـة، بل عـالياً وخشناً ومهـتاجاً. إنه الصوت الذي قرنتـه بأناس من نوعهـا. كنت أظن أنها، كفتاةِ منحةٍ، لابدّ أنها تركت صوتها خلفها.

كرهت ذلك الصوت حالما سمعته. شعرت، ليس أول مرة، أنني أغرق. لكنه الرعب المقترن بحياة التضحية التي كنت قد التزمت بها، وشعرت بأنه يجب حتماً أن أستمرّ.

كنت منشغلاً جداً بهذه الأفكار- جرأتها، وبشاعة صوتها (كأنه تعبير عن أسنانها البيضاء العلوية الكبيرة، وبشرتها الداكنة المغطاة بالمساحيق)، خوفي على نفسي- حتى إنه كان عليّ أن أطلب منها أن تعيد ثانيةً ما كانت قد قالته.

قالت: "شخص ما أخبَرَ عمي."

عمٌ؟ شعرت أنه ليس من حقها أن تجرّني إلى تلك الأعماق البغيضة. من هو هذا العمّ؟ في أي جحر يعيش؟ حتى الكلمة "عمّ"- وهي كلمة يستخدمها الناس للتدليل على علاقة قد تكون ثمينة- كانت وقحة.

قلت: "من هو هذا العمّ؟"

"إنه مع اتحاد العمال. مثير فتن."

استخدمت الكلمة الإنكليزية، وكان لها وقع غريب ولاذع في فمها. لم يكن لدينا سياسة وطنية في الولاية- المهراجا لم يكن يسمح بها- لكن كان لدينا بالتأكيد خديعة شبه وطنية، أوجدت كلمات جميلة، من مثل "الشغيلة" أو "العمال"، عوضاً عن كلمات أبشع كانت رهن الاستعمال اليومي. وحالاً عرفت من تكون. لابد أنها تمتّ بصلة قربى إلى مثير الفتن، وهذا ما يفسّر حصولها على منحة من المهراجا. في نظر نفسها، كانت هي صاحبة قوة ونفوذ، وشخصية صاعدة.

قالت: "يقول إنه سيخرج في مسيرة ضدك. اضطهاد طبقي."

كان يمكن لفعل كهذا أن يطرحني أرضاً، وأن يشيع رفضي للقيم القديمة، ويذيع ولائي لأفكار المهاتما، و حياتي في التضحية.

قالت: "يقول إنه سيقود مسيرةً ويضرم النيران في بيتك. العالم بأجمعه شاهدك تجلس معي في حانوت الشاي أسبوعاً إثر أسبوع. ماذا ستفعل؟"

أصبت بالذعر حقاً. أعرف أولئك المثيرين للفتن. قلت، "ماذا تظنين أنني سأفعل؟"

"عليك أن تخفيني في مكان ما حتى تهدأ الأمور."

قلت: "ولكن هذا يعني أنني سأخطفك؟"

"هذا ما يجب عليك أن تفعله."

كانت هادئة. وكنت مثل رجل يغرق.

قبل شهور قصيرة قليلة، كنت شاباً عادياً عاطلاً في الجامعة، وابناً لكاتب بلاط، أعيش في منزل والدي من الدرجة (C)، وأفكّر بالرجال العظام في بلادنا، متشوقاً إلى أن أكون أنا نفسي عظيماً، دون أن أعثر على اتجاه وسط صغر حياتنا للبدء بمسيرة العظَمَة، حيث كنت قادراً فقط على الاستماع إلى أغاني الأفلام، مستسلماً للعواطف التي تثيرها، وبعد ذلك مهاناً برذيلة خاصة مخجلة (والتي لن أقول المزيد عنها، بما أن أشياء كهذه كونية)، شاعراً بصورة عامة بالاضطهاد بسبب فراغ عالمنا وخنوع حياتنا. الآن تبدلت حياتي في كل جزء منها تقريباً. كنتُ مثل طفلٍ يرى السماء معكوسة في بركةٍ بعد المطر، وسمحت لقدمي أن تلمس البركة، راغباً أن أشعر بالخوف حيث أنا آمن، وعلى إثر تلك الملامسة ارتدّت عليّ البركةُ فيضاناً كاسحاً يجرفني سيلُه الآن. بتلك الطريقة بدأت أشعر خلال بضع دقائق. وخلال بضع دقائق أصبحت تلك رؤيتي للعالم حولي: لم يعد العالم مكاناً عادياً مملاً، حيث أناس عاديون يمشون

ويكدحون، بل مكاناً تجري فيه سيول سرية، يمكنها في أيّ لحظة أن تجرف معها الغفّل. هذا ما كان خطر لي عندما نظرتُ إلى الفتاة. كلّ صفاتها تبدّلت: القدمان النحيلتان الداكنتان، الأسنان الكبيرة، والبشرة السودا ء جداً.

كان عليّ أن أجد مكاناً لها. تلك كانت فكرتها. الفندق أو السكن الداخلي خارج الخيارات. فكرتُ بالناس الذين أعرفهم. كان عليّ أن أنسى أصدقاء العائلة أو أصدقاء الجامعة. في نهاية المطاف فكرتُ في تجريب صانع الصور في المدينة. كانت ثمة رابطة قديمة بين المصنع ومعبد أسلافي. إنه مكان لطالما ذهبتُ إليه. كنت أعرف المعلّم. كان شخصاً مغبراً صغير الحجم بنظّارتين. بدا كأنه أعمى، ولكن السبب يعود إلى أن نظارتيه كانتا دائماً مغبّرتين نتيجة النشارة التي يخلفها العمال. عشرة أو اثنا عشر منهم كانوا دائماً هناك؛ أشخاص صغار البنية وعراة الظهر، عاديون تماماً في مظهرهم، يمارسون عمل التقطيع في الباحة، المطرقة على الإزميل، الإزميل على الحجر، مُصدرين عشرين أو أربعةً وعشرين صوتاً منفصلاً طوال الوقت. لم يكن سهلاً أن تكون وسط تلك الضجة. لكنني لم أكن أعتقد أن فتاة المنحة ستأبه لذلك.

صنّاع الصور، أولئك، كانوا من طبقة محايدة، ليست دنيا، لكنها بعيدة كل البعد عن أن تكون رفيعة، وكانت مثالية لغرضي. العديد من هؤلاء الحرفيين كانوا يعيشون في مجمّع المعلم مع عائلاتهم.

كان المعلم يشتغل على رسمٍ معقدٍ لعمود معبد. اغتبط كعادته لرؤيتي. نظرت إلى رسمه، وراح يريني رسوماً أخرى، ثم حرفت الموضوع إلى الفتاة، "منبوذة" طُردت وهُددت من قبل عائلتها، وهي الآن بحاجة

إلى ملجأ. عقدت العزم على ألاّ أتحدث بخجل، بل بثقة. كان المعلم يعرف أسلافي. ولم يكن ممكناً على الإطلاق أن يقرنني بامرأة كهذه، و كنت قد أوصيت إليه أنني أتصرّف بالنيابة عن شخص رفيع حقاً. من المعروف جيداً أن المهراجا كان متعاطفاً مع المنبوذين. والمعلم تصرّف كرجل له دراية بأساليب العالم.

كانت ثمة غرفة تقع خلف المخزن، فيها صور وتماثيل وأنصاف تماثيل من كل الأنواع. الرجل الصغير المغبرّ صاحب النظارات العمياء كان موهوباً. لم يكن فقط ينحت الآلهة، وأشياء معقدة يلزم لإنجازها دقة معينة، بل كان ينجز أيضاً أناساً حقيقيين، موتى وأحياء. أنجز العديد من رجال المهاتما، والعمالقة الآخرين من الحركة الوطنية، وأنجز أيضاً تماثيل نصفية (من الصور الفوتوغرافية) لآباء الناس وأجدادهم. أحياناً كانت هذه التماثيل العائلية تحمل النظارات الحقيقية للناس. كان مكاناً مملوءاً بالحضورات التي صارت تقلقني فيما بعد. كان أمراً فيه سلوى أن تعرف أن كلّ إله يخفي نقصاً بطريقة ما، وتالياً، فإن جبروته المرعب لا يمكن أن يصبح حقيقياً ويستولي علينا جميعاً.

تمنيت لو أنني تركت الفتاة هناك ولم أعد بتاتاً، لكن كان ثمة دائماً تهديد مثير الفتن عمّها. وكلما طالت مدة مكوثها هناك، صَعُبَ علي إرسالها بعيداً، وبدا أننا معاً مدى الحياة، على الرغم من أنني لم أكن قد لمستها البتّة.

عشت في البيت. كنت أذهب إلى الجامعة متظاهراً بأنني في المحاضرات، وأحياناً كنت أذهب إلى باحة النحّات. لم أكن أمكث طويلاً أبداً. لم أكن أريد للمعلم أن يرتاب بأي شيء على الإطلاق.

لم تكن الحياة سهلة بالنسبة لها. ذات يوم، في تلك الغرفة التي بلا ضوء، حيث غبار باحة النحات قد غطى كل شيء، مثل مسحوق على بشرة فتاة، بدت لي المرأة كئيبة جداً.

قلت: "ما الأمر؟"

قالت بصوتها الأجش المرعب: "كنت أفكر كيف تغيرت حياتي."

قلت: "وماذا عن حياتي؟"

قالت: "لو كنت في الخارج، لكنت أجري امتحاناتي الآن. هل كانت سهلة؟"

قلت: "أنا أقاطع الجامعة."

"كيف ستحصل على عمل؟ من سيعطيك نقوداً؟ اذهب واجرِ امتحاناتك."

"لم أدرس. لا أستطيع أن أتعلم تلك الملاحظات الآن. لقد فات الأوان."

"سوف يجعلونك تنجح. أنت تعرف هؤلاء الناس."

عندما أُعلنت النتائج قال والدي:"لا أستطيع أن أفهم ذلك. سمعت أنك لا تعرف أي شيء البتة عن الرومانسيين و رواية (مدير بلدية كاستربريج). أرادوا أن يرسبوك. وكان على مدير الكلية أن يقنعهم بعكس ذلك."

كان يجب أن أقول: "أحرقتُ كتبي منذ وقت طويل. إنني أتبع نداء المهاتما. إنني أقاطع الثقافة الإنكليزية." لكنني كنت ضعيفاً جداً. في اللحظة الحرجة خنتُ نفسي. كل ما قلته كان: "شعرت أن قوتي كلها تهرب مني في قاعة الامتحان." وكان بإمكاني أن أبكي على ضعفي.

قال والدي: "بما أنه كانت تعترضك صعوبات مع هاردي و وَسكس وما إلى ذلك، كان عليك أن تأتي إليّ. ما زلت أحتفظ بكل ملاحظات المدرسة."

كان يُمضي يوم راحة، في الغرفة الأمامية الصغيرة الحارّة من منزل الدرجة (C). كان بدون قبعته وبدلته، ويرتدي فقط قميصه الداخلي ومئزره. موظفو المهراجا، بالرغم من قبعاتهم وبزاتهم ومعاطفهم النهارية والليلية، لم يكونوا يرتدون أحذيةً على الإطلاق، وباطن القدم عند والدي كان أسودَ وقاسياً تصل سماكته إلى نصف البوصة.

قال: "أعتقد أن قسم ضرائب الأراضي لك."

ورحت أعمل لمصلحة ولاية المهراجا. كان قسم ضرائب الأراضي كبيراً جداً. كل شخص يمتلك قطعةً صغيرة من الأرض كان عليه أن يدفع ضريبةً عنها. كان ثمة العديد من الموظفين في كل أنحاء الولاية يمسحون الأراضي، ويسجلون الملكية، ويجمعون الضرائب، ويفتحون الحسابات. كان عملي في المكتب المركزي. كان بناءً جميلاً من الرخام الأبيض وله قبّة عالية. كان مملوءاً بالغرف. وكنت أعمل مع عشرين آخرين في غرفة كبيرة عالية. كانت الغرفة مملوءة بالأوراق المرمية على المقاعد والرفوف الداخلية، مثل غرف الأمتعة المتروكة في محطات القطار. كانت الأوراق توضع في مصنفات من الورق المقوى مربوطة بخيط، وأحياناً تكون داخل صرر مربوطة بأقمشة. المصنفات على الرفوف العلوية، عمرها سنوات عدّة، تميل إلى الدكنة بسبب الغبار ودخان السجائر. كان السقف رمادياً بفعل هذا الدخان. وللغرفة في قسمها العلوي لون النيكوتين البني، والقسم السفلي ضارب بالتدريج إلى الحمرة الداكنة على الأبواب والمقاعد والأرض.

حزنت على نفسي. هذا النوع من الشغل المهين لم يكن يشكل جزءاً من رؤيتي لحياة التضحية. أما الآن فأنا سعيد لأن لدي عملاً. كنت أحتاج إلى النقود، بالرغم من أنها كانت تافهة. كنت غارقاً في الديون. استخدمتُ اسمَ والدي ومنصبه في القصر، واقترضتُ نقوداً من مرابين كثيرين، لكي أعيل الفتاة التي تعيش في غرفة بناء الصور.

رتبت الفتاةُ المكانَ وجعلته مقبولاً. هذا كلّه كلّف نقوداً، وكان هناك أيضاً حاجات المطبخ، وثيابها. وهكذا كنت أتحمل مصاريف رجلٍ متزوج، وأعيش مثل الناسك في بيت والدي من الدرجة (C).

لم تصدق الفتاة أبداً أنني لا أملك مالاً. كانت تعتقد أن أناساً من طبقتي يملكون مدخرات سرية. كان ذلك جزءاً من الدعاية في الخارج ضد طبقتي، وكنت أتحمّل ما يُقال دون تعليق. عندما كنت أقدم لها مبلغاً قليلاً من المال من أحد المرابين لم تكن تبدو مدهوشةً. كانت تقول بسخرية أو بازدراء: "لا أعلم ماذا كان بروفيسورنا سيقول، تبدو حزيناً. ولكن طبقتك تبدو دائماً حزينة عندما تعطي". كان لها أحياناً أسلوب عمّها مثير الفتن بين المنبوذين.

كنت ممتلئاً بالحزن. لكنها كانت سعيدة حيال العمل الجديد.

قالت: "يجب أن أقول إنه لأمر حسن أن تتقاضى بعض المال المنتظم من أجل التغيير فقط."

قلت: "لا أعلم كم سأبقى في ذلك العمل."

قالت: "تحمّلتُ الكثير من المصاعب للتوّ. لا أنوي تحمّل المزيد. كان يمكن أن أكون خريجة جامعية. لو لم تأخذني من الجامعة لكنت أجريت الامتحان. مرّت عائلتي بكثير من المتاعب لترسلني إلى الجامعة."

كان بمقدوري البكاء من فرط الغضب.

ليس بسبب ما كانت تقوله، بل بسبب فكرة البيت-السجن الذي كان عليّ أن أعيش فيه الآن. يوماً وراء يوم كنت أغادر منزل أبي وأذهب إلى العمل. شعرت أنني طفل ثانية. كانت ثمة قصة تعوّد أبي وأمي سردها للناس عني عندما كنت طفلاً. ذات يوم قالا لي: "اليوم سنأخذك إلى المدرسة." وفي آخر النهار سألاني: "هل أحببت المدرسة؟" قلت: "أحببتها." في الصباح التالي أيقظاني باكراً. عندما سألتهما لماذا يفعلان ذلك قالا: "عليك أن تذهب إلى المدرسة." قلت باكياً: "لكنني ذهبت إلى المدرسة البارحة." هكذا كنتُ أحسّ حيال ذهابي إلى العمل في قسم ضرائب الأراضي، وكانت ترعبني فكرة الذهاب إلى العمل، في مكان كهذا، كلّ يوم، وكلّ سنة، حتى أموت.

ذات يوم، في المكتب، أتى المشرفُ، وقال: "تمّ نقلكَ إلى قسم التدقيق."

في ذلك القسم كان علينا أن نتعقب الفساد بين صفوف جباة الضرائب والمفتشين. كان الموظفون يأخذون ضريبة الأرض من الناس الفقراء الذين لا يستطيعون القراءة، ولا يعطون إيصالات، وكان على المزارع الفقير، الذي يملك ثلاثة أو أربعة هكتارات، أن يدفع الضريبة ثانية، أو يدفع رشوةً للحصول على إيصاله. كان ذلك لانهاية له، أقصد الغش التافه بين الفقراء. لم يكن الموظفون أكثر غنى من المزارعين. من الذي كان يعاني عندما لا تُدفع الضريبة؟ وكلما نظرت إلى تلك الأجزاء القذرة من الأوراق، وجدت نفسي في صفّ المحتالين. بدأت أتلف أو أرمي تلك الأجزاء اللعينة القليلة من الأوراق. أصبحت نموذجاً للمخرّب،

وهذا التفكير أعطاني متعة عظيمة بأنني في هذا المكتب، ودون أن أصدر أي بيان عريض، كنت أمارس نموذجي الخاص من العصيان المدني.

قال لي المشرف ذات يوم: "المفتش العام يريد رؤيتك."

شجاعتي تلاشت. فكرت بالديون، بالمرابي، بالفتاة في الغرفة في مصنع الصّور.

كان المفتش العام يجلس خلف المقعد محوطاً بمصنفاته الخاصة، مصنفات سوء التصرف، التي نُسّقت ورتُبت على نصف دزينة من المقاعد، ومن ثم نُسقت ثانيةً حتى وصلت إلى هنا، بانتظار الحكم المرعب لهذا الرجل.

مال بكرسيه باتجاه الخلف، ناظراً إلي من خلال عدساته السميكة، وقال: "هل أنت سعيد في عملك هنا؟"

أومأت برأسي. لم أقل شيئاً.

قال: "بدءاً من الأسبوع القادم سوف تكون مفتشاً مساعداً."

كانت ترقية كبيرة. شعرت أن ذلك فخٌّ. قلت: "لا أعلم، سيدي. لا أشعر أنني أمتلك الكفاءات."

قال: "لن نجعلك مفتشاً كاملاً. نحن ننصبك فقط كمفتش مساعد."

كانت تلك أولى ترقياتي. لم يكن يهمّ الأداء السيئ الذي أنجزت فيه عملي، ومدى ما مارست من تخريب، لكنهم استمرّوا في ترقيتي. كان ذلك يشبه عصياناً مدنياً معكوساً.

أقلقني ذلك. ذات مساء تحدثت إلى أبي عن ذلك.

قال: "مدير المدرسة يمتلك طموحات عظيمة لصهره."

قلت: "لا يمكن أن أكون صهره. أنا متزوج."

لا أعلم لماذا خطر لي أن أقول ذلك. لم يكن ذلك صحيحاً بالطبع. لكن تلك كانت الطريقة التي بدأت أفكر بها بخصوص علاقتي بالفتاة في مصنع الصور.

استشاط أبي غضباً. تلاشى لطفه ورأفته. أصبح مفطور القلب. ومر وقت طويل جداً قبل أن يسألني عن التفاصيل.

"من هي الفتاة؟"

أخبرته. لم يستطع أن يتكلم. ظننت أنه سينهار. أردت أن أهدئ من روعه. رحت أخبره عن مثير الفتن، عمِّ الفتاة. كنت أحاول أن أخبره، بطريقة غبية، وعلى النقيض التام لأفكاري عن التضحية، بأن الفتاة جاءت من مرجعية، من نوع ما، ولم تكن تماماً نكرةً. هذا جعل الأمور أكثر سوءاً. لم يحبّ أن يسمع عن مثير الفتن. تمدّد أفقياً على فراش من البامبو العتيق على الأرض الإسمنتية في غرفتنا الأمامية الصغيرة، ونادى أمي. كنت أستطيع أن أرى بوضوحٍ كبيرٍ الدماملَ السميكةَ من الجلد القاسي على أخمص قدميه. كانت قذرة ومتشققة، مع نثرات صغيرة تتقشّر على الجوانب. وبوصف أبي من الحاشية، لم يكن يُسمح له على الإطلاق أن يرتدي حذاءً. لكنه كان قد اشترى حذاءً من أجلي.

أخيراً قال: "لقد سوّدتَ وجوهنا جميعاً. وعلينا الآن أن نواجه غضب مدير المدرسة. لقد دنّست شرف ابنته، بما أنك كنتَ في نظر الجميع على وشك أن تتزوج منها."

هكذا، وعلى الرغم من أنني لم ألمس أياً منهما، ولم أقم المراسيم لأي منهما، هناك امرأتان كنت دنّست شرفهما.

في الصباح كان أبي مجوف العينين. لم ينم جيداً. قال: "منذ قرون ونحن كما نحن. حتى عندما أتى المسلمون. حتى عندما تضورنا جوعاً. الآن أنت رميت بإرثنا جانباً."

قلت: "الآن هو وقت التضحية."

"التضحية ، التضحية ، لماذا ؟"

"إنني أتبع نداء المهاتما."

هذا ما جعل والدي يتوقف. قلت: "أنا أضحي بالشيء الوحيد الذي يجب أن أضحي به." كان سطراً خطر لي في المساء الفائت.

قال أبي: "مدير المدرسة رجل قوي، وأنا متأكد أنه سيجد طريقة لإشعال النار من تحتنا. لا أعرف كيف سأخبره. لا أعلم كيف سأواجهه. من السهل عليك أن تتحدث عن التضحية. تستطيع أن تغادر. أنا ووالدتك سنتحمل العواقب. سيكون من الأفضل حقاً أن تغادر. لن يُسمح لك بالعيش مع منبوذة هنا. هل فكّرت في هذا ؟"

وكان أبي على حق. كان الأمر سهلاً عليّ حتى هذه النقطة. لم أكن في الواقع أعيش مع المرأة. تلك الفكرة صارت ملموسة أكثر كلّ يوم، ولطالما جعلتني أنفر أكثر فأكثر. هكذا وجدت نفسي في وضع غريب.

لأسابيع سارت الحياة كما كانت عليه من قبل. كنت أعيش في بيت والدي الحكومي. وأقوم بزيارات متقطعة إلى مصنع الصور. أذهب إلى عملي في قسم الضرائب. كان القلق يساور أبي دائماً بخصوص مدير المدرسة، ولكن لاشيء حدث.

ذات يوم قال لي المراسل: "المفتش العام يريد رؤيتك."

كان المفتش العام يحتفظ بكومة من المصنفات على مقعده.

استطعت تَعَرُّفَ بعض منها. قال: "إذا قلت لك إنك زُكّيت إلى ترقية أخرى هل سيدهشك الأمر؟"

"كلا. نعم. لكنني لست مؤهلاً. لا أستطيع أن أتكيف مع هذه الترقيات."

"هذا ما أشعر به أيضاً. كنت أراجع بعضاً من أعمالك. أصبت بالإرباك. هناك وثائق أُتلفت، وإيصالات رُميت."

قلت، "لا أعلم. مخرب ما."

"أعتقد أنه يجب أن أقول لك فورياً: أنت قيد التحقيق بتهمة الفساد. ثمة شكاوى من مسؤولين كبار. إنها قضية خطيرة. فساد. يمكن أن تذهب إلى السجن. سجنٌ طويل الأمد. ثمة ما يكفي في هذه المصنفات لإدانتك."

ذهبت إلى الفتاة في مصنع الصور. كانت الشخص الوحيد الذي يمكنني التحدث إليه.

قالت: "كنت تقف إلى جانب المحتالين؟" بدا هذا وكأنه يسعدها.

"حسنٌ، أجل. لم أكن أظن أنهم سيكتشفون أمري. كان ثمة الكثير من الأوراق في المكان. يستطيعون أن يطبخوا أي قضية ضد أي شخص. مدير الكلية ضدي. يجب أن أخبرك. كان يريدني أن أتزوج من ابنته."

فهمت الفتاةُ الحالة مباشرة. لم أكن بحاجة إلى قول المزيد. صاغت كل العلائق.

قالت: "سوف أقترح على عمي الخروج بمسيرة."

عمٌّ، مسيرةٌ: رعاع من المنبوذين يحملون أعلامهم الصريحة

ويهتفون باسمي خارج القصر ومبنى المستشارية. قلت: "كلا، كلا. من فضلك لا مسيرات."

أصرت الفتاة. كان دمها يغلي. قالت: "إنه محرك حشود." استخدمت الكلمة الإنكليزية.

فكرةُ أن تُقدّمَ لي الحماية من مشيرٍ للفتن كانت لا تطاق. وأدركتُ، بعد كل الضربات التي وجهتها له، أن ذلك كفيل بالقضاء على أبي. كان ذلك عندما بدأت أفكر، يمكنك أن تقول، بالهرب كوني أصبحتُ محاصراً بين الفتاة ومدير المدرسة، بين مشير الفتن وتهديد السجن، محاصراً بين الشيطان وبحر عميق أزرق في كل اتجاه. بدأت أفكر باللجوء إلى معبد قديم مشهور في المدينة. تماماً مثل جدي. في تلك اللحظة من التضحية القصوى، انكفأتُ، كأنما غريزياً، باتجاه الأساليب القديمة.

أجريت تحضيراتي سراً. لم يكن ثمة الكثير للتحضير له. كان أصعب شيء يجب أن أفعله هو حلاقة رأسي تماماً. باكراً جداً ذاتَ صباح، ومثل الإله بوذا مغادراً موبقات قصر أبيه، غادرتُ منزل أبي، مرتدياً ثياباً تليق بطبقتي، ومشيتُ حافي القدمين، عاري الظهر إلى المعبد. لم يكن أبي قد ارتدى حذاءً أبداً.

أما أنا فكنت ارتديه طوال الوقت، إلا في بعض المناسبات الدينية النادرة، وباطن قدمي كان ناعماً ورقيق الجلد، وخالياً من دمامل أبي. حالاً صارت قدماي حساستين، وعجبت كيف سيكون حالهما عندما تطلع الشمس وتصبح حجارة باحة المعبد ساخنة.

مثل جدي طوال كل تلك السنين، رحت أتجول في الباحة خلال النهار لأتجنب أشعة الشمس. بعد الصلوات في المساء كان يُقدم لي

الطعام. وعندما حان الوقت قدمت نفسي كمتسول لكهنة المعبد، وفزت بملجأ، سامحاً لهم بمعرفة أسلافي في ذات الوقت. لم أقم بأيِّ محاولة للاختفاء. كانت باحة المعبد مكاناً عاماً مثل الطريق الرئيس. اعتقدتُ أنه كلما شاهدني العامة سنحت لهم فرصة تَعَرُّفِ حياتي في التضحية، وبالتالي عَظُمَ إحساسي بالأمن. غير أن حالتي لم تكن معروفة جيداً، واستغرق وجودي في الواقع بعض الوقت، ثلاثة أو أربعة أيام، قبل أن أصبح معروفاً، وقبل أن تندلع الفضيحة.

كان مدير المدرسة وموظفو قسم الضرائب على وشك الانقضاض عندما خرج مثير الفتن بمسيرته. أصبح الجميع خائفاً. لم يلمسني أحد. هكذا أصبحت على الرغم من حزني وشعوري بالعار، ومع إحساسي بالأسى على والدي وعلى ماضينا، أصبحت جزءاً من قضية المنبوذين.

استمر ذلك لأسبوعين أو ثلاثة. لم أكن أعلم كيف أتحرك، أو كيف سينتهي الأمر كله. لم أكن أدري كم سأستمر في تلك الحالة الغريبة. كان محامو الحكومة منهمكين في العمل، وكنت أعلم أنه لولا مثير الفتن، لما كان لي ملجأ يحميني من المحاكم. خطر لي عندئذ أن أفعل كما فعل المهاتما في مرحلة ما: أن أقطع عهداً بالصمت. ناسبَ ذلك مزاجي، كما أنه بدا أقل الوسائل تعقيداً للخروج من المأزق. أخبار هذا القَسَم بالصمت انتشرت. الناس البسطاء الذين جاؤوا من بعيد لتقديم احترامهم لإله المعبد، صاروا يتوقفون الآن لتقديم احترامهم لي. حالاً أصبحت رجلاً مقدساً، وبسبب مثير الفتن وابنة أخيه في الخارج، صرت أيضاً قضية سياسية.

قصتي أصبحت معروفة مثل قصة أحد المحامين الأنذال في ولاية

أخرى، وهو منبوذ متسلّق يدعى مادهافان. ذاك الشخص الوقح- الذي ضرب عرض الحائط بكل عرف وشرف- أصرّ على المشي بمحاذاة المعبد، بينما كان الكهنة يقيمون مجموعة طويلة وصعبة من المراسم الدينية. إذا ارتكبتَ هفوةً صغيرةً واحدة، خلال تلك المراسم الخاصة، كان عليكَ أن تعود إلى البداية من جديد. في مناسبات كهذه كان من الأفضل للمنبوذين، بجلبتهم النشاز، أن يبقوا بعيداً، وأن يظل شارع المعبد بالطبع مغلقاً في وجوههم.

في مكان آخر من البلاد كانوا يتحدثون عن غاندي ونهرو والبريطانيين. هنا في ولاية المهراجا كانوا معزولين عن تلك السياسات. كانوا نصف وطنيين أو ربع وطنيين وأقلّ. قضيتهم الكبيرة كانت الحرب الطبقية. ولبعض الوقت مارسوا عصياناً مدنياً تجاه المحامي وتجاهي، ونظموا الحملات للدفاع عن حق المحامي بالسير بمحاذاة المعبد، وعن حقي بالزواج من ابنة أخ مثير الفتن، أو عن حقها بالزواج مني.

المسيرات وإضرابات اليوم الواحد أبقتني بمنأى عن مدير المدرسة والمحاكم، وعن الفتاة أيضاً. لكن آلمني كثيراً، بصورة تفوق الوصف، أن أوضع في خانة واحدة مع المحامي. ظننت أنه من غير العدل أن تتخذ حياتي في التضحية ذلك المنحى؛ إذ لطالما حلمت، على أيّ حال، بأن أتبع فقط الرجال العظام في وطني. لكن القدر الذي كان يلعب بي جعلني بطلاً لأناس رغبوا الإطاحة بهؤلاء، بينما كانوا يخوضون حربهم الطبقية التافهة.

مضت ثلاثة أشهر، أو أكثر، وأنا أعيش بتلك الطريقة، أتقبل العرفان من زوار المعبد، متجاهلاً هداياهم، وبالطبع رافضاً الكلام. لم

تكن في الحقيقة طريقة غير مقبولة لتمضية الوقت، بل ناسبتني كثيراً. وبالطبع كان قَسَم الصمت مساعدة عظيمة لي. لم أكن أعلم إلى أين ستفضي الأمور، وبعد فترة قصيرة لم أعد أقلق حيال ذلك. بل بدأت، حين كان الصمت يطغى علي، أغتبط لهذا الشعور بكوني منفصلاً، سابحاً، دون أي علائق تربطني مع أي شيء أو أي شخص. أحياناً كانت تمضي عشر، أو خمس عشرة دقيقة، أو أكثر، أنسى فيها حالتي. أحياناً كنت أنسى حتى أين أنا.

كان ذلك حين ظهر الكاتب العظيم وصديقه، ومعهم مدير المدرسة، وأخذت حياتي منعطفاً آخر.

كان المدير أيضا رئيساً للمنشورات السياحية في الولاية، وكان يتجول مع الناس البارزين ويطلعهم على ما يجري. رمقني بنظرات من الكراهية الصافية- كل أنواع القلق القديم عادت إلي عندئذ- وكان يفضل تجاوزي، لولا أن صديق الكاتب، السيد هاكستون، سأل عني. قال المدير، مصدراً إشارة غاضبة إقصائية بيده: "لا أحد، لا أحد." غير أن السيد هاكستون أصرّ، متسائلاً لماذا كان الناس يجلبون لي الهدايا. قال لهم المدير إنني قطعت عهداً بالصمت، وإنني كنت صامتاً لأكثر من مائة يوم للتو. اهتم الكاتب بذلك كثيراً. رأى المدير ذلك، وبطريقة أناس على شاكلته وكخادم جيد للقسم السياحي لدى المهراجا، بدأ يقول ما كان يظن بأن الكاتب العجوز وصديقه يريدان سماعه. ثبت بصره القاسي المبغض عليّ، وراح يتفاخر بعائلتي الكهنوتية وبأسلافنا في المعبد. كما أنه راح يتفاخر بمسيرتي المبكرة، والتباشير المضيئة التي كنتُ أعدُ بها. كل هذه الأشياء تخليت عنها مقابل حياة الزاهد الذي يعيش في الباحة، معتمداً على صدقات الحجّاج إلى المعبد.

أفزعني ذلك المديح من قبل المدير. ظننت أنه يخطط لأمر خبيث، وكنت أشيح ببصري بينما كان يتكلم، وكأنني لا أفهم اللغة التي يتحدث بها.

قال المدير، عاضاً بقوة على كل كلمة: "إنه يخشى عقاباً عظيماً في هذه الحياة وفي الحياة الآخرة. وهو على حق في خوفه."

قال الكاتب: "ماذا تعني؟" كان يعاني من تلعثم سيئ.

قال المدير: "ألسنا جميعاً ندفع كل يوم ضريبة عن ذنوب الماضي، وفي الوقت نفسه نخزّنُ عقاباً للمستقبل؟ أليس هذا فخّ كل إنسان؟ إنه الشرح الوحيد الذي أملكه عن مصائبي."

تجاهلت نبرة الاحتقار في صوته. ولم أستدر لمواجهته.

أتى الكاتب وصديقه ثانيةً في اليوم التالي، من دون المدير. قال الكاتب: "أدري بقسمك عن الصمت. ولكن هلاّ كتبت بعض الأجوبة عن بعض الأسئلة التي أملكها؟" لم أهزّ رأسي ولم أصدر أي إشارة بالموافقة، لكنه طلب من صديقه ورقةً وراح يكتب عليها بقلمه: "هل أنت سعيد؟"، أثار السؤال اهتمامي، وتناولت الورقة والقلم وكتبت بجدية تامة: "داخل صمتي أشعر بأنني حرّ تماماً. هذه سعادة."

كان ثمة العديد من تلك الأسئلة. أشياء سهلة، حقاً، ما أن تفحّصتها. كانت الأجوبة تهبط علي دون عناء. لا بل استمتعت بها. وكنت أرى أن الكاتب أيضاً مستمتع. قال لصديقه، متحدثاً بصوت عال، كما لو كنت - لأنني لا أتكلم - أصمّ: "أشعر بأن هذا يشبه قليلاً الإسكندر والبراهميّ. هل تعرف القصة؟" قال السيد هاكستون بانزعاج: "لا أعرف القصة." كانت عيناه محمرّتين، ويبدو سيئ المزاج في ذلك

الصباح. ربما كان ذلك بسبب الحرارة. كانت الشمس ساطعة جداً، والحجارة البيضاء لباحة المعبد تصدر الكثير من السخونة. قال الكاتب بخبث سهل، ودون تلعثم: "لا توجد مشكلة." ثم اتجه نحوي وأنجزنا بعضاً من الكتابة الإضافية.

عند نهاية هذا اللقاء شعرت بأنني نجحت في امتحان. كنت أعرف أن أخبار هذا اللقاء سوف تنتشر، وأنه بسبب التقدير للكاتب العظيم، لن يكون بمقدور المدير أو غيره من مسؤولي الولاية إيقاع أي أذىً بي. وهكذا سارت الأمور. في الحقيقة، بدؤوا يعبرون عن شعورهم بالفخار بي في حضور الكاتب. مثل مدير المدرسة المسكين نفسه، بدأ الجميع يفاخر قليلاً بي.

ومع مرور الوقت كتب الكاتب كتابه. بعد ذلك أتى أناس أجانب آخرون. هكذا، وبينما كان صراع الاستقلال العظيم جارياً في الخارج كما أسلفت، بدأت أحظى بشيء أشبه بالسمعة- متواضعة، لكنها مع ذلك حقيقية- داخل بعض الدوائر الفكرية أو الروحية ذات النفوذ في الخارج.

لم يكن بالإمكان الهروب من الدور الآن. في البداية كنت أشعر بأنني نصبت فخاً لنفسي. ولكن لم يطل الوقت حتى وجدتُ أنّ الدور يناسبني. أصبحت مرتاحاً معه أكثر فأكثر، وفي أحد الأيام فهمت عبر سلسلة من الحوادث، تسارعت كأنها في الحلم، من حالة غير متوقعة إلى أخرى، حيث كنت أتصرف دائما تحت وقع اللحظة، راغباً فقط بأن أرفض خنوع حياتنا، ودون أي رؤية واضحة لما سيأتي، أقول فهمت أنني سقطت في حبائل أساليب السلف. دُهشت وجزعت. شعرت بأن قوة عليا ما مدت يد المساعدة ودلتني على الطريق الحقيقي.

مدير المدرسة ووالدي فكرا بطريقة أخرى. بالنسبة لهما- بالرغم من كل المديح الذي صبّه المدير علي لأسباب رسمية- كنت فقدت صفائي بشكل لا رجعة فيه، وهما يعتقدان بأنني رجل ساقط من طبقتي، وطريقي احتقارٌ للطرق المقدسة. لكنني تركت هذا يحدث. هما وحزنهما كانا بعيدين عني.

وكان الوقت قد حان الآن لأنظم حياتي. لم أكن أقدر على الاستمرار في العيش في المعبد. كان علي بصورة ما أن أعتمد على نفسي، وأسوّي حياتي مع الفتاة. لم أعد أستطيع الابتعاد عنها أكثر مما أستطيع التخلي عن دوري. أن أهجرها يعني أن أضاعف إهانتها، وكان مثير الفتن دائماً هناك لأضعه في الحسبان. لم أكن أستطيع أن أقول ببساطة آسف لكل شخص وأعود إلى ما كنت عليه.

حدث كل هذا بينما كانت الفتاة لا تزال تعيش في مصنع الصور، في غرفتها الصغيرة خلف المخزن، مع الآلهة المنجزة والدمى الرخامية البيضاء لأناس محليين ذوي شأن. ومع تعاقب الأيام بدت علاقتنا، التي كانت مشهورة تماماً في بلدتنا الآن، أكثر استقراراً، وازداد شعوري بالخجل منها مع مرور الوقت. كنت خجولاً منها مثلما كان أبي وأمي والمدير، والناس الذين على شاكلتنا، خجولين مني. هذا الخجل كان دائماً معي، ذاك الأرق الخفيف الذي كان دائماً في خلدي مثل المرضِ المستعصي، مفسداً علي جميع لحظاتي، وجميع انتصاراتي الصغيرة (تلميح آخر في كتاب، مقالة أخرى في مجلة، زائر آخر ذو شأن). بدأتُ أتخذ ملجأً- على الرغم من أن هذا قد يبدو غريباً -في كآبتي. دللتها- كآبتي- وأضعت نفسي فيها. أضحت الكآبة جزءاً حيوياً من شخصيتي

لدرجة أنني كنت لفترات طويلة أنسى القضية.

هكذا، أخيراً، أصبحت رجلاً ذا إنجاز يخصّني. كانت ثمة نعمة صغيرة واحدة. كان يُظَن أنني متزوج من الفتاة. ومن ثمَّ لم يكن هناك مراسم. لا أعتقد أنه كان باستطاعتي تحمل ذلك. لم يكن قلبي مستعداً لهذا التدنيس. ومن خصوصياتي، وفي أعماق قلبي، أنني كنت قطعت عهداً بالامتناع عن الجنس، عهداً بالتعفّف البراهمي، مثل المهاتما. وعلى نقيضه فشلت. كنت ممتلئاً بالخجل. وقد لقيت عقابي بسرعة كبيرة. اكتشفت فيما بعد أن الفتاة حامل. الحمل، ذاك التضخم في بطنها، تلك التغيرات في جسدها غير الجذاب أصلاً، عذّبني وجعلني أصلّي بأن ما أشاهده ليس هناك.

جلّ قلقي، عندما ولد الصغير ويلي، هو أن أرى كم من "التخلف" يمكن قراءته في ملامحه. كلّ شخص كان يراني منحنياً على الرضيع يظن أنني أنظر إلى المخلوق الصغير بكبرياء. في الحقيقة، جميع أفكاري كانت داخلية، وقلبي كان يغرق.

بعد مرور وقت قليل، حين بدأ يكبر، كنت أنظر إليه دون أن أقول أي شيء، وأشعر بأني على حافة البكاء. كنت أهذي: "ويلي الصغير ، ويلي الصغير، ما الذي فعلته لك؟ لماذا ألحقتُ هذه اللطخة بك؟" ومن ثمّ أفكّر: "ولكن هذا هراء. إنه ليس أنتَ أو لكَ. وجهه يُظهِر ذلك بوضوح. لم تفرض عليه أي لطخة. كل ما أعطيته إياه تلاشى في ميراثه العريض." ولكنّ أملاً خفيفاً من أجله ظلّ معي دائماً. كنت، على سبيل المثال، أرى واحداً من نوعنا وأفكّر: "ولكن إنه يشبه ويلي. إنه صورة الصغير ويلي." ومع هذا الأمل، خافقاً في صدري، كنت أذهبُ وأنظر

إليه، ومن النظرة الأولى كنت أعرف أنني خدعت نفسي مرة أخرى.

كل هذا كان بمنزلة مسرحية خاصّة. وقد ذوبتها في كآبتي. لم أسرّ لأحد بها. أتساءل ماذا كانت والدة ويلي ستقول لو عرفت. مع ولادة ابنها انتقلت إلى نوع من الزهوّ المرعب. بدت كأنها نسيت طبيعة مهنتي. أصبحت أسيرة البيت. وراحت تتلقى دروساً في ترتيب الزهور من زوجة ضابط إنكليزي- لم يكن الاستقلال قد تحقق: كانت لا تزال لدينا حامية بريطانية في المدينة- وتلقّت دروساً في الطبخ والفنون المنزلية من سيدة باريسية. كانت تحاول أن تسلّي ضيوفي. كنت أشعر بالعار. أتذكر مناسبة واحدة مرعبة. كانت قد رتبت الطاولة أو أعدتها بطريقتها الجديدة. على الصحن الجانبي لكل ضيف وضعت منشفةً. لا أظن أن ذلك صحيحٌ. لم أقرأ أبداً عن مناشف على طاولة العشاء، ولم أشاهدها في أي فيلم أجنبي ذهبت إليه. لكنها أصرت. استخدمت كلمة "منديل المائدة" أو شيئاً من هذا القبيل. لم تكن في تلك الأيام في حالة دفاعية، وسرعان ما بدأت تقول أشياء حمقاء عن أسلافي الذين لا يعرفون شيئاً عن الفنّ المنزلي. لم يُصلح شيء بيننا عندما قدم أول ضيف (رجل فرنسي كان ينجز كتاباً عن رومين رولاند الذي كنا نجلّه جميعاً في الهند لأنه، كما أشيع عنه، كان أحد المعجبين بالمهاتما)، وكان عليّ أن أنكفئ إلى كآبتي، وأعيش طوال المساء مع تلك المناشف على الطاولة.

تلك كانت طبيعة حياتي. ويمكن تخيّل بؤسي المطلق، ومقتي لذاتي، عندما أصبحت والدة ويلي حاملاً للمرة الثانية بالرغم من قسمي الخاص بالتعفّف البراهمي الذي كان يمثل أعمق جزء من طبيعتي. هذه

المرة كانت بنتاً، وهذه المرة لم تكن هناك أي فسحة لخداع الذات. كانت البنت صورةً عن أمها. كان ذلك يشبه عقاباً إلهياً. سمّيتها ساروجيني على اسم شاعرة حركة الاستقلال، أملاً في أن تهبط عليها نعمة مشابهة، لأنّ الشاعرة ساروجيني، وبالرغم من أنها كانت وطنيةً عظيمة، ومحطّ إعجاب بسبب ذلك، فإن حظوظها كانت قليلة أيضاً.

* * *

تلك كانت القصة التي رواها والد ويلي تشاندران. وقد استغرقت عشر سنوات. أشياء مختلفة كان يجب أن تقال عبر أوقات مختلفة. وقد كبر ويلي تشاندران خلال سرد القصة.

قال والده: "سألتني منذ سنوات عدة، وقبل أن أبدأ القصة، عمًّا إذا كنت حقاً معجباً بالكاتب الذي سمّيتكَ على اسمه. قلتُ لست متأكداً، وأنّ عليك أن تكوّن رأيكَ. الآن وقد سمعت ما قلته، ما رأيك؟"

قال ويلي تشاندران: "إني أحتقرك."

"هذه أمك التي تتكلّم."

قال ويلي تشاندران: "ما الذي يخصّني هناك فيما قلته؟ لم تقدم لي شيئاً."

قال والده: "كانت حياةً من التضحية. لا أملك كنوزاً أقدمها لك. كل ما أملكه صداقاتي. هذا هو كنزي."

"ماذا عن ساروجيني المسكينة؟"

"سوف أتحدث إليك بصراحة. أشعر بأنها أُرسلت لتمتحننا. لا أستطيع أن أقول لك شيئاً عن مظهرها مما لا تعرفه للتوّ. مستقبلها في هذا البلد ليس ساطعاً. غير أن للأجانب أفكارهم الخاصة عن الجمال وأشياء معينة أخرى، وكل ما أتمناه لساروجيني زواج دولي."

٢

الفصل الأول

التحق ويلي تشاندران وشقيقته ساروجيني بمدرسة تبشيرية. ذات يوم أحد أساتذة ويلي الكنديين سأله بطريقة وُدِّيَّة وباسمة: "ماذا يعمل والدك؟" كان سؤالاً وجّهه المعلم في أوقات مختلفة لأولاد آخرين أيضاً، وكانوا جميعاً قد أفصحوا عن المهن المنحطّة المختلفة لآبائهم. تعجّب ويلي لوقاحتهم. ولكن الآن عندما طرح السؤال عليه، وجد ويلي أنه لا يعرف ماذا يقول عن عمل والده. ووجد نفسه خجلاً أيضاً. استمرّ المعلم بابتسامته ينتظر جواباً، وأخيراً قال ويلي تشاندران بسخط: "جميعكم تعرفون ماذا يعمل والدي." ضحك الصفّ. ضحكوا على سخطه وليس على ما قاله. منذ ذلك اليوم راح ويلي تشاندران يحتقر والده.

كانت والدة ويلي تشاندران قد تلقت تعليمها في المدرسة التبشيرية، وكانت رغبتها أن يذهب أولادها إلى هناك. معظم الأطفال في المدرسة كانوا من المنبوذين، الذين لا يمكن قبولهم في المدارس المحلية المخصصة لأبناء الطبقات الوراثية، أو كانوا سيجدون الحياة صعبة جداً في حال قبولهم. هي نفسها، في بادئ الأمر، كانت قد ذهبت إلى إحدى هذه المدارس الطبقية. كانت المدرسة كوخاً مهدماً مغبراً في إحدى

الضواحي البعيدة عن قصر المهراجا وعن نيّاته الطيبة. وبرغم أنها كانت مهدمة، لم يكن المعلمون وخدم المدرسة يريدون والدة ويلي تشاندران هناك. حتى إن خدم المدرسة كانوا أكثر حدةً من المعلمين. قالوا إنهم يفضلون الموت جوعاً على أن يخدموا في مدرسةٍ تؤوي المنبوذين. وقالوا إنهم سيبدؤون إضراباً. ولكن، في النهاية، جميعهم ابتلعوا كرامتهم وحديثهم عن الإضراب، وسمح للفتاة بالدخول. سارت الأشياء بشكل خاطئ في اليوم الأول. أثناء الاستراحة الصباحية هرعت الفتاة مع أولاد آخرين إلى مكان في الباحة، حيث خادم رثّ نصف متضوّر كان يقدم الماء من برميل. كان يستخدم مغرفةً من البامبو ذات قبضة طويلة، وعندما يظهر الطالب أمامه كان يصب الماء في وعاء من النحاس أو الألمنيوم. ولكن عندما ظهرت البنتُ أمامه لم يُقدم لها أي خيار. أصبح الخادم الرثّ نصف المتضوّر غاضباً ومخيفاً، وأصدر نوعاً من الضجة، كما لو أنه على وشك أن يرفس كلباً شارداً. اعترض بعض الأطفال، فراح الساقي يبتكر مشهداً كمن يبحث عن شيء، والتقط من مكان ما علبة صدئة وقذرة متشققة عند حوافٍّ فتحتها. كانت علبة "دن" و "وود" زرقاء للسمن من استراليا. في تلك العلبة سكب الماء للبنت. وبتلك الطريقة تعلمت والدة ويلي تشاندران أنه في العالم الخارجي يكون الألمونيوم للمسلمين والمسيحيين وأناس من هذا النوع، والنحاس لأناس الطبقات، والعلبة العتيقة القذرة لها. بصقت في العلبة. تظاهر الساقي نصف المتضور بأنه سيضربها بمغرفة البامبو، فركضت خارج باحة المدرسة للنجاة بجلدها، وراح الرجل يشتمها بينما كانت تركض. بعد مضي عدة أسابيع بدأت تذهب إلى المدرسة التبشيرية. كان يجب أن تذهب إلى

هناك منذ البداية، لكنّ عائلتها لم تكن تعرف أي شيء عن أي شيء. لم يكونوا على دراية بدين أناس الطبقات أو المسلمين أو المسيحيين. لم يكونوا يعرفون ماذا يجري في البلد أو العالم. كانوا قد عاشوا في الجهل، منقطعين عن العالم لقرون.

كان دم ويلي يغلي كلما سمع القصة حول علبة "وود" و"دن" للسمن. أحبّ والدته، وعندما كان صغيراً جداً تعود أن يستخدم النقود التي تأتيه مصادفةً لشراء أشياء جميلة لها وللمنزل: مرآة ذات إطار من البامبو، قاعدة حائطية من البامبو من أجل مزهرية، قطعة جميلة من النسيج المزخرف بالطوابع، آنية نحاسية، صندوق من الورق الملون من كشمير، وأزهار من ورق الكريب الملون. عندما كبر صار يعرف، بالتدريج، أكثر عن المدرسة التبشيرية وموقعها في الولاية. وصار يفهم أكثر التلاميذ في المدرسة. وفهم أن الذهاب إلى مدرسة تبشيرية يعني أن تحمل وشماً، وبدأ ينظر إلى والدته أكثر فأكثر عن بعد. وكلما صار أكثر نجاحاً في المدرسة- وكان أفضل من أقرانه- اتسعت تلك المسافة.

بدأ يتشوق للذهاب إلى كندا، حيث نشأ معلموه. بل بدأ يفكر بأن يعتنق ديانتهم ويصبح مثلهم ويرتحل في أرجاء العالم كمعلّم. وذات يوم، عندما طلب منه أن يكتب موضوع "إنشاء" بالإنكليزية عن عطلاته، تظاهر بأنه كندي من أبوين يناديهما "موم" و "وبوب". موم وبوب قررا ذات يوم أن يأخذا الأولاد إلى الشاطئ. صعدا إلى الطابق العلوي، في الصباح الباكر حيث غرفة الأطفال وأيقظوهم، ولبس الأولاد الثياب الجديدة للعطلة، وركبوا سيارة العائلة باتجاه الشاطئ. كان الشاطئ يعجّ بالمصطافين، وتناولت العائلة حلويات العطلة التي

أحضرتها معها، وفي آخر النهار، ملسوعين بالشمس وراضين، عادوا أدراجهم بسيارتهم إلى المنزل. كل تفاصيل هذه الحياة الأجنبية- الطابق العلوي، غرفة الأطفال- كانت مستوحاة من كتب الرسوم الهزلية الأمريكية التي كانت توزّع في المدرسة التبشيرية. هذه التفاصيل كانت مخلوطة بتفاصيل محلية، مثل ثياب العطلة، وحلويات العطلة التي كان موم وبوب في مرحلة ما يوزّعانها برضا عظيم على شحاذين نصف عراة. كوفئ هذا التعبير بعلامات تامة، عشر من عشر، وطلب من ويلي أن يقرأه بصوت عال في الصف. الأولاد الآخرون، حيث العديد منهم عاش حياة فقيرة جداً، لم يكن لديهم أي فكرة عما سيكتبون، ولم يكن باستطاعتهم حتى أن يخترعوا، لأنهم لا يعرفون أيّ شيء عن العالم. استمعوا بانبهار لقصة ويلي الذي أخذ دفتر التمارين وعرضه على أمه، ففرحت وشعرت بالفخر. قالت لويلي، "اعرضه على والدك. الأدب هو اختصاصه."

لم يأخذ ويلي الدفتر مباشرة إلى والده. تركه على الطاولة في الشرفة المطلة على باحة المعبد الداخلية. كان أبوه يحتسي القهوة هناك في الصباح.

قرأ موضوع الإنشاء. شعر بالخزي. قال في نفسه: "أكاذيب، أكاذيب. من أين أتى بهذه الأكاذيب؟" ثمّ فكّر: "وهل هذا أسوأ من شللي و(W) وبقية هؤلاء؟ كل ذاك كان أكاذيب أيضاً." قرأ الإنشاء مرة ثانية. حزن لاختفائه وفكّر: "ويلي الصغير، ما الذي فعلته لك؟" أنهى احتساء قهوته. سمع أول فوج من المتضرعين ذاك النهار يتجمعون في الباحة الرئيسة لمعبده الصغير. فكّر: "ولكن لم أفعل له شيئاً. إنه

ابن أمه. كل هذا الكلام عن موم وبوب هو من صنيع أمه. ليس بيدها حيلة . هذه هي خلفيتها. تعلّق كل هذه الطموحات على المدرسة التبشيرية. ربما بعد عدة مئات من الولادات الأخرى يمكنها أن تتطور. لكنها لا تستطيع أن تنتظر مثل بقية البشر المحترمين. مثل كثيرين من المنبوذين هذه الأيام، تريد أن تستعجلَ السلاح."

لم يذكر شيئاً لويلي عن الإنشاء البتة، وويلي لم يسأل أبداً. احتقر والده أكثر من أي وقت مضى.

ذات صباح، وبعد مرور أسبوع أو نحوه، وبينما كان أبوه مع زبائن في الجانب الذي يحاذي المعبد من البيت، ترك ويلي تشاندران مرة أخرى دفتر تمارين الإنشاء على الطاولة في شرفة الباحة الداخلية. رأى والده الدفتر وقت الغداء، فأصابه القلق. كان شعوره الأولي هو أن تعبيراً مزعجاً آخر في الدفتر، يحكي على الأرجح عن موم وبوب. شعر بأن الصبي، بوصفه ابناً حقيقياً لأمه، كان يتحداه بكل مكر المنبوذ، ولم يكن متأكداً ممَّ عليه أن يفعل. سأل نفسه: "ماذا يمكن للمهاتما أن يفعل؟" قرر بأن المهاتما كان سيقابل هذا النوع من الاعتداء الماكر بطريقته الخاصة من العصيان المدني: لن يفعل شيئاً. لم يلمس دفتر التمارين. تركه حيث كان، ورآه ويلي عندما عاد من المدرسة خلال ساعة الغداء.

قال ويلي في نفسه بالإنكليزية: "ليس فقط دجّالاً، بل جباناً." لم يكن للجملة إيقاعٌ صحيحٌ، كان ثمة قطعٌ في المنطق في مكان ما. وأعاد صياغة الجملة. "إنه ليس فقط دجّالاً، لكن هو أيضاً جبان." أقلقته عملية القلب في بداية الجملة، وبدت كلمة "لكن" غريبة وكلمة "أيضاً". بعد ذلك،

وفي طريق العودة إلى المدرسة التبشيرية الكندية استحوذت عليه الجلبة النحوية لصف الإنشاء. جرّب نسخاً مختلفة للجملة في رأسه، ووجد أنه عندما وصل إلى المدرسة نسي والده والمناسبة.

غير أنّ والد ويلي تشاندران لم ينس ويلي. صمت الصبي واعتداده بنفسه أثناء الغداء أثار حفيظته. كان يعرف أن ثمة شيئاً غداراً في دفتر التمارين، وفي وقت الظهيرة أصبح بسرعة متأكداً. ترك زبوناً في منتصف استشارة غبية واتجه إلى الشرفة في الجانب الآخر. فتح دفتر التمارين ورأى موضوع الإنشاء الأسبوعي. كان معنوناً "الملك كوفيتا والخادمة المتسولة".

في زمن سحيق عندما كانت هناك مجاعة وشحّ عام في البلاد، تحدّت خادمة متسولة كل أنواع المخاطر على الطريق، وذهبت إلى بلاط الملك كوفيتا تطلب الصدقات. حصلت على قبول بالدخول إلى الملك. كانت مغطاة الرأس، تنظر إلى الأسفل، وتتحدث بصورة جميلة وتواضع جمّ، حتى إن الملك رجاها أن تكشف عن رأسها. كانت ذات جمال لا يضاهى. وقع الملك في غرامها وأقسم قسماً ملكياً أمام بلاطه إن الخادمة المتسولة ستكون ملكته. وكان أن وفى بوعده. غير أنّ سعادة ملكته لم تدم. لم يعاملها أحد كملكة، الجميع كان يعرف أنها متسولة. فقدت كل اتصال مع عائلتها. أحياناً كانوا يظهرون خارج بوابات القصر وينادون عليها، لكن لم يكن يسمح لها بالذهاب إليهم. وبدأت تُهان علانيةً من عائلة الملك ومن الناس في البلاط. لم يبد أن الملك لاحظ شيئاً، وملكته كانت خجولاً جداً، فلم تخبره. ومع مرور الوقت رُزق كوفيتا وملكته ابناً. كثرت الإهانات بعد ذلك في البلاط، واللعنات من

أقارب الملكة المتسولين. عانى الابن وهو يكبر بسبب أمه. وقطع عهداً على نفسه بأن ينتقم منهم جميعاً، وعندما أصبح رجلاً وفى بوعده: قتل كوفيتا. فرح الجميع، الناس في البلاط، والشحاذون على بوابات القصر.

هنا انتهت القصة. وعلى طول هامش دفتر التمارين كان القلم الأحمر لمعلم المدرسة التبشيرية يشير بالموافقة والرضا.

فكر والد ويلي تشاندران، "لقد أنجبنا شيطاناً. إنه حقاً يكره أمه وناس أمه، وهي لا تعرف. ولكن عمّ أمه كان مثير الفتن لدى المنبوذين. يجب ألاّ أنسى هذا. سوف يسمّم الصبي ما تبقى من حياتي. يجب أن أنقله بعيداً من هنا."

ذات يوم، وبعد مرور وقت ليس طويلاً، قال بطريقة لطيفة قدر الإمكان (لم يكن سهلاً عليه التحدث بلطف إلى هذا الصبي): "يجب أن نفكر في دراستك العليا، يا ويلي. يجب ألاّ تكون مثلي."

قال ويلي، "لماذا تقول هذا؟ إنك سعيد تماماً بما تفعل."

لم يلتفت أبوه لهذا الاستفزاز. قال: "أنا استجبت لنداء المهاتما. أحرقت كتبي الإنكليزية في الباحة الأمامية للجامعة."

قالت والدة ويلي تشاندران، "قليلون لاحظوا ذلك."

"يمكنك أن تقولي ما تشائين: أحرقت كتبي الإنكليزية ولم أحصل على شهادة. كل ما أقوله الآن، إذا سُمح لي، هو أن ويلي يجب أن يحصل على شهادة."

قال ويلي: "أريد أن أذهب إلى كندا."

قال والده: "فيما يتعلق بي كانت حياة من التضحية. لم أحصل

على أيٍّ ثروة. أستطيع أن أرسلك إلى بينارس أو بومباي أو كالكوتا أو حتى دلهي. لكن لا أستطيع أن أرسلك إلى كندا."

"الآباء سيرسلونني."

"أمك وضعت هذه الفكرة المتدنية في رأسك. لماذا يريد الآباء أن يرسلوك إلى كندا؟"

"سوف يجعلون مني مبشّراً."

"سوف يحيلونك إلى قرد صغير، ويرسلونك إلى هنا لتعمل مع عائلة أمك والمنبوذين الآخرين. أنت أحمق."

قال ويلي تشاندران: "أتظنّ ذلك؟" ووضع حداً للنقاش.

بعد بضعة أيام كان دفتر التمارين على طاولة الشرفة. والد ويلي تشاندران لم يتردّد. راح يقرأ الصفحات المذيّلة بالقلم الأحمر حتى نهاية الإنشاء.

كانت قصة. كانت أطول مادة في الدفتر وبدت كأنها كُتبت بسرعة فائقة. خطّ اليد الصغير والسريع والمضغوط بقوة جعّد كل صفحة، والمعلم ذو القلم الأحمر أحبّ كل ما في الإنشاء، راسماً أحياناً خطاً عمودياً أحمر على الهامش وتاركاً إشارة واحدة على مقطع أو صفحة بكاملها.

تجري أحداث القصة، مثل غيرها من قصص ويلي أو خرافاته، في مكان غير محدد، وفي زمن غير مؤرّخ. بدأت القصة في زمن في المجاعة. حتى البراهميون تأثّروا. براهميّ متضوّر، كلّه جلد وعظم، يقرر أن يترك جماعته ويذهب إلى مكان آخر في البرية الصخرية الحارة، ليموت وحيداً، بنبل. عندما توشك قوته على النفاد، يعثر على كهف وطيء مظلم، ويقرر أن يموت هناك. يطهّر نفسه قدر استطاعته ويتهيأ

للنوم للمرة الأخيرة. يريح رأسه السائب على صخرة. شيء ما حول الصخرة يزعج رأس البراهمي ورقبته. يمدّ يده إلى الخلف ليلمس الصخرة، مرة، مرتين، ويكتشف عندئذ أنّ الصخرة ليست صخرة. إنها كيس وسخ متحجّر مملوء بالأضلاع، وعندما يقف البراهميّ يكتشف أن الصخرة هي حقاً كيس عتيق جداً يحوي كنزاً.

وحالما يستكمل اكتشافه تناديه روحٌ ما: "كان هذا الكنز ينتظرك منذ قرون. إنه لك لتحفظه، وسيكون لك إلى الأبد، بشرط أن تفعل شيئاً واحداً من أجلي. هل تقبل؟" يقول البراهميّ المرتعش: "وماذا عليّ أن أفعل؟" تقول الروح: "كل عام يجب أن تضحّي بطفل صغير غضّ من أجلي. مادمت تفعل ذلك سيظلّ الكنز بحوزتك. إذا فشلت، فسيختفي الكنز ويعود إلى هنا. عبر قرون من الزمن كان ثمة العديد من أمثالك، وجميعهم فشلوا." لم يعرف البراهميّ ماذا يقول. قالت الروح بسخط: "أيها الرجل المحتضر هل تقبل؟" يقول البراهميّ: "أين سأجد الأطفال؟" تقول الروح: "ليس من شأني أن أقدم لك مساعدة. إذا كنت مصمماً بما فيه الكفاية فستجد طريقةً ما. هل تقبل؟" والبراهمي يقول: "أقبل." تقول الروح: "نم، أيها الرجل الغني. عندما تستيقظ ستكون في معبدك القديم وسيكون العالم تحت قدميك. ولكن لا تنسَ أبداً وعدكَ."

يستيقظ البراهمي في بيته القديم ويجد نفسه قوياً وشبعاً. ويستيقظ أيضاً على معرفة أنه غني غنىً يتجاوز أحلام الجشعين. وحالاً تقريباً، وقبل أن يتذوق حتى نكهة غبطته، يبدأ خاطرُ وعده بتعذيبه. التعذيب لا يفارقه. إنه يفسد عليه كلّ ساعاته، بل وكل دقائق ساعاته.

ذات يوم يرى مجموعة من الناس القبليين يمرون أمام مبنى المعبد.

كانوا سوداً وصغار الحجم، نحيلين من الجوع، وتقريباً عراة. لقد طرد الجوع هؤلاء الناس من مسكنهم، وجعلهم لا يبالون بالأعراف القديمة. يجب ألاّ يمرّوا قريبين هكذا من المعبد لأنّ ظلّ هؤلاء البشر، وهيئتهم بالذات، بل حتى إيقاعات أصواتهم، تسبب التلوّث. يهبط على البراهميّ إلهامٌ. يكتشف أين يكون المعسكر القبلي. يذهب إلى هناك تحت جنح الظلام متلفّعاً بشاله. يسعى إلى لقاء رئيس القبيلة، وباسم الصدقة والدين يعرض عليه شراء أحد أطفال القبيلة نصف الموتى. يعقد صفقته مع زعيم القبيلة: سيُخدّر الطفل، ويؤخذ إلى أحد الكهوف الوطيئة في البرية الصخرية، ويُترَك هناك. إذا تمّ القيام بهذا الفعل بإخلاص وعدالة، فسيجد زعيمُ القبيلة بعد أسبوع، جزءاً من الكنز القديم في الكهف، وذلك ما يكفي لإخراج جميع أتباعه من محنتهم.

تتمّ الأضحية، ويوضع جزء من الكنز القديم في الكهف، ومن سنة إلى أخرى يستمرّ هذا الطقس للبراهميّ ولرجال القبيلة.

في أحد الأعوام يأتي زعيم القبيلة- حيث لباسه أفضل الآن، ويبدو بصحة جيدة، وشعر لامع مغطّى بالزيت- إلى معبد البراهمي. البراهمي شخص جلف. يقول: "من أنت؟" يقول زعيم القبيلة: "أنت تعرفني وأنا أعرفك. أعرف أيضاً ما تخطط له. لقد عرفت كل شيء منذ البداية. لقد تعرّفتك منذ الليلة الأولى وفهمت كل شيء. أريد نصف كنزك." يقول البراهميّ: "أنت لا تعرف شيئاً. أعرف أنه منذ خمسة عشر عاماً وأنت وقبيلتك تمارسون التضحية بالأطفال في كهف معين. إنه جزء من طرائقكم القبلية. الآن وقد ازدهرتم، وأصبحتم جميعاً أبناء مدينة، فإنكم تشعرون بالعار والرعب. إذاً، أنت أتيت واعترفت لي وتطلب مني تفهماً

معيناً. إني أمنحك ذلك، لأنني أفهم طرائقكم القبلية، لكنني لا أستطيع أن أقول إني لست مستاءً، وإذا شئت فأنا أستطيع أن أرشد أي شخص إلى الكهف المملوء بعظام العديد من الأطفال. الآن اخرج من هنا. شعرك مغطّى بالزيت، لكنّ ظلك نفسه يلوّث هذا المكان المقدس." ينكمش الزعيم خوفاً ويبتعد إلى الخلف. يقول: "سامحني، سامحني." يقول البراهمي: "ولا تنسَ وعدَك."

يحين وقت الأضحية السنوية للبراهمي. يشق طريقه ليلاً إلى كهف العظام. يقلب ويلمّع كل أنواع القصص في حال وشى به زعيم القبيلة ورأى الناس ينتظرونه. لا أحد ينتظر. في الكهف المظلم كان ثمة طفلان مخدران. برغم كل شيء تصرف زعيم القبيلة جيداً. وبيدٍ مدرّبة يضحّي البراهمي بالطفلين إلى روح الكهف. وعندما باشر بإحراق الجثث الصغيرة رأى بوساطة ضوء مشعله الخشبي أنّ هذين الطفلين هما طفلاه."

هنا انتهت القصة. كان والد ويلي يقرأ دون أن يتجاوز سطراً واحداً. وعندما عاد آليّاً إلى البداية رأى- ما كان قد نسيه أثناء القراءة- أن القصة عُنونت "حياةٌ من التضحية."

فكّر: "عقله مريض. يكرهني ويكره أمه، والآن يعمل ضد نفسه. هذا ما فعل به التبشيريون، مع كل هذا اللغط عن موم وبوب وديك تريسي ومجتمع العدالة في مجلة الرسوم الهزلية الأمريكية، وأفلام يسوع على الصليب في أسبوع الآلام، وبوغارت وكوغني وجورج رافت فيما تبقى من الوقت. لا أستطيع أن أتعامل بعقلانية مع هذا النوع من الكراهية. سوف أتعامل معها بطريقة المهاتما. سوف أتجاهلها. سوف أحافظ على قسم الصمت فيما يتعلق به."

بعد مرور أسبوعين أو ثلاثة أتت والدة الصبي إليه وقالت: "أتمنى لو تكسر قسم الصمت ذاك. إنه يجعل ويلي غير سعيد تماماً."

"الولد ضائع. لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجله."

قالت: "عليك أن تساعده. لا أحد آخر يستطيع. منذ يومين رأيته يجلس في الظلام. عندما أشعلت الضوء رأيت أنه كان يبكي. سألته لماذا. قال: (أشعرُ أن كلّ شيء في العالم كئيب. وهذا كل ما نملكه. لا أعرف ماذا أفعل) لم أعرف ماذا أقول له. إنه شيء يأتيه من جانبك. حاولت أن أواسيه. قلت له إن كلّ شيء سيكون على ما يرام، وإنه سيذهب إلى كندا. لا يريد أن يكون مبشراً. لا بل هو لا يريد العودة إلى المدرسة."

"لابدّ أن شيئاً ما حدث في المدرسة."

"سألته. قال إنه ذهب إلى مكتب المدير لغرض ما. كان ثمة مجلة على الطاولة. كانت مجلة تبشيرية. وكان ثمة صورة ملونة على الغلاف. كاهن بنظارتين وساعة يد كان يقف وإحدى قدميه على تمثال بوذا. كان قد قطّعه لتوه بفأس، وكان يبتسم ويتكئ على الفأس مثل الحطاب. تعوّدت أن أرى مجلات وصوراً من هذا النوع عندما كنت في المدرسة. لم تقلقني البتة. ولكن عندما رأى ويلي الصور شعر بالخجل من نفسه. شعر بأن الآباء كانوا يخدعونه طوال هذه السنوات. وخجل أنه أراد يوماً أن يكون مبشّراً . كل ما أراده هو أن يذهب إلى كندا، ويبتعد من هنا. إلى أن رأى تلك الصورة، لم يكن يعرف ما هو العمل التبشيري."

"إذا كان لا يريد الذهاب إلى المدرسة التبشيرية، فليس عليه أن يذهب."

"الولد صورة عن أبيه."

"المدرسة التبشيرية كانت فكرتك."

هكذا توقف ويلي تشاندران عن الذهاب إلى المدرسة التبشيرية. بدأ يعيش حياة العاطل في البيت.

رآه والده في أحد الأيام نائماً ووجهه نحو الأسفل، وقربه نسخة مغلقة من الطبعة المدرسية لرواية (كاهن ويكفيلد). كان ثمة تلك اللاسعادة، وتلك الطاقة حتى إنه انغمر بالشفقة. فكّر: "اعتدتُ أن أعتقد بأنكَ أنا، وكنت قلقاً بشأن ما فعلته لك. ولكن الآن أعرف أنكَ لستَ أنا. ما في رأسي ليس في رأسك. أنت شخص آخر، شخص لا أعرفه، وأنا قلق عليكَ، لأنك متأهّب لرحلة لا أعرف عنها شيئاً."

بعد عدة أيام أخرى ذهب في طلب ويلي وقال: "لا أملك أيَّ ثروة كما تعرف. ولكن إذا أردت فسوف أكتب لبعض الناس الذين أعرفهم في إنكلترا، وسوف نرى ماذا يمكن أن يفعلوا من أجلك."

فرح ويلي لكنه لم يُظهر ذلك.

الكاتب المشهور، الذي سمّي ويلي على اسمه، عجوز جداً الآن. بعد بضعة أسابيع وصل منه رد من جنوب فرنسا. الرسالة، مكتوبة على قصاصة صغيرة من الورق، كانت مطبوعة طباعة رسمية، بسطور ضيقة والكثير من الهوامش البيضاء:

عزيزي تشاندران، كان أمراً حلواً استلام رسالتك. لدي ذكريات حلوة عن البلد، وجميل أن أسمع أخباراً من أصدقاء هنود. المخلص لك دوماً. ..

لم يكن في الرسالة شيء عن ويلي. بدا الأمر كأن الكاتب العجوز لم يفهم ما طُلب منه. كان يمكن أن يوجد مستشارون. وكان يمكن أن

يقفوا في طريقه. ولكن والد ويلي تشاندران شعر بالخيبة والخزي. وصمم على ألاَّ يخبر ويلي، غير أنّ ويلي كان يملك فكرة جيدة عما حدث. كان قد رأى الرسالة تصل مع الطابع الفرنسي.

لم يكن هناك رد من مذيع حرب مشهور كان قد أتى إلى الهند ليغطي الاستقلال والتقسيم واغتيال المهاتما، وكان ودوداً بصورة استثنائية. بعض الناس الذين ردّوا كانوا مباشرين. قالوا إنهم لا يستطيعون فعل شيء. البعض أرسل ردوداً مطولة وودية، حتى إنهم، مثل الكاتب المشهور، تجاهلوا طلب المساعدة.

حاول والد ويلي أن يكون فلسفياً، لكن لم يكن ذلك سهلاً. قال لزوجته، على الرغم من أن القاعدة لديه أن يحتفظ باكتئابه لنفسه: "فعلتُ الكثير من أجلهم عندما أتوا إلى هنا. جعلتهم يتجولون في المعبد على سجيتهم. عرّفتهم بالجميع." قالت زوجته: "فعلوا الكثير من أجلك أيضاً. منحوكَ عملك. لا تستطيع أن تنكر هذا." فكّرَ: "لن أتحدّث أبداً معها في هذه الأمور ثانيةً. كنت مخطئاً في كسر القاعدة. إنها تماماً بلا حياء. إنها منبوذة من الوريد إلى الوريد. تأكل ملحي وتسيء لي."

حار في أمره كيف سينقل الأخبار السيئة إلى ويلي. الآن وبعدما فهم ضعف الصبي لم يعد يقلق بشأن الاحتقار. ولكن- قليلاً لدهشته- لم يشأ أن يضيف إلى معاناة الصبي. لم يستطع أن ينسى صورة الولد الطموح المهزوم ينام منكباً على وجهه، والنص المدرسي العتيق والميت من (كاهن ويكفيلد) قربه، قدماه متصالبتان، قدمان سوداوان مثل قدمي أمه.

لكنه أعفي من إهانة الرفض المطلق. أتت رسالة في مغلف أزرق من

لندن، من مجلس اللوردات، ومن رجل مشهور سبق أن قام بزيارة قصيرة للمعبد حالاً بعد الاستقلال. شهرته ومركزه جعلاه حياً في ذاكرة والد ويلي تشاندران.

خطّ اليد الكبير على ورقة مجلس اللوردات الزرقاء أفصح عن نفوذ واستعراض، وما جاء في الرسالة شابهَ خطّ اليد. لقد أسعد الرجل العظيم أن يستعرض نفوذه أمام والد ويلي، وأن يفوز بالعرفان والتقدير في تلك الزاوية النائية، وأن يحرك عصاً سحرية، ويرفع إصبعاً صغيراً، كما هو الحال، (كل الأصابع الأخرى مشغولة بقضايا أعظم)، ويضع أناساً صغاراً كثيرين قيدَ الحركة. حوت الرسالة قليلاً من الذهب الذي حلم به الرجال الصغار: مكان ومنحة توفرتا لويلي تشاندران في كلية تربية للطلاب الراشدين في لندن.

بتلك الطريقة، عندما بلغ العشرين من عمره، ويلي تشاندران، طالب المدرسة التبشيرية، الذي لم يكمل تعليمه، ودون أي فكرة عما يريد أن يفعله، باستثناء أن يهرب مما يعرفه، بالرغم من أنه يملك فكرة بسيطة عما يقع خارج ما يعرفه، فقط أشياء خيالية من أفلام هوليوود في الثلاثينيات والأربعينيات، ويلي ذهب إلى لندن.

* * *

ذهب على متن سفينة. كل ما يتعلّق بالرحلة أفزعه كثيراً- حجم بلده، الحشود في الميناء، عدد السفن في الميناء، ثقة الناس على متن السفينة- حتى إنه وجد نفسه غير راغب في الكلام، في البداية بسبب القلق الصرف، ولاحقاً عندما اكتشف أن الصمت منحه القوة كسياسة.

وهكذا كان ينظر دون أن يحاول أن يرى، ويسمع دون أن يصغي، مع ذلك لاحقاً- تماماً مثلما يكون ممكناً بعد المرض لشخص ما أن يتذكّر كلّ شيء كان قد شاهده عندئذ نصفَ مشاهدةٍ- سيكتشف أنه احتفظ بكل تفاصيل ذلك العبور المذهل الأول.

كان يعرف أن لندن مدينة عظيمة. فكرته عن المدينة الكبيرة عَنَت موطناً ساحراً من الألق والدهشة، وعندما وصل إلى لندن، وبدأ يتجول في شوارعها شعر بخيبة الأمل. لم يعرف ما كان ينظر إليه. الكتيبات أو المنشورات الصغيرة التي التقطها أو اشتراها من محطات تحت الأرض لم تساعده. كانت منشورات تفترض أن المناظر المحلية التي تشرح عنها مشهورة ومفهومة جيداً، والحقيقة أن ويلي لم يكن يعرف شيئاً عن لندن سوى اسمها.

المكانان اللذان كان يعرف عنهما شيئاً في المدينة هما قصر بكينغهام وزاوية الخطباء. خيّب أمله قصر بكينغهام. قال في نفسه إن قصر المهراجا في ولايته أكبر بكثير، ويبدو قصراً بالفعل، وهذا جعله يشعر في زاوية صغيرة من قلبه بأن ملوك إنكلترا وملكاتها ليسوا سوى مدّعين، وأن البلاد ليست سوى خدعة. وتحولت خيبته إلى شيء يشبه الخجل- من نفسه بسبب سذاجته- عندما ذهب إلى زاوية الخطباء. كان قد سمع عن هذا المكان في صفّ المعلومات العامة في المدرسة التبشيرية، وكتب عنه عن دراية في أكثر من امتحان من امتحانات نهاية الفصل. توقّع أن يرى حشوداً ضخمة راديكالية تصيح، مثل تلك الحشود التي تعود عمّ أمه، مثير الفتن لدى المنبوذين، أن يخاطبها. لم يتوقع أن يرى حفنة عاطلة من الناس تتحلق حول نصف دزينة من

المتحدثين، بينما باصات وسيارات كبيرة تعبر دون اكتراث طوال الوقت. بعض المتحدثين كانوا يملكون أفكاراً دينية شخصية جداً، و ويلي، الذي تذكّر حياته في البيت، ظنّ أن عائلات هؤلاء الرجال يمكن أن تكون سعيدة جداً لخروجهم من البيت في أوقات الظهر.

أشاح بوجهه عن المشهد الذي يسبب الاكتئاب، وبدأ يمشي في أحد فروع شارع بيزوتر رود. مشى دون أن يرى، مسترجعاً بؤس الوطن، وحاضره الضبابي الغائم. فجأة، وبطريقة سحرية، أُخرج من نفسه على الفور. ماشياً باتجاهه، ونصفَ متكئ على عكاز يحمله، رأى رجلاً مشهوراً شهرةً تفوق الخيال، لكنه الآن وحيد وتلقائي وجليل بين متسكّعي ما بعد الظهيرة. نظر ويلي بإمعان. كل أنواع المواقف القديمة استيقظت في داخله- ذات المواقف لبعض الناس الذين أتوا إلى المعبد للتحديق فقط إلى والده- وشعر بالنبل تجاه منظر الرجل العظيم وحضوره.

كان الرجل نحيلاً، طويل القامة، أسود جداً، ومدهشاً، يرتدي بدلةً رسمية فحمية بصدرية مزدوجة، وهذا ما أظهر نحولَه. شعره المجعد سُرِّح إلى الوراء، فوق وجه طويل ضيق بأنف مدهش كمنقار النسر. كل ملمحٍ للرجل الذي يقترب منه تطابقَ مع الصور التي يعرفها ويلي. إنه كريشنا مينون، الصديق المقرّب للسيد نهرو، والناطق الرسمي باسم الهند في المحافل الدولية. كان ينظر إلى الأسفل وهو يمشي شارداً. نظر إلى الأعلى، رأى ويلي، ومن وراء وجه غائم رشقه بابتسامة شيطانية وُدِّيَّة. لم يتوقع ويلي أبداً أن يتعرفه الرجل العظيم. بعد ذلك، وقبل أن يتدبّر أمره، كان هو وكريشنا مينون قد عبرا، واللحظة المذهلة تلاشت.

بعد يوم أو نحوه، في الغرفة الصغيرة العامة للكلية، رأى في

صحيفة يومية أن كريشنا مينون مرّ من لندن في طريقه إلى نيويورك والأمم المتحدة. كان قد مكث في فندق كلاريدج. نظر ويلي إلى خرائط ومؤشرات، واستنتج أن كريشنا مينون كان بكل بساطة يمشي في تلك الظهيرة من الفندق إلى الحديقة العامة، لكي يفكّر بالخطاب الذي كان سيلقيه قريباً. وكان الخطاب يدور حول اجتياح بريطانيا وفرنسا ودول أخرى لمصر.

لم يكن ويلي يعرف أي شيء عن الاجتياح. كان سبب الاجتياح بالطبع تأميم قناة السويس، ولكن ويلي لم يكن على دراية بهذا أيضاً. كان يعرف، من خلال دروس الجغرافيا المدرسية، شيئاً عن قناة السويس، وكان أحد أفلام هوليوود التي عرضوها في المدرسة التبشيرية بعنوان (السويس). ولكن في ذهن ويلي لا الجغرافيا المدرسية، ولا فيلم (السويس) كانا على نحو تامّ حقيقيين. لم يكونا يمتان بصلة إلى الهنا والآن، وكلاهما لم يؤثر فيه أو في عائلته أو بلدته، ولم يكن يملك أي فكرة عن تاريخ القنال أو مصر. كان يعرف اسم الكولونيل ناصر، القائد المصري، ولكن فقط بذات القدر الذي يعرفه عن كريشنا مينون: كان يعرف عظَمةَ الرجل دون أن يعرف الأفعال. في وطنه كان يقرأ الصحف، ولكن كان يقرؤها بطريقته الخاصة. تعوّد أن يهمل القصص الرئيسة، تلك التي تدور عن حروب نائية أو حملات انتخابية في الولايات المتحدة، التي لم تكن تعني شيئاً بالنسبة له، لكنها كانت تستمرّ أسبوعاً إثر أسبوع، بطيئةً ومتكررةً، وتنتهي في أغلب الأحيان بطريقة عرجاء، مثلها مثل كتاب أو فيلم رديئين، لا تقدم شيئاً، أو تقدم النزر اليسير، بالمقارنة مع كثير من الجهد والانتباه المبذول. إذاً، وكما على

متن السفينة حين كان ويلي يراقب دون أن يرى، ويسمع دون أن يصغي، في الوطن كان ويلي طوال عدة سنوات يقرأ الصحف دون أن يلتفت إلى الأخبار. كان يعرف الأسماء الكبيرة، وفي مناسبات قليلة كان ينظر إلى العنوان الرئيس، ولكن هذا كان كل شيء.

الآن، وبعدما رأى كريشنا مينون في الحديقة، دهش للقليل الذي كان يعرفه عن العالم من حوله. قال: "هذه العادة من عدم الرؤية أخذتها من أبي."

بدأ يقرأ عن الأزمة المصرية في الصحف، لكنه لم يفهم ما كان يقرؤه. كان يعرف القليل عن الخلفية، وقصص الصحافة كانت مثل المسلسلات، ومن الضروري أن تعرف ما جرى من قبل. وهكذا بدأ يقرأ عن مصر في مكتبة الكلية، وكان يتخبّط. كان كمن يتحرك بسرعة فائقة، ولا يملك نقاط علام ثابتة تعطيه فكرة عن الموقع أو السرعة. بدا جهله يتعاظم مع كل شيء يقرؤه. لجأ أخيراً إلى تاريخ رخيص للعالم نُشر أثناء الحرب. وهذا لم يكد يفهمه. كان مثل تلك المناشير عن لندن في المحطات تحت الأرض: يفترض المنشور أن القارئ يعرف لتوه الأحداث الشهيرة. ظنّ ويلي أنه يسبح في الجهل، وأنه عاش دون معرفة بالزمن. تذكّر أحد الأشياء التي تعوّد عمّ أمه أن يقولها: إنّ المنبوذين تمّ إقصاؤهم طويلاً عن المجتمع، لدرجة أنهم لا يعرفون شيئاً عن الهند، ولا عن الديانات الأخرى، بل لا يعرفون شيئاً عن ديانة أهل الطبقات الذين كانوا -أي المنبوذون- عبيداً لهم. وراح يفكّر: "هذا الخواء هو أحد تلك الأشياء التي أخذتها من جانب والدتي."

كان والده قد أعطاه قائمةً بأسماء الناس الذين يجب أن يتصل بهم.

لم يكن ويلي ينوي أن يفعل ذلك. قلة من الأسماء كانت تعني له شيئاً، وتمنى، في لندن، أن يستقلّ كلياً عن والده، ويشق طريقه بنفسه. ذلك لم يمنعه من التبجّح بهذه الأسماء في الكلية. كان يُسقِط الأسماء بطريقة اختيارية بريئة، متحسساً ثقل كل اسم على حده من الطريقة التي يستجيب فيها الناس له. الآن، ومن شعوره الجديد بالجهل والخذلان، ورؤيته المتنامية لعالم كبير جداً بالنسبة له، كتب ويلي إلى الكاتب المشهور الذي كان قد سُمّي على اسمه، وإلى صحفي كان قد رأى اسمه مطبوعاً بأحرف كبيرة في إحدى الجرائد.

ردّ الصحفي أولاً: *عزيزي تشاندران، بالطبع أتذكّر والدك، الهنديّ المؤنكلز (babu) المفضّل لي* ... كلمة "babu"، أي الهنديّ المؤنكلز، كانت خطأً. كان يجب أن تكون (sadhu)، أي الزاهد. لكنّ ويلي لم يكترث. بدت الرسالة وديةً. كانت تطلب من ويلي أن يأتي إلى مكتب في الجريدة، وبعد أسبوع، أو أكثر، في إحدى الظهيرات المبكرة شق ويلي طريقه باتجاه شارع فليت. كان الجو دافئاً وساطعاً، لكنّ ويلي اعتقدَ، لسببٍ ما، بأنها تمطر دائماً في إنكلترا، وكان يرتدي معطفاً مطرياً. كان المعطف رقيقاً جداً، مصنوعاً من مادة مطاطية تتعرّق من الداخل الناعم جداً حالما يرتديه المرء، وفي الوقت الذي وصل فيه ويلي إلى المبنى الكبير الأسود للجريدة، كانت أطراف سترته وحوافها وما تحت ياقته جميعها رطبة، وعندما خلع المعطف المطري المتعرّق المرنان، بدا كأنه كان يمشي تحت الرذاذ.

أعطى اسمه لرجل يرتدي بزة رسمية، وبعد حين أتى الصحفي مرتدياً بدلةً سوداء، ولم يكن يبدو أنه شاب، ثم راحا، هو وويلي،

يتبادلان أطراف الحديث واقفين في الردهة. لم ينسجما. لم يكن هناك من شيء يتحدثان عنه. سأل الصحفي عن الهندي المؤنكلز، ولم يصحح له ويلي، وعندما انتهيا من ذلك الموضوع، بدأ كل منهما يتطلع حوله. بدأ الصحفي بالكلام عن الجريدة بطريقة دفاعية، وفهم ويلي أن الجريدة لا تؤيد الاستقلال الهندي، وأنها لم تكن صديقة للهند، وكان الصحفي نفسه كتب مقالات قاسية بعد زيارته للبلاد.

قال الصحفي: "إنه بيفر بروك، في الواقع. لم يكن لديه وقت للهنود. كان مثل تشرشل في بعض المناحي."

قال ويلي: "من هو بيفر بروك؟"

خفض الصحفي صوته: "إنه صاحب مؤسستنا." أسعدَهُ أن ويلي لم يكن يفقه شيئاً مذهلاً كهذا.

لاحظ ويلي وفكّر: "أنا سعيد لأنني لم أفقه. أنا سعيد لأنني لم أنبهر."

أحدهم خرج من الباب الرئيس خلف ظهر ويلي. نظر الصحفي إلى جانب واحد ليتابع مسير القادم الجديد.

"ذاك محرّرنا."

رأى ويلي رجلاً متوسط العمر يرتدي بزّةً فاحمةً، أحمر الخدين بعد الغداء، يصعد الدرج على الطرف البعيد من الردهة. قال الصحفي محدقاً إلى محرّره: "اسمه آرثر كريستيانسن. يقولون إنه أعظم محرر في العالم." بعدئذ، وكأنما كان يتحدث إلى نفسه، قال: "يتطلب الكثير للوصول إلى هناك." نظر ويلي مع الصحفي إلى الرجل العظيم وهو يصعد الدرج. وبعدما تخلّى الصحفي عن ذاك المزاج، قال بطريقة مازحة: "آمل أنك لم تأتِ لتطلب عمله."

لم يضحك ويلي. قال: "أنا طالب. أنا هنا في منحة. أنا لا أبحث عن عمل."

"أين أنت؟"

أعطى ويلي اسم كليته.

لم يعرفها الصحفي. فكّر ويلي: "إنه يحاول أن يهينني. كلّيتي كبيرة تماماً وحقيقية تماماً."

قال الصحفي بطريقته الجديدة المازحة: "هل أنت مصاب بالربو؟ أسألُ فقط، لأنّ صاحب مؤسستنا مصاب بالربو، ولديه شعور خاص تجاه المصابين بالربو. إذا كنت تريد عملاً، فسيكون هذا لمصلحتك."

عند هذه النقطة انتهى اللقاء، وشعر ويلي بالخجل من أبيه الذي لابدّ أن الصحفي سخر منه فيما كتبه، وبالخجل من نفسه، لأنه تراجع عن قراره في البقاء بعيداً عن أصدقاء والده.

بعد بضعة أيام جاءت رسالة من الكاتب العظيم الذي سُمي ويلي على اسمه. كانت على صفحة صغيرة من ورق كلاريدج- الفندق نفسه الذي انطلق منه كريشنا مينون في مشيته القصيرة إلى الحديقة ذاك المساء من أجل أن يتملّى، بلا شك، خطابَه في الأمم المتحدة حول قناة السويس. كانت الرسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة، بهوامش واسعة وسطور متباعدة:

عزيزي ويلي تشاندران، كان جميلاً أن أتلقى رسالتك. لدي ذكريات حلوة عن الهند، وجميل دائماً أن أسمعَ من أصدقاء هنود. المخلص لك جداً...

وتوقيع الرجل العجوز المرتجف كان منجزاً بعناية فائقة، كأن الكاتب شعر بأن ذاك هو فحوى رسالته.

فكّر ويلي: "لقد أسأت الحكم على والدي. تعودت أن أظن أن العالم سهل بالنسبة له كبراهمي، وأنه تحول إلى مخادع بسبب كسله. الآن بدأت أفهم كم كان العالم صعباً بالنسبة له."

كان ويلي يعيش في الكلية كأنه في متاهة. التعليم الذي كان يتلقاه، مثل الطعام الذي كان يأكله، بدون مذاق. الاثنان لم يكونا منفصلين في ذهنه. وكما كان يأكل دون متعة، كان، بنوع من العمى، يفعل ما يطلبه منه المحاضرون والأساتذة، يقرأ الكتب والبحوث، ويكتب المقالات. لم يكن قد رسا على برّ، ولا يملك فكرة عما ينتظره. لم تكن لديه أيّ فكرة عن مدى الأشياء، ولا عن الزمن التاريخي أو حتى المسافة. عندما رأى قصر بكينغهام ظنّ أن الملوك والملكات مجرد مدّعين، وبأن البلاد خدعة، واستمرّ يعيش داخل مقولةِ الزائف.

في الكلية كان عليه أن يتعلّم من جديد كلّ شيءٍ كان يعرفه. عليه أن يتعلم كيف يأكل في العلن، وعليه أن يتعلم كيف يحييّ الناسَ، وكيف، إذا حياهم، لا يحييهم ثانيةً في مكان عام بعد عشر أو خمس عشرة دقيقة أخرى. كان عليه أن يتعلم كيف يغلق الأبواب خلفه. ويتعلم كيف يسأل عن الأشياء دون أن يكون متعجرفاً.

كانت الكلية هيئة فيكتورية نصف خيرية، وقد بنيت على طراز اكسفورد وكمبريدج. هذا ما كان الطلاب يسمعونه غالباً. ولأنّ الكلية كانت على طراز اكسفورد وكمبريدج، كانت مملوءةً بقطع مختلفة "تقليدية"، كان الأساتذة والطلاب فخورين بها، لكنهم لا يستطيعون أن يفسّروا لماذا. كانت ثمة قواعد، على سبيل المثال، عن اللباس والسلوك في قاعة العشاء، وكانت هناك عقوبات شرب البيرة الطريفة للمسيئين للسلوك. وكان على الطلاب أن يرتدوا عباءات سوداء في المناسبات

الرسمية. عندما سأل ويلي عن العباءات، قال له أحدُ المحاضرين: إنها أحد الأشياء التي تُستخدم في اكسفورد وكمبريدج، وإن العباءة الأكاديمية تنحدر من التوغا أو الثوب الروماني القديم. ويلي، الذي لم يكن على اطّلاع كاف لينبهر، والذي كان يتبع أساليب المدرسة التبشيرية، استقصى المسألة في كتب مختلفة في مكتبة الكلّية. قرأ أنه على الرغم من وجود التماثيل المتدثرة بالتوغا من العالم القديم، لم يستطع أحد حتى الآن أن يبرهن لماذا كان الرومان القدماء يرتدون ثياب التوغا. ربما كان الرداء الأكاديمي منسوخاً من الحلقات الإسلامية قبل ألفٍ من السنوات، ولعلّ الزيّ الإسلامي نفسه منسوخ عن زي أقدم. إذاً، الرداء جزء من الزّيف.

مع ذلك كان يجري شيءٌ غريب. بالتدريج، وبينما كان يتعلم القواعد الطريفة لكلّيته، حيث الأبنية الكنسية الفكتورية تتظاهر بأنها أقدم مما هي عليه، بدأ ويلي يرى بطريقة جديدة القواعدَ التي خلّفها وراءه في الوطن. بدأ يرى- وكان ذلك مزعجاً في البداية- أن القواعد القديمة كانت نفسها نوعاً من الزيف، والادّعاء الذاتي. ذات يوم، وعلى مشارف نهاية فصله الثاني، رأى بوضوح كبير أن القواعد القديمة لم تعد ملزمةً له.

عمّ أمه، مثير الفتن، كافحَ لسنوات من أجل الحرية للمنبوذين. كان ويلي دائماً يضع نفسه على ذاك الجانب. الآن رأى أن الحرية التي تعذّبَ من أجلها مثيرُ الفتن هي قضية تنتظره. ما من أحد قابله في الكلية أو خارجها، وكان يعرف أعراف موطنه، ولذلك بدأ ويلي يدرك أنه حر في تقديم نفسه بالطريقة التي يرغب. يمكنه، كما هو الحال، أن يكتب ثورته

الخاصة. الاحتمالات كانت مسبّبة للدوار. يستطيع، ضمن إطار العقل، أن يعيد صياغة نفسه وماضيه وأسلافه.

وكما كان في الكلية يتفاخر في البداية، وبطريقة بريئة معزولة، بصداقة "عائلته" للكاتب العجوز المشهور، وللصحفي المشهور من مؤسسة بيفربروك، بدأ الآن يغير أشياء أخرى عن نفسه، ولكن بطرق مريحة وصغيرة. لم تكن لديه فكرة كبيرة مهيمنة، كأن يأخذ نقطة هنا وأخرى هناك. كانت الصحف، على سبيل المثال، مملوءة بالأخبار عن اتحادات العمال، وقد خطر لويلي ذات يوم أن عمّ أمه، مثير الفتن لدى المنبوذين، الذي كان في بعض الأحيان يرتدي شالاً أحمر في الاجتماعات العامة (تقليداً لبطله المنبوذ والشاعر الشهير الجمالي والثوري بهاراتيديراسنا)، خطر لويلي أن عمّ أمه كان نموذجاً للقائد العمالي، ورائداً لحقوق العمال. كان يقفز فوق الحقائق أثناء النقاشات وفي الدروس ولاحظ أن ذلك انطلى على الناس.

خطر له في وقت آخر أن والدته، بوساطة ثقافتها في المدرسة التبشيرية، كانت ربما نصف مسيحية. وبدأ يتحدث عنها بوصفها مسيحيةً كاملةً، ولكن، ومن أجل أن يتخلص من لطخة المدرسة التبشيرية، ومن فكرة المنبوذين الضاحكين، عراة الظهر، (كانت الكلية تدعم بعثة تبشيرية في نياسلاند في جنوب إفريقيا، وكانت ثمة مجلات تبشيرية في القاعة العامة) راح يعتمد بعض الأشياء التي كان قد قرأها، وصار يتحدث عن والدته من حيث كونها تنتمي إلى جماعة مسيحية قديمة في شبه القارة، جماعة قديمة تقريباً قدم المسيحية نفسها. وأبقى على والده كبراهمي. وجعل والد والده "من الحاشية". إذاً، وعبر

اللعب بالكلمات، راح يعيد ابتكار نفسه. أثارته الطريقة وبدأت تمنحه شعوراً بالقوة.

معلموه قالوا: "تبدو كأنك تستقرّ."

* * *

ثقته الجديدة بدأت تجذب الناس إليه. أحد هؤلاء كان بيرسي كاتو. بيرسي جامايكيٌ من أبوين خلاسيين، حنطي اللون أكثر منه أسودَ. ويلي وبيرسي، كلاهما غريبٌ، وكلاهما جاء في منحة، كانا نفورَين من بعضهما في البداية، ولكنهما الآن التقيا بسهولة، وبدأا يتبادلان القصص عن سوابقهما. بيرسي، شارحاً عن أسلافه، قال: "حتى أعتقد بأن لدي جدةً هنديةً." شعر ويلي تحت قوقعته الجديدة بوخزة. فكر في أن تلك المرأة يمكن أن تكون مثل والدته، ولكن في بيئة نائية قصية، حيث العالم بأجمعه خارج سيطرتها. وضع بيرسي يده على شعره الأجعد وقال: "الزنجي في الواقع منكفئ." ويلي لم يفهم ما قصده بيرسي. كان يعرف فقط أن بيرسي اخترع قصةً ليفسر مظهره. كان جاميكياً، لكنه لم يكن بالتحديد من جامايكا. وُلد في باناما وترعرع هناك. قال: "أنا الأسود الوحيد، أو الجامايكي، أو الهندي الغربي الوحيد الذي ستقابله في إنكلترا، ولا يعرف شيئاً عن لعبة الكريكت."

قال ويلي: "كيف وصلت إلى باناما؟"

"ذهب والدي للعمل في قناة باناما."

"مثل قناة السويس؟"

"كان هذا قبل الحرب الأولى."

وبطريقته في المدرسة التبشيرية، بحثَ ويلي عن قناة باناما في مكتبة الكلية. وكانت هناك بكليتها، داخل صور مؤطّرة بالأسود، مبقعة باللّمس، متفرّعة وغير دقيقة، في الموسوعات القديمة والحوليات: الأعمال الهندسية العظيمة بلا ماء، قبل الحرب الأولى، مع عصابات من العمال السود بلا وجوه، ربما كانوا جامايكيين ينتشرون على العُقَد التي لا ماء فيها. أحد هؤلاء الرجال السود يمكن أن يكون والد بيرسي.

سأل بيرسي في القاعة العامة: "ما الذي كان يعمله والدك في قناة باناما؟"

"كان كاتباً. تعرف هؤلاء الناس هناك. لا يستطيعون القراءة أو الكتابة."

فكّر ويلي: "إنه يكذب. هذه قصة حمقاء. أبوه ذهب إلى هناك كعامل. لا بد أنه كان مع واحدة من تلك العصابات، ممسكاً بمجرفته أمامه على الأرض كالآخرين، ناظراً بخضوع إلى المصوّر."

حتى ذلك الحين، لم يكن ويلي يعرف كيف يفهم رجلاً بدا كأنه لا يملك مكاناً مناسباً في العالم، ويمكنه، بطرُقُه الخاصة، أن يكون زنجياً وغير زنجي في آن معاً. عندما يتلبّس بيرسي صيغته الزنجية كان يدّعي صحبةَ ويلي؛ في الصيغة الأخرى كان يريد أن يبقي ويلي بعيداً عنه. الآن، ومع تلك الصورة في رأسه عن والد بيرسي، واقفاً كجندي في وضعية استراحة، ممسكاً بكلتا يديه بمقبض المجرفة تحت شمس باناما الحارقة، شعر ويلي بأنه يعرفه بصورة أفضل قليلاً.

كان ويلي حذراً جداً حيال ما قاله لبيرسي عن نفسه، وأصبح أسهل

عليه الآن أن يكون معه. شعر بأنه يقف درجةً، أو اثنتين، أو عدة درجات، فوق بيرسي، وكان مستعداً لأن يعترف بأن بيرسي رجل مدينة، والشخص الذي يعرف أكثر عن لندن والأساليب الغربية. فرح بيرسي بالمجاملة وأصبح دليل ويلي في المدينة.

كان بيرسي يحب الملابس. تعود دائماً أن يرتدي بزّة وربطة عنق. ياقات قمصانه كانت دائماً نظيفة، مكوية، وقاسية، وحذاؤه دائماً لامعاً، بأمشاط قدم جديدة المظهر دائماً، وأكعاب متينة وجميلة لا تهترئ أبداً. كان بيرسي على دراية بالنسيج وخياطة البزات والحياكة اليدوية، ويستطيع أن يلحظَ هذه الأشياء على الناس وهو يمشي. بدت الثياب الحسنة كأنها تمتلك، تقريباً، خاصية أخلاقية بالنسبة له، وكان يحترم الناس الذين يحترمون الملابس.

لم يكن ويلي يعرف شيئاً عن الملابس. كان لديه خمسة قمصان بيضاء- بما أن مغسلة الكلية كانت تعطّل مرة في الأسبوع- وكان عليه أن يرتدي قميصاً واحداً لمدة يومين أو ثلاثة. لديه ربطة عنق واحدة، ربطة قطنية خمرية اللون من ماركة توتال كلفته ستة شيلينات. كان يشتري كل ثلاثة أشهر واحدة جديدة، ويرمي القديمة إذ تكون ملطّخة ومجعدة بصورة مرعبة حتى عقدتها. وكان لديه سترة واحدة، لونها أخضر خفيف، لم تكن مناسبة مطلقاً، وليس لها هيئة. كان قد دفع ثمنها ثلاثة جنيهات أثناء تنزيلات (فيفتي شلين تيلرز) في شارع ستراند. لم يكن يظن نفسه سيئ الملابس، ومر بعض الوقت قبل أن يدرك أن بيرسي له نظرة خاصة عن الثياب، ويحبّ أن يتحدث عنها. ولطالما تعجّب من ذائقة بيرسي. هذا اللغط حول القماش واللون تعود أن يربطه بالنساء

(والآن في جزء سري من عقله، فكّرَ بالمنبوذين من جانب والدته، وحبهم للألوان القوية). إنه شيء أنثوي وخاطئ وترفيهي عند الرجل. ولكنه الآن فهم لماذا يحب بيرسي الملابس، وأكثر من الملابس الأحذية. ثم وجد أنه كان مخطئاً بخصوص فكرة الأنوثة.

ذات يوم قال بيرسي: "صديقتي قادمة هذا السبت." كان يُسمح للنساء بالمجيء إلى غرف الطلبة في العطل الأسبوعية. "لا أعلم ما إذا كنتَ لاحظتَ، ويلي، ولكن أثناء العطل الأسبوعية فإن الكلية تضجّ بالجنس."

كان ويلي ممتلئاً بالإثارة والغيرة، ولاسيما بسبب الطريقة السهلة والصريحة التي تحدث بها بيرسي. قال: "أودّ أن أقابل صديقتك."

قال بيرسي، "تعال وتناول كأساً يوم السبت."

وويلي استطاع بشق النفس أن ينتظر ليوم السبت.

بعد هنيهة قليلة سأل بيرسي: "ما اسم صديقتك؟"

بيرسي قال بدهشة: "جون."

كان الاسم معطّراً في ذهن ويلي. لاحقاً، وأثناء المحادثة نفسها، سأل بطريقة عفوية قدر استطاعته: "وماذا تعمل جون؟"

"تعمل على طاولة عطورات في ديبنهامس."

طاولة عطورات، ديبنهامس: الكلمات أسكرت ويلي. لاحظ بيرسي ذلك، ولكي يضيف إلى هذه الأبهة اللندنية، قال: "ديبنهامس محل كبير في شارع اكسفورد."

بعد هنيهة سأل ويلي: "أهناك قابلت جون؟ عند طاولة العطورات في ديبنهامس؟"

"قابلتها في النادي."

"نادٍ!"

"مكان للشرب حيث كنت أعمل."

صُدِمَ ويلي لكنه ارتأى أن يخفي ذلك. قال: "بالطبع."

قـال بيـرسي: "عـملت هناك قـبل أن أجيء إلى هنا. المحل يملكه صديق لي. أستطيع أن أصحبك إلى هناك إذا أردت."

ذهبا بوساطة الميـترو الأرضي إلى مـاربل آرتش. هناك قـبل عـدة شـهـور نزل ويلي وراح يبـحث عن زاوية الخطبـاء، وعـاش مـغـامـرة رؤية كريشنا مينون. إنها لندن أخرى مختلفة تماماً عن تلك التي يحملها ويلي في ذهنه عـندمـا، مـشى هو وبيـرسي في شـارع ضـيق تمامـاً شـمـال شارع اكسفورد خلف فندق كبير. كـان النادي، الذي يعلن عن نفسه عبر أصغر الشـارات، غـرفـة مظلمة صغـيـرة، معـزولة، داخل ردهة. رجل أسـود كـان خلف المستطيل الخشبي، وامرأة بشعر غامق وبشرة شاحبة مثقلة بالمكياج تجلس على كرسي. كلاهمـا حيّا بيرسي. تأثّر ويلي، ليس بجمـال المرأة- كـان لديهـا القليـل من ذلك، وبدت كـأنهـا تزداد في العـمـر كلمـا نظر إليهـا- بل بخشونتهـا، وبهرجتهـا، وبكونها هناك وقت الظهـيرة، ولأنهـا حضّرت نفسَـهـا بعناية فـائقـة لتـكون هناك، تحدوها فكرة الرذيلـة القـوية ذاتهـا. طلب بـيـرسي الويسكي لكل منهـمـا، بالرغم من أنهـمـا لـيسـا من أهل الشرب، وجلسـا دون أن يشربا، وراح بيرسي يتحدث.

قال بيرسي: "كنت رجل الواجهة الأمـامية هنا، كوني كنت سلسـاً مع السلسين وفظاً مع الفظين. كـان ذلك كل مـا اسـتطعت الحـصـول عليـه. فكرتُ ذات يوم في أنه يجب أن أطلب جـزءاً من العـمل. لكنّ صـديقي قطع علي الطريق بقـسـوة. ارتأيت أن أغـادر من أجل أن أحـافظ عـلى الصداقة. صديقي رجل خطير. سوف تقابله. سأعرفك به."

قال ويلي: "وجون أتت إلى هنا ذات يوم من محل العطورات في ديبنهامس؟"

"المكان ليس بعيداً من هنا. إنها مشية قصيرة."

حاول ويلي، الذي لم يكن يعرف أي نوع من الفتيات تكون جون، أو أين يقع ديبنهامس، حاول أن يعيد في مخيلته مرات عدّة تلك المشية من ديبنهامس إلى النادي.

رآها يوم السبت في غرفة بيرسي في الكلية. كانت فتاة ضخمة ترتدي تنورة ضيقة تظهر ركبيها. ملأت الغرفة برائحة عطرها. خلف طاولتها، فكّر ويلي: سيكون في متناولها كل أنواع العطور في ديبنهامس، وكانت تسرف في ذلك. لم يسبق لويلي أن عرف عطراً مثل هذا، تلك الرائحة المشوبة بالعرق والقذارة وبحلاوة عميقة نافذة ومتنوعة، آتية من مصدر غير بسيط.

كانوا يجلسون معاً على كنبة الكلية الصغيرة، وسمح لنفسه بالالتصاق بها أكثر فأكثر، بينما كان يأخذ عطرها، حاجبيها المنتوفين، ساقيها المسمطتين، ولكن الخشنتين قليلاً، اللتين كشفتهما تحتها.

لاحظ بيرسي ذلك، لكنه لم يقل شيئاً. فهم ويلي ذلك كتصرّف من صديق. وجون نفسها كانت لطيفة ومطواعاً، بالرغم من أن بيرسي كان ينظر. كان ويلي قد قرأ ذلك اللطف وتلك النعومة في وجهها. وعندما حان الوقت لكي يترك جون وبيرسي يفعلان ما يريدان أن يفعلاه، انتابته إثارة مفاجئة. وفكّر في أنه يجب أن يبحث عن عاهرة. لم يكن يعرف شيئا عن العاهرات، لكنه كان يعرف سمعة بعض الشوارع القريبة من بيكادلي سيركوس. غير أنه، في النهاية، لم يمتلك الشجاعة.

يوم الاثنين ذهب إلى ديبنهامس. الفتيات خلف طاولة العطورات شعرن بالخوف منه، كما شعَرَ هو بالخوف منهن، كونهن متبرجات، غير حقيقيات، برموش غريبة، ويظهرن حليقات ومنتوفات مثل فراريج المحلات. لكنه بالطبع وجد جون. في هذا الجو من الزجاج واللمعان والضوء الاصطناعي- لندن غير عادية، مثل تلك التي بحث عنها في الشوارع إبان وصوله- كانت الفتاة طويلة وناعمة ومتوثّبة ومغرية تماماً. لم يستطع أن يتحمل التفكير فيما كان قد أقلقه يوم السبت. تحت حاجبيها السوداوين المستقيمين وجفونها اللؤلؤية، امتدت أهدابها الطويلة نحو الأعلى. حيّته دون دهشة. شعر بالراحة، وقبل أن ينطق ببضع كلمات رأى أنها فهمت حاجته، وأنها ستكون لطيفة معه. حتى هنا، لم يكن يعلم كيف يلحّ على القضية، وأي كلام يستخدم. كل ما استطاع قوله كان: "هل تحبين رؤيتي يا جون؟"

قالت ببساطة شديدة: "بالطبع، يا ويلي."

"هل نستطيع أن نلتقي اليوم؟ عندما تنتهين من عملك."

"أين سنلتقي؟"

"في النادي."

"مكان بيرسي القديم؟ يجب أن تكون عضواً، هل تعرف ذلك؟"

عند الظهيرة ذهب إلى النادي ليرى ما إذا كان بإمكانه الانضمام. لم تكن هناك مشكلة. مرة أخرى، وبصورة محيّرة، لم يكن هناك من أحد سوى المرأة البيضاء جداً على كرسيها ورجل البار الأسود. رجل البار (الذي كان ربما في تلك الفترات الهادئة يعمل العمل الذي كان بيرسي يقوم به في الأيام الخوالي، كونه سلساً مع السلسين وفظاً مع الفظّين)

جعل ويلي يملأ استمارة. بعد ذلك دفع ويلي خمسة جنيهات (كان يعيش على سبعة جنيهات في الأسبوع)، ورجل البار- صانعاً دوائر صغيرة بقلمه قبل أن يبدأ بالكتابة، مثل ربّاع يجري حيلاً على وزن ثقيل سيرفعه عن الأرض قبل أن يرفعه حقاً- أمضى قليلاً من الوقت ليكتب اسم ويلي على بطاقة عضويةٍ صغيرة.

راقب الشارع لعدة دقائق قبل الوقت المحدد، غير راغب في أن يكون في النادي أولاً، ومن ثمّ يُصاب ربما بالخيبة. وبينما كان يراقب، راح يلعب بصورٍ لجون في نهاية يوم عملها وهي تحضّر نفسها في مكان ما وتسير في طريقها إلى النادي. حيّاها في المدخل عندما أتت، واتجها معاً إلى الداخل صوب البار المظلم. رجل البار يعرفها، والمرأة على الكرسي تعرفها، وكان ويلي سعيداً لكونه بصحبة شخص معروف. اشترى مشروباً غالياً، خمسة عشر شلناً لكأسين، وطوال الوقت داخل الغرفة المظلمة كان يشم عطر جون ويلتصق بها، غير منتبه لما كان يقوله لها.

قالت: "لا نستطيع أن نذهب إلى الكلية. لن يحب بيرسي ذلك، ناهيك عن أنني لا أستطيع الذهاب إلى هناك إلاّ خلال عطلة نهاية الأسبوع." وبعد هنيهة أخرى قالت: "حسن. سوف نذهب إلى مكان آخر. علينا أن نأخذ تاكسي."

رمقها السائق بنظرة خاصة عندما أعطته العنوان. أخذتهم التاكسي بعيداً عن المنطقة المسحورة في ماربل آرتش وبيزوتر. ومن ثم انعطفت شمالاً، وسرعان ما وصلوا إلى شوارع بائسة: بيوت كبيرة مهملة من دون درابزين أو سياج، ومن دون حاويات قمامة خارج النوافذ الأمامية. توقفوا خارج أحد هذه البيوت. ومع البقشيش كلّفت الرحلة خمسة شلنات.

في أعلى إحدى الشـقق ذوات الأدراج الخـاليـة من الدرابزين، باب ضخم مملوء بالكدمات، يشير إلى عدة أمكنة، ويقود إلى حجرة واسعة مظلمـة تفـوح منهـا رائحـة القـذارة، حـيث أقـواس الغـاز لا تزال على الجـدران. كـان ورق الجـدران داكناً تقـريبـاً في الأعلى، والمشـمّع على الأرض فاقد اللون، بالرغم من وجود شذرات من الشكل الأصلي كانت لا تزال على الحـواف. الدرج في نهـاية القاعـة كـان عـريضـاً- طرازه قديم- غير أن أعمدته الخشبية كانت خشنة بسبب السخام. نافذة الهبوط كانت متشققة وغير مغسولة، والأرض في الخلف مملوءةً بالقاذورات.

قالت جون: "إنه ليس ريتز، غير أن القاطنين ودودون."

لم يكن ويلي مـتـأكـداً. مـعظم الأبواب كـانت مـغلقـة. ولكن هنا وهناك، بينما كانا يصعدان- كان الدرج يضيق- كانت ثمة أبواب نصف مفـتوحـة، ورأى ويلي وجوهاً صـفـراء مـقـطّبة تعلوها التجـاعـيد لنسـوة هرمات جداً. مكان قريب جداً من ماربل آرتش، لكنه كان مثل مـدينة أخرى، وكأن شمساً أخرى كانت تشعّ في الكلية، وأرضاً أخرى تقبع تحت طاولة العطورات في ديبنهامس.

الغرفة التي فتحتها جون كانت صغيرة، مع فراش ممدد على جرائد فوق الأرض العـارية. كـان هناك كـرسي ومنشـفـة ولمبة عـارية تتدلى، لا غـيـر. خلعت جون ملابسها بالتدريج. كـان ذلك أكثر مما يحتمله ويلي. بالكاد استـمتع باللحظة. بسرعة لا تصدق انتهى كل شيء بالنسبة له، بعد أسبوع كامل من التخطيط، بعد كل المصاريف، ولم يعرف ما يقول.

جون التي كـانت تسند رأسه على ذراعهـا الممتلئ، قـالت: "صديق لي يقول: يحدث مثل هذا الشيء مع الهنود. إنه بسبب الزيجات المرتّبة.

لا يشعرون بأن عليهم أن يحاولوا جهدهم. أبي قال إنّ والده تعود أن يقول له: (اشبع المرأة أولاً. ومن ثمّ فكّر بنفسك.) لا أعتقد بأن أحداً سبق أن قال لك شيئاً مشابهاً."

بحنانٍ فكّر ويلي بوالده للمرة الأولى.

قال: "جون، دعيني أحاول ثانيةً."

حاول ثانيةً. طال الأمر أكثر، ولكن جون لم تقل له شيئاً. بعدئذ، وكما في المرة السابقة، انتهى كل شيء. كان التواليت في نهاية الكوريدور الداكن. شبكات عنكبوت، مكسوة بالغبار، تغطي الصهريج المرتفع الصدئ، وتتدلى مثل نوع من المادّة الغريبة على النافذة الصغيرة في الأعلى. عندما عادت جون كانت قد ارتدت ثيابها بعناية فائقة. ويلي لم يراقبها. هبطا الدرج معاً دون كلام. فُتحَ بابٌ ونظرت إليهما امرأة عجوز بقسوة. قبيل ساعة كان يمكن لويلي أن يكترث: لكنه لا يكترث الآن. عند الهبوط شاهدا رجلاً أسود صغير الحجم، يرتدي قبعة جامايكية مدوّرة تظللُ وجهه. بنطلونه الذي يؤلف نصف بدلة من ماركة زوت كان ضيقاً عند الكاحلين، ومنتفخاً كالبالون عند الساقين، مصنوعاً من مادة رقيقة تناسب مكاناً أكثر دفئاً. نظر إليهما لمدة أطول مما ينبغي. مشيا في الشوارع الفقيرة التي كانت هادئة جداً، بنوافذ كبيرة محجوبة بستائر مرتخية و أباجورات مزيفة، مشيا إلى حيث يوجد ضوء المحلات وحركة سير معقولة. إنها لندن ثانية. لا تاكسي من أجلهما الآن. باص لجون- تحدثت عن الذهاب إلى ماربل آرتش، لتركب باصاً إلى مكان يدعى كريكلود. وباص آخر لويلي. في طريق عودته إلى الكلية، راح يفكر بجون وهي تعود إلى البيت، إلى مكان لا يستطيع أن

يتخيله، وفكر ببيرسي. شعر ببداية الندم.لم يدم الندم طويلاً. رماه جانباً. وجد أنه راض عن نفسه، على أيّ حال. قام بعمل جيد وضخم في تلك الظهيرة. إنه رجل متبدّل. سوف يقلق بشأن النقود لاحقاً.

عندما رأى بيرسي ثانية سأله: "من أي صنف هي عائلة جون؟"

"لا أدري. لم أرهم في حياتي. لا أظن أنها تحبهم."

ذهب إلى مكتبة الكلية فيما بعد، وبحث عن طبعة "بيلكان" ورقية لكتاب (فيزيولوجية الجنس). رأى الكتاب سابقاً، لكنه لم يتحمّس له بسبب عنوانه العلمي. هذه الطبعة من أيام الحرب مرصوصة بصورة جيدة، بدبابيس معدنية صدئة، وكان صعباً في بعض الأحيان رؤية بداية السطور. كان عليه أن يشدّ بعض الصفحات ويحمل الكتاب من زوايا مختلفة. عثر أخيراً على ما كان يبحث عنه. قرأ أن الإنسان العادي يمكن أن يستمرّ لمدة عشر إلى خمس عشرة دقيقة. كانت تلك أخبار سيئة. سطر أو سطران آخران أصبحت الأمور أكثر سوءاً. قرأ أن "رياضيّ الجنس" يمكنه بسهولة أن يستمر لنصف ساعة. تلك اللغة الظافرة اللعوب- شيء لم يتوقعه في كتاب جدّي من بليكان- كانت مثل ضربة له. رفض ما كان قد قرأه، ولم يقرأ المزيد.

عندما رأى بيرسي ثانية سأله: "كيف تعلّمت الجنس، يا بيرسي؟"

قال بيرسي: "عليك أن تبدأ صغيراً. جميعنا بدأنا صغاراً. نتدرب على الفتيات الصغيرات. لا تنصدم جداً، ويلي الصغير. أنا متأكد أنك لا تعرف كل شيء عما كان يحدث في عائلتك العريضة. مشكلتك يا ويلي هي أنك أنيق جداً. ينظر الناس إليك ولا يرونك."

" أنت أكثر أناقة مني. دائماً بدلة وقميص نظيف."

"أجعل النساء قلقات. إنهن يخفن مني. هذه هي الطريقة يا ويلي. الجنس عمل وحشي. عليك أن تكون وحشياً."

"هل تخاف جون منك؟"

"إنها تخاف مني إلى حد الرعب . اسألها."

فكّر ويلي في أن عليه أن يخبر بيرسي عما جرى. لكنه لم يعرف أيّ كلمات يستخدم. شيء من فيلم قديم خطر له، وكان على وشك أن يقول: "أنا وجون نحبّ بعضنا بعضاً، يا بيرسي." لكنه لم يحب الكلمات، التي رفضت أن تخرج.

بعد أسبوع أو أكثر شعر بالسعادة لأنه لم يقل شيئاً. اصطحبه بيرسي- الرجل العارف بالمدينة- إلى حفلة في نوتينغ هيل في إحدى أمسيات السبت. لم يكن ويلي يعرف أحداً هناك، وظلّ ملازماً لبيرسي. بعد فترة انضمت جون إليهما. بعد ذلك بقليل قال بيرسي لويلي: "هذه الحفلة مملة مثل جهنم. أنا وجون عائدان إلى الكلية لممارسة الجنس."

نظر ويلي إلى جون وقال: "هل هذا صحيح؟"

قالت بطريقتها البسيطة: "أجل، يا ويلي."

لو أن أحداً سأله، لكان ويلي سيقول إن بيرسي يدرّبه على الحياة الإنكليزية. في الواقع، من خلال بيرسي، و دون أن يعرف ما الذي كان يتعرّفه، أصبح ويلي جزءاً من حياة المهاجرين البوهيمية العابرة في لندن في أواخر ١٩٥٠. لم يلامس هذا كثيراً العالم البوهيمي التقليدي في سوهو. كان عالماً مستقلاً بحد ذاته. المهاجرون من الكاريبي، ومن المستعمرات البيضاء في إفريقيا، ومن ثم آسيا، كانوا قد وصلوا لتوهم. كانوا لا يزالون جدداً وغرائبيين، وكان ثمة أناس إنكليز-من طبقات دنيا

وعليا معاً، تحثّهم ذائقةٌ للمغامرة الاجتماعية، ورغبةٌ من حين لآخر في الهروب من إنكلترا، وثمة أناس لهم صلات استعمارية ممن كانوا يرغبون في تغيير المعيار الاجتماعي للمستعمرات- أناس إنكليز جاهزون للبحث عن الجديد والمفهوم بين الوافدين الجدد. كانوا يلتقون في نوتينغ هيل، وهي أرض حيادية، في غرف مفروشة، مضاءة إضاءةً سيئة في ساحات هجينة اجتماعياً، (ليس بعيداً عن المكان الذي ذهب إليه جون وويلي ذاك المساء)؛ وكانوا سعداء ومبتهجين معاً. ولكن القليل من المهاجرين كانوا يمتلكون أعمالاً مناسبة، أو بيوتاً آمنة يعودون إليها. البعض كان حقاً على شفا حفرة، وتلك الحقيقة وضعت حداً للبهجة.

كان ثمة شخص بينهم أخافَ ويلي. كان صغير الحجم، نحيلاً ووسيماً. كان أبيضَ أو بدا أنه أبيض. قال إنه أتى من المستعمرات وكانت لديه لكنتهُ المميزة. من بعيد كان يبدو معصوماً، ولكنه عن كثب كان أقلّ حضوراً، قميصه وسخ عند الياقة، السترة بالية، أسنانه سوداء ونَخِرة، وتنفّسه عالٍ. منذ لقائه الأول مع ويلي أخبره قصّته. إنه ينحدر من عائلة كولينيالية جيدة، وكان والده قد أرسله إلى لندن قبل الحرب لكي يتعلم وينسجم مع المجتمع الإنكليزي. كان لديه معلم إنكليزي. سأله المعلم ذات يوم، كجزء من تدريبه: "إذا أردت الذهاب إلى العشاء، وخُيّرتَ، فهل تذهب إلى الريتز أم بيركلي؟" الشاب من المستعمرات قال: "الريتز." هزّ المعلم رأسه وقال: "خطأ. لكنه خطأ شائع. الطعام في بيركلي أفضل. لا تنسَ هذا أبداً." بعد الحرب نشب شجار عائلي وكان أن ولّت تلك الحياة برمتها. كتب أو كان يكتب عن هذا، وأراد أن يقرأ لويلي جزءاً من فصل. ذهب ويلي إلى غرفة الرجل في سكنٍ داخلي ليس

بعيداً. استمع إلى وصفٍ عن زيارة إلى طبيب نفساني. القليل مما قاله الطبيب النفساني كان موجوداً في الفصل. كان ثمة الكثير من الوصف عن المنظر عبر النافذة، وعن سلوك غريب لقطّةٍ على السياج. وبينما كان ويلي يستمع، شعر بأن غرفة الطبيب النفساني مثل الغرفة التي كانا يجلسان فيها. وعندما سأل الكاتب في النهاية ويلي عن رأيه، قال ويلي: "كنت أريد أن أعرف المزيد عن المريض، والمزيد عن الطبيب." جنّ جنون الكاتب. برقت عيناه السوداوان، وأظهر أسنانه المسودّة من التبغ وصرخ في وجه ويلي: "لا أعرف من أنت، ولا من أين أتيت، أو أيّ موهبة تظنّ أنك تمتلك. لكن شخصاً مشهوراً جداً قال إنني أضفت بعداً جديداً للكتابة." فرّ ويلي خارج الغرفة بينما كان الرجل يستشيط غضباً منه. ولكن عندما التقيا ثانية كان الرجل سهلاً. قال: "سامحني، أيها الولد العجوز. إنها تلك الغرفة. أكرهها. أشعر بأنها تابوت. ليس هذا ما تعوّدته في الأيام الخوالي. سوف أنتقل. أرجوك سامحني. أرجوك تعال وساعدني في النقل. من أجل أن تُظهر أنك لا تضمر لي أيّ ضغينة." ذهب ويلي إلى السكن الداخلي وطرق على باب الكاتب. امرأة متوسطة العمر خرجت من باب جانبي وقالت، "إذاً هو أنت. عندما غادر البارحة قال إنه سيرسل شخصاً لإحضار أمتعته. تستطيع أن تأخذ حقيبته. لكن عليك أن تدفع الأجرة المتراكمة. إنها تبلغ ستة وستين جنيهاً وخمسة عشر شلناً." فرّ ويلي ثانيةً. والآن كلما ذهب إلى حفلات بيرسي كان يبحث عن الرجل الصغير ذي اللحية. ولم يطل الوقت حتى رآه، وجاء الرجل إليه وهو يرتشف نبيذاً أبيضَ من كأس نبيذ ثم قال ورائحة الثوم والمرَق تفوح منه: "آسف، أيها الولد العجوز. ولكن في

جنوب إفريقيا كنا دائماً نقول إنكم أنتم الهنود ممتلئون بالنقود وظننت إنك تريد المساعدة."

ذات مساء، ظهرَ رجلٌ لا يشبه المرتاد البوهيمي العادي للحفلات. أحضر زجاجة شامبانيا إلى الحفلة، وقدمها إلى بيرسي عند الباب. كان في الخمسينيات من عمره، صغير الحجم، يرتدي بعناية بدلة رمادية أنيقة الطراز، تناسب تقريباً معايير بيرسي، فطيات صدر السترة مصنوعة يدوياً، والقماش ينسدل بنعومة فوق الذراع. عرّف بيرسي ويلي إلى الغريب، وترك الاثنين معاً.

ويلي، ليس من أهل الشرب، لكنه يعرف الآن ماذا يُنتظر منه، قال: "شامبانيا."

قال الغريب بصوت ناعم جداً، وبلكنةٍ لا تشبه لكنةَ رجل محترف: "مبرّدة. إنها من الريتز. هم دائماً يتركون الزجاجة جاهزة من أجلي."

لم يكن ويلي متأكداً من أن الرجل جادّ. لكن عينيه كانتا هادئتين وباردتين، وظن ويلي أنه ليس من الضروري بالنسبة له أن يبتّ في المسألة. ولكن الريتز ثانية! لماذا يبدو الأمر مهماً بالنسبة لهم. بالنسبة لويلي- الذي كان في الوطن يظنّ أن الفندق أرخص أنواع محلات الشاي الرخيص، أو أماكن تناول الطعام- كانت تلك فكرة لندنية غريبة عن الرفاهية: ليس الشراب، وليس الخدمة، بل الفندق الكبير، وكأن السّعر الزائد يضفي بركةً زائدة.

لم يكن الغريب ينوي الدخول في محادثة مع ويلي، ورأى ويلي أن عليه أن يقوم بعمل ما.

قال: "هل تعمل في لندن؟"

قال الغريب: "أعمل هنا في هذا المكان. أنا مطوّر. إنني أطوّر هذه المنطقة. إنها حاوية زبالة الآن. لكنها ستكون مختلفة في غضون عشرين عاماً. وأنا راغب في الانتظار. ثمة كل هؤلاء المستأجرين القدامى المحميين، وهم لا يدفعون شيئاً لقاء إيوائهم في هذه البيوت الكبيرة، وهم تقريباً يعيشون وسط لندن. وهم حقاً يريدون أن يعيشوا في الخارج. في الضواحي المزدهرة أو في كوخ ريفي صغير وجميل. أساعدهم لكي يفعلوا ذلك. أشتري العقارات وأقدّم للمستأجرين تسهيلات سكنهم. البعض يأخذها. البعض يمتنع. ومن ثمّ أوسّع المكان حولهم. في الأيام الخوالي كنت أطلب من بيرسي أن يرسل أقرانه السود." تحدّث بلطف، ودون مكر، وبطريقة وصفية صرف، وصدّقه ويلي.

قال ويلي: "بيرسي؟"

"مالك أرض لندني قديم. ألا تعرف؟ ألم يخبرك؟"

لاحقاً ذاك المساء قال بيرسي لويلي: "إذاً الرجل حشرك في زاوية."

"قال إنك كنت مالك أرض."

"كان علي القيام بأعمال متنوعة يا ويلي. كانوا يريدون من شباب الهند الغربية أن يقودوا الباصات هنا. لكن كانت هناك مشكلة المأوى. كان الناس هنا لا يريدون تأجير السود. لستُ في حاجة إلى أن أخبرك هذا. وهكذا شجعت واحدة، أو اثنتان، من حكومات الجزر الناسَ على شراء العقارات، وتأجير الهنود الغربيين. بدأ الأمر بتلك الطريقة. لا تدع الأفكار الطوباوية تجول في خاطرك. البيوت التي اشتريتها كانت تغصّ بالناس، وتكلف ألفاً وخمسمائة جنيه. أحدها كلّف ألفاً وسبعمائة وخمسين جنيهاً. كنت أضع الصبيان في الغرف الاحتياطية. وكنت أذهب

مساء كل جمعة لجمع الإيجار. لا يمكنك أن تعثر على أناس أفضل من أولئك الأولاد القادمين من باربادوس. كانوا ممتنين جداً. في مساءات الجمعة تلك، وبعيد توقف مواصلات لندن، كنت تجد كلّ فرد منهم مستحماً ونظيفاً، وراكعاً قرب السرير يصلي في غرفته الصغيرة. الكتاب المقدس في جانب، مفتوحاً على السفر الثالث، وكتاب الإيجار في جانب آخر، مطوياً على الإيصالات. وكانت الإيصالات ظاهرة. سمع بي الرجل العجوز، وأراد أن يكسبني إلى جانبه. لم أستطع رفض طلبه. كان ذلك إقليمه. وعرض علي العمل في النادي. ووعدني بحصة من الشغل. عندما سألته عن الحصة، قال إنني مملّ. فهمت الإشارة، وحصلت على منحة الكلية. لكنه لا يزال يريد أن نظلّ أصدقاء، ومن الأفضل لي أن أظلّ صديقاً له. لكنّ ذلك يقلقني يا ويلي. إنه يريدني أن أعود للعمل لديه. وهذا يسبب لي القلق."

فكّر ويلي: "كم هي غريبة هذه المدينة! عندما أتيت للبحث عن زاوية الخطباء، ورأيت كريشنا مينون يمشي ويتهجّى خطابه عن غزو قناة السويس، لم أكن أعلم مطلقاً بأن النادي، وطاولة العطورات في ديبنهامس قريبان جداً إلى هذا الجانب، ومزرعة بيرسي القديمة، ومزرعة الرجل العجوز، قريبتان جداً إلى الجانب الآخر."

في واحدة من تلك الحفلات البوهيمية، كان لقاء ويلي بشاب بدين ذي لحية قال إنه يعمل لمصلحة (بي بي سي). كان يحرر، أو ينتج، برامج لبعض المحطات خلف البحار. كان جديداً في عمله، وبالرغم من أنه كان متواضعاً على المستوى الشخصي، كان مملوءاً بأهمية ما يفعله. كان بيروقراطياً في الأعماق، يحترم العرف، ولكن احتفاءً بعمله، شعر

بأن عليه أن يتقنع بالحياة البوهيمية في مكان مثل نوتينغ هيل، ويمدّ يد الرعاية لأناس من أمثال ويلي: ينقذ بشراً مغمورين من براثن الظلام إلى مجد موجات الأثير.

قال لويلي: "تصبح أكثر فأكثر ممتعاً كلما مرّت الدقائق."

كان ويلي منهمكاً في سرد تاريخ العائلة.

قال المنتج: "هنا لا نعلم الكثير عن طبيعة جماعتكم المسيحية. قديمة جداً، وسحيقة جداً. معزولة جداً عن باقي الهند، كما فهمته من كلامك. سيكون مدهشاً أن أسمع المزيد عنها. لماذا لا تنجز لنا نصاً عنها؟ سوف تناسب كثيراً أحد برامج الكومنولث لدينا. خمس دقائق. ستمائة وخمسون كلمة. فكر فيها كصفحة ونصف من أحد كتب بينغوين. ابتعد عن الجدل. خمسة جنيهات إذا استخدمناها."

لا أحد- إذا استثنينا أناس المنحة- سبق أن عرض مالاً على ويلي. وتقريباً حالما طرحت الفكرة وحددت الزاوية من قبل المنتج، ارتسم حديث خمس الدقائق وحده في ذهنه. بدايات العقيدة في شبه القارة مصوغة على شكل قصص العائلة (عليه أن يتأكد من بعض الأمور في الموسوعة)؛ شعور الانفصال عن باقي الهند؛ غياب المعرفة الحقيقية بالأديان الأخرى في الهند؛ عمل أفراد العائلة، أثناء الحكم البريطاني، كمصلحين اجتماعيين، أناس يتحلون بضمير مسيحي، أبطال حقوق العمال (قصة أو اثنتان عن علاقة مثير الفتن، الذي كان يرتدي شالاً أحمر عندما يخاطب الاجتماعات العامة)؛ ثقافة الكاتب في المدرسة التبشيرية، واكتشافه هناك للتوتر بين المجتمع المسيحي القديم والمسيحيين الجدد، المنبوذين، المعتنقين حديثاً للدين، الناس المقموعين،

وجميعهم يعانون الظلم؛ تجربة صعبة للكاتب لكنها في نهاية المطاف تستحق العناء، لأنها تقود إلى فهم وقبول، ليس فقط المسيحيين الجدد، بل العالم الهندي الأكبر خارج العباءة المسيحية، العالم الهندي الذي وقف أجداده بمنأى عنه.

كتب الحديث في أقل من ساعتين، كأنما كان في المدرسة التبشيرية من جديد: كان يعرف ما يُنتظر منه. بعد أسبوع تلقى رسالة قبول من المنتج على صفحة صغيرة بيضاء من ورق بي بي سي. توقيع المنتج كان صغيراً جداً. بدا كأنه رجل سعيد يغيّب هويته في الهوية الأكبر لمؤسسته. بعد ثلاثة أسابيع طُلب من ويلي أن يسجّل نصّه. استقل الميترو الأرضي إلى هولبورن، و مشى عبر شارع كينغزوي إلى بوش هاوس. أول مرة انتابه إحساس بقوة لندن وثروتها، خلال تلك المشية الطويلة باتجاه بوش هاوس في نهاية المشهد القوي. كان شيئاً بحث عنه إبان وصوله، لكنه لم يجده، ومن ثمّ نسي الأمر خلال تنقلاته بين الكلية ونوتينغ هيل.

أحبّ دراما الاستديو، الضوء الأحمر والضوء الأخضر، المنتج ومدير الاستديو في قفصهما الزجاجي العازل للصوت. كان نصه جزءاً من برنامج أطول لمجلة. كان قد سُجل على قرص وكان عليه وعلى المساهمين الآخرين أن يجلسوا ويراقبوا سير العملية كلها مرتين. كان المنتج كثير الجلبة وممتلئاً بالنصائح لكل شخص. استمع ويلي بعناية والتقط كلّ شيء. لا تصغِ إلى صوتك، حاول أن ترى ما تتحدث عنه؛ تكلّم من خلف الحنجرة؛ لا تدع صوتك يرتخي في نهاية الجملة. في النهاية قال المنتج لويلي: "أنت مذيع بالطبيعة."

لاحقاً، وبعد أربعة أسابيع، طُلب من ويلي الذهاب إلى معرض للنحت يقيمه شاب من إفريقيا الغربية. كان النحات، وهو رجل صغير الحجم

يرتدي قبعة إفريقية مزخرفة ووسخة، الشخص الوحيد في المعرض عندما زاره ويلي. كان ويلي قلقاً لتظاهره بأنه مراسل، غير أن الإفريقي تحدّث دون عناء. قال إنه عندما ينظر إلى قطعةٍ من الخشب، فإنه يستطيع أن يتخيّل الأشكال التي سينحتها فيها. تجوّل مع ويلي في أرجاء المعرض وجلبابه الإفريقي الثقيل يهفهف فوق وركيه، وأخبره بدقة متناهية عن المبلغ الذي دفعه لقاء كل قطعة من الخشب. بنى ويلي نصّه على ذلك.

بعد مرور أسبوعين أرسله المنتج إلى غداء أدبي لمضيفة أمريكية وكاتبة ثرثرات. كان حديثها عن كيفية التحضير لحفلة عشاء والتعامل مع مشكلة ثقال الظلّ. يجب وضع ثقلاء الظل مع ثقلاء ظل آخرين؛ يجب محاربة النار بالنار. نصّ ويلي كتبَ نفسه.

وجد نفسه إلى حدّ ما قيد الطلب. بعد تسجيل نص في إحدى الظهيرات اشترى آلة كاتبة معروضة للشراء والاستئجار من شركة في ساوثامبتون. وقع اتفاقاً طويلاً عن القرض البالغ أربعةً وعشرين جنيهاً وأعطي (مثل مستأجري بيرسي من الهنود الغربيين ومعهم دفاتر إيجارهم) دفتر حساب صغيراً (له غلاف قاس كأنه مُعَدٌّ للاستخدام الطويل)، حيث ستدُخل فيه مدفوعاته أسبوعياً.

كان يكتب بسهولة أكبر على الآلة الكاتبة. بدأ يفهم أن الحديث الإذاعي يجب ألاّ يكون مثقلاً بالمعلومات. بدأ يدرك حجم المادة التي تتطلبها قطعة من خمس دقائق- ثلاث أو أربع نقاط تكفي عادة- ولم يكن يهدر وقتاً في البحث عن معلومات لن يستخدمها. وأتيحت له فرصة تعرّفِ المنتجين ومديري الاستديو، والمساهمين. بعض المساهمين كانوا محترفين. كانوا يعيشون في الضواحي، ويأتون بالقطار مع حقائبهم الكبيرة، التي تحوي العديد من النصوص الصغيرة من أجل برامج أخرى،

وعناوين لنصوص صغيرة أخرى. إنهم أناس مشغولون، يخططون لنصوص صغيرة لأسابيع وشهور قادمة، ولا يحبون الجلوس مرتين أثناء عرض برنامج المجلة المؤلف من نصف ساعة. وكان يبدو عليهم السأم من نصوص أناس آخرين، وتعوّد ويلي أن يبدو ضجِراً من نصوصهم.

لكنه انبهر بروجر. روجر محام شاب بدأ مسيرته منذ عهد قريب. وقَعَ ويلي على نصّ طريف جداً لروجر عن الاشتغال في خطة مساعدة قانونية للحكومة، تمثل أناساً فقراء لا يقدرون على دفع مصاريف المحامي. والناس الفقراء، الذين كان على روجر أن يتعامل معهم، تبين أنهم مراوغون، كثيرو الشكوى، وعشاق كبار للقانون. النص يبدأ وينتهي بالمرأة السمينة العاملة نفسها، وهي تأتي إلى مكتب روجر وتقول: "هل أنت المحامي الفقير؟" كانت المرة الأولى التي يشعر فيها روجر بالجزع. في المرة الثانية تنهّد وقال: "أجل. إنه أنا."

جعل ويلي إعجابه واضحاً خلال التسجيل وبعده، و اصطحبه روجر إلى نادي بي بي سي. عندما جلسا، قال روجر: "في الواقع أنا لست عضواً. لكنه مكان مناسب."

روجر سأل ويلي عن نفسه وويلي أخبره عن كلية التربية.

قال روجر: "إذاً أنت ستصبح معلماً."

قال ويلي: "ليس تماماً." وكان ذلك صحيحاً. لم يكن قد فكّر في أن يصبح معلماً. وخطرت له عبارة: "إني أراقب الوقت."

قال روجر: "أنا مثل هذا أيضاً."

أصبحا صديقين. كان روجر طويل القامة ويرتدي بدلة داكنة بصدرية مزدوجة. أسلوبه، طريقته، كلامه (يجنح بسهولة إلى رسمية

طريفة، مع جمل متوازنة كاملة أعطت ويلي الانطباع بالذكاء) - كل هذا أتى إلى روجر من خلال عائلته، مدرسته، جامعته، أصدقائه، ومهنته. لكن ويلي رأى في كل هذا عناصر تخصّ روجر شخصياً.

رأى في أحد الأيام أن روجر كان يرتدي حمالات بنطلون. دهش للأمر. قال روجر: "لا خصر، لا وركين. لست مثلك، يا ويلي. إنني أنحدر باستقامة نحو الأسفل."

كانا يلتقيان نحو مرة في الأسبوع. في بعض الأحيان كانا يتناولان الغداء في المحاكم القانونية؛ كان روجر يحب الحلويات هناك. أحياناً كانا يذهبان إلى المسرح: كان روجر ينجز رسالة أسبوعية لمصلحة صحيفة محلية، ويستطيع أن يحصل على بطاقات للمسرحيات التي يريد أن يكتب عنها. وفي بعض الأحيان كانا يذهبان إلى أعمال الترميم الجارية على بيت صغير جداً، وطيء وبدون شرفة، اشتراه روجر في شارع مهمل قرب ماربل آرتش. قال روجر شارحاً أشياء عن البيت: "كان لدي رأسمال صغير. تقريباً أقل من أربعة آلاف جنيه. رأيت أن أفضل شيء هو أن أضعه في عقار لندني." كان روجر يؤكّد تواضع أحواله، وهو يشرح عن البيت الصغير، لكن ويلي أصيب بالدهشة، ليس فقط بشأن الأربعة آلاف جنيه، بل بثقة روجر بنفسه وسعة اطلاعه، وبالكلمات التي استخدمها، مثل "رأسمال"، "عقار". وبينما كان يجتاز شارع كينغزوي في طريقه إلى بوش هاوس، لكي يسجل حديثه عن كونه مسيحياً هندياً، خطرت في ذهن ويلي، للمرة الأولى، فكرةٌ ما عن غنى إنكلترا ما قبل الحرب وقوتها، وهكذا بالتدريج، ومن خلال صداقته لروجر، شعر ويلي بأنه يرى ما وراء العديد من الأبواب الموصدة، وهنا أتت إليه بدايات فكرةٍ عن إنكلترا،

بعيدةً كل البعد عن الأولاد في كلية التربية، وعن الباحثين عن الإثارة في حياة المهاجرين البوهيمية في نوتينغ هيل.

قال بيرسي كيتو ذات يوم بلكنة جامايكية مبالغ فيها: "ماذا حدث، أيها الولد ويلي؟ وكأن ثمة شخصاً آخر يغويكَ، ويجعلكَ تنسى صديقك القديم بيرسي." ومن ثم أردف قائلاً بصوته العادي: "لطالما سألت عنكَ جون."

فكّر ويلي بالغرفة التي كانت قد أخذته إليها. لاشك في أنها وبيرسي تقابلا هناك كثيراً. تذكّر التواليت، والرجل الأسود الذي أثاره فيما بعد، إذ كان واصلاً لتوه من الجزر ولا يزال يضع قبعته الجامايكية المدورة، ويرتدي بنطلونَ بدلةِ "الزّوت" الاستوائي الضيق. كان يرى كل هذا من بعيد الآن. كان الأمر بصحبة بيرسي، أكثر من أي وقت مضى، مثل السرّ.

قال روجر: "مازلت لا أملك أيَّ فكرة عما تنوي أن تفعله. هل هناك عمل يخص العائلة؟ هل أنت واحد من الأغنياء العاطلين."

تعلم ويلي أن يحافظ على محيّاه واضحاً، عندما كان يُواجَه بأشياء محرجة، ويحتال على الإحراج. قال: "أريد أن أكتب." لم يكن ذلك صحيحاً. لم تخطر له الفكرة حتى تلك اللحظة، وقد خطرت له لأن روجر، الذي أحرجه، جعله يفكر بسرعة، ولأنه كان يعرف، من خلال أشياء كثيرة قالها روجر، أنه قارئ عظيم، ويحب الكتّابَ الإنكليز المعاصرين الكبار، من أمثال أورويل، وواو، باول، وكونلي.

بدا روجر مخذولاً.

قال ويلي: "هل يمكن أن أريك بعض الأشياء التي أنجزتها؟"

كان قد طبع بعض القصص التي كتبها في المدرسة التبشيرية.

أخذها إلى غرفة روجر ذاك المساء. ذهبا إلى حانة، وقرأها روجر خلف الطاولة قبالة ويلي. لم يسبق لويلي أن رأى روجر أكثر جديةً. فكّر: "هذا هو المحامي." وشعر بالقلق. لم يكن يكترث عندئذ للقصص، فهي أشياء قديمة على أيٍّ حال. الشيء الذي لم يكن يريد أن يخسره هو صداقة روجر.

أخيراً قال روجر: "أعرف أنّ من سُمّيت على اسمه، وصديق العائلة، يقول إنّ القصة يجب أن تحتوي على بداية ووسط ونهاية. ولكن في الواقع، إذا فكرت بالأمر، ليست الحياة هكذا. ليس للحياة بداية صرف ونهاية دقيقة. الحياة دائماً في طور الحدوث. عليك أن تبدأ من الوسط وتنتهي في الوسط، ويجب أن يكون كلّ شيء هناك. هذه القصة عن البراهمي والكنز والتضحية بالطفل- كان يمكن أن تبدأ مع زعيم القبيلة، وهو يتأهب لزيارة البراهمي في صومعته. إنه يبدأ بالتهديد وينتهي بالتذلل، ولكن عندما يغادر يجب أن نعرف أنه يخطط لجريمة مرعبة. هل قرأت همنغواي؟ عليك أن تقرأ القصص الأولى. ثمة قصة تدعى "القتلة". إنها تتألف من عدة صفحات فقط، ويطغى عليها الحوار تقريباً. رجلان يأتيان ليلاً إلى مقهى خال رخيص. يحتلانه وينتظران اللص العجوز الذي استأجِرا لقتله. هذا كل شيء. قامت هوليوود بإنجاز فيلم ضخم عن القصة، لكنّ القصة أفضل. أعرف أنك كتبت هذه القصص في المدرسة. لكنك سعيد بها. الشيء الممتع بالنسبة لي، كمحامٍ، هو أنك لا تريد أن تكتب عن أشياء حقيقية. أمضيتُ وقتاً لا بأس به أصغي إلى شخصيات ملتوية، وأشعر حيال هذه القصص أنّ للكاتب أسراراً. إنه يتخفّى."

أحسّ ويلي بالخذلان. احترق خجلاً. وشعر بأن دموعه وشيكة. مدّ يده عبر الطاولة واسترجع القصص، وفي ذات الحركة نهض واقفاً.

قال روجر: "من الأفضل أن تنقّي الجو حول أشياء معينة."

غادر ويلي الحانة وهو يفكّر: "لن أرى أبداً روجر ثانية. كان علي ألاً أريه هذه القصص القديمة. إنه على حقّ. وهذا أسوأ ما في الأمر."

نادباً الصداقة، بدأ يفكر في جون، وبالغرفة في نوتينغ هيل. قاوم الفكرة، لكنه بعد بضعة أيام ذهب يبحث عنها. استقلّ المترو الأرضي إلى بوند ستريت. كان وقت الغداء. وبينما كان يعبر الشارع إلى ديبنهامس رأى جون وفتاةً أخرى آتيتين من الجهة المقابلة. لم تره. كانت شاردة، مطأطأةَ الرأس. ليس كمثل الفتاة الأنيقة، المعطّرة، الصامتة التي يتذكرها. حتى لونها كان مختلفاً. مشاهداً إياها في تلك الحالة مع فتاة أخرى في وضع أليف، توترها الجنسي زائل، حتى وجهها بدا أكثر تهدلاً، لم يكن لويلي رغبة في إلقاء التحية عليها. كادا يتلامسان حين مرت. لم تره. وكان يستطيع سماع كلماتها المغمغمة. فكّر: "هكذا هي في كركلود، و هكذا ستكون بعد حين مع كل شخص."

شعر بالراحة. وفي الوقت نفسه شعر بأنه منبوذ. كان شعوراً ينتابه أيام الوطن- منذ أمد بعيد، كما بدا الآن- عندما بدأ بكره المدرسة التبشيرية، والتخلي عن حلمه القديم في أن يصبح مبشّراً، وشخصاً له نفوذ يرتحل في أرجاء العالم.

بعد بضعة أيام ذهب إلى محل كتب. واشترى بشلنين اثنين وستة بنسات نسخةَ بنغوين من قصص همنغواي الأولى. قرأ الصفحات الأربع الأولى من قصة "القتلة"، وهو لا يزال واقفاً في المحل. أحبّ غموض المحيط والسرّية العامة، وشعر بأن الحوار يغنّي. لم يكن يغنّي في الصفحات الأخيرة تماماً، عندما أصبح أقلّ غموضاً، لكن ويلي بدأ يفكر

في إعادة كتابة قصته "حياة التضحية" بالطريقة التي اقترحها روجر.

أصبحت القصة، كما تخيلها، مؤلفة في معظمها من الحوار. كلّ شيء يجب أن يكون محتوىً في الحوار. يجب ألاّ يُشرح الزمان والمكان والناس. هذا أزال الكثير من الصعوبات. كان عليه فقط أن يبدأ؛ والقصة راحت تعيد كتابة نفسها؛ وبالرغم من أنها الآن بعيدة جداً عن ويلي، لكنها أيضاً كانت مشحونة بمشاعره. عدّل العنوان إلى "تضحية".

كان روجر قد ذكر فيلم "القتلة". لم يكن ويلي قد رآه. تساءل ما الذي فعلوه بالقصة. حاول بكسل أن يتخيّل ذلك. وبينما كان عقله منهمكاً يشتغل بتلك الطريقة، خطر له خلال الأيام التالية أنّ بعض المشاهد، أو حتى اللحظات، في أفلام هوليوود يمكن تغييرها على طريقة "تضحية"، وباستخدام غموض الزمان والمكان في "تضحية". فكّر بصورة خاصة في أفلام كاغني عن العصابات، وفي فيلم "قمم عالية" مع همفري بوغارت. أولى محاولاته التعبيرية الأصلية في المدرسة التبشيرية كانت شيئاً مثل هذا. كان قد كتب عن رجل (ليس من بلدٍ معين أو جماعةٍ معينة) ينتظر أحدهم دون سبب معروف في مكان غير محدد، يدخن بينما كان ينتظر (ثمة الكثير من السجائر وأعواد الكبريت)، ويصغي للسيارات العابرة والأبواب ووقع الخطا. في النهاية (كان التعبير من صفحة واحدة فقط) يصل الشخص، ويمتلئ الرجل المنتظر بالغضب. أنهى تعبيره بتلك الطريقة، لأنه لم تكن لديه قصة. لم يكن يعرف ما حدث سابقاً أو ما سيحدث لاحقاً. ولكن الآن، ومع لحظات مقتبسة من أفلام كاغني وبوغارت، لم تكن هناك تلك الصعوبة.

كانت القصص تهبط عليه بسرعة. كتب ستاً خلال أسبوع. ألهمه

فيلم "قمم عالية" ثلاث قصص، ورأى ثلاثاً أو أربعاً أخرى فيه. كان يبدل شخصيات الفيلم من قصة إلى أخرى، وهكذا أصبحت شخصيتا بوغارت وكاغني شخصيتين أو ثلاثاً مختلفة. جرت القصص جميعها في ذات البيئة الغامضة، بيئة "تضحية". وبينما كان يكتب، كانت البيئة تعرّف نفسها باطّراد، وتمتلك نقاط علاّم: قصر بقباب وأبراج، مبنى أمانة سرّ بخطوط من النوافذ الموصدة على أرضيات ثلاث، معسكر غامض بثلاث طرقٍ حوافها بيضاء، حيث لا شيء يبدو أنه يحدث؛ جامعة بباحة ومحلات؛ معبدان قديمان حيث حشود متأنقة تأتي في أيام محددة؛ سوق؛ مستعمرات سكنية بمساكن متباينة؛ صومعة برجل مقدّس غير موثوق به؛ صانع صور؛ وفي خارج البلدة؛ مدابغ للجلود عالية بساكنيها المعزولين.

ولدهشة ويلي كان ذلك أكثر سهولة، مع هذه القصص المستعارة البعيدة كل البعد عن مجال تجربته، ومع تلك الشخصيات البعيدة كل البعد عن ذاته، فهي أكثر تعبيراً عن مشاعره من تلك الألغاز الحذرة، نصف المخبوءة، في المدرسة. بدأ يفهم- هذا شيء كان عليهم أن يكتبوا مقالات عنه في الكلية- كيف فعلها شكسبير، مع بيئاته المستعارة وقصصه المستعارة، وهي أبداً ليست قصصاً مباشرة من حياته الشخصية أو الحياة فيما حوله.

القصص الست لم تتجاوز الأربعين صفحة. الآن وقد تلاشى الهاجس الأول، كان يحتاج إلى تشجيع، وهنا فكّر في روجر. كتب رسالةً، وردّ روجر على الفور، داعياً ويلي إلى الغداء في مطعم تشيز فيكتور في وردر ستريت السفلي. جاء ويلي باكراً وكذلك فعل روجر.

قال روجر: "هل رأيت الإشارة على النافذة؟ المالك يأكل هنا. أهل الأدب يأتون إلى هنا." خفض روجر صوته: "الرجل الجالس عبر الممر هو ف. س بريتشت." لم يعرف ويلي الاسم. كان الرجل القوي المتوسط العمر وديعاً، بوجهه البشوش المتناسق، ومزاجه الطريف السّاهم. قال روجر: "إنه يكتب المراجعات الرئيسة في مجلة (نيو ستيتسمان)." كان ويلي قد رأى المجلة في مكتبة الكلية، وعرف أن ثمة طلاباً كانوا يتنافسون عليها صباح كل جمعة. لكن ويلي لم يكن قد طور بعد الحاجة إلى قراءة المجلات بتلك الطريقة. كانت مجلة (نيو ستيتسمان) لغزاً بالنسبة لويلي، تغصّ بالقضايا والإحالات الإنكليزية التي لم يكن يفهمها.

قال روجر: "صديقتي قادمة. اسمها بيرديتا. ويمكن حتى أن تكون خطيبتي."

الصياغة الغريبة أوحت لويلي أن ثمة مشكلةً. كانت بيرديتا طويلة ونحيلة، ليست جميلة، وليست متميزة، مع سماجة خفيفة في هيئتها. كانت تتزين بطريقة تختلف عن جون، وثمة مادة استخدمتها منحت بريقاً لبشرتها الشاحبة. خلعت قفازيها الناصعين ورمتهما على طاولة تيشز فيكتور صغيرة، وقامت بسلسة من الحركات رأى ويلي من خلالها ذاك الأسلوب الذي جعله يعيد النظر بوجهها. وحالاً فهم ويلي- من لغة العيون تلك من بيرديتا، وتلك الإشاحة والنظر إلى الأسفل من روجر- أنه بالرغم من كياستهما أحدهما تجاه الآخر وتجاهه، لم يكن هذان الشخصان الجالسان على طاولته على وفاق، وأنه دعي إلى الغداء ليقوم بدور العازل.

انحصر الحديث تقريباً في الطعام. بعضه كان عن ويلي. كياسة

روجر لم تخنه أبداً، لكنه بصحبة بيرديتا بدا منطفئاً. عيناه شاخصتان، ولونه متبدّل، عفويته تلاشت، وبدايات خطّ شاقولي من القلق كانت بادية على أرنبة أنفه.

هو وويلي غادرا مطعم تيشز فيكتور معاً. قال روجر: "تعبت منها. وسوف أكون تعباً من التي تليها، وتلك التي تلي التالية. ثمة القليل في المرأة. وهناك تلك الخرافة عن جمالهنّ. إنه عبئهنّ."

قال ويلي: "ماذا تريد هي؟"

"تريدني أن أنهي إجراءات الشغل. أن أتزوجها، أتزوجها، أتزوجها. كلما نظرت إليها شعرت بأنني أسمع تلك الكلمات."

قال ويلي: "أنجزت بعض الكتابات في الآونة الأخيرة. لقد أخذتُ بنصيحتكَ. هلاّ قرأت بعضاً مما كتبت؟"

"هل يمكننا أن نغامر"؟

"أودّ لو تقرؤها."

كان يحمل القصص في جيب سترته الداخلية. أعطاها لروجر. وبعد ثلاثة أيام أخرى وصلته رسالة ودية من روجر، وعندما التقيا قال روجر: "إنها قصص جديدة تماماً. إنها لا تشبه همنغواي على الإطلاق. إنها أقرب إلى كليست. قصة واحدة قد لا يكون لها تأثير، لكن إذا أُخذت مجتمعة، فإنها تؤثّر. هذا الخبث كله يبدأ بالظهور. أحبّ الخلفية. إنها الهند وليست الهند. عليك أن تستمرّ. إذا كنت تستطيع أن تنجز مائة صفحة أخرى فسيمكننا أن نفكر في نشرها."

لم تعد القصص تأتي بسهولة الآن، لكن كانت تأتيه قصة في الأسبوع، اثنتان في الأسبوع. وكلما شعر ويلي بأن مادته الخام تنضب، وتنفد منه اللحظات السينمائية، كان يذهب إلى رؤية أفلام قديمة أو

أفلام أجنبية. ذهب إلى إفريمان في هامبستيد، وإلى الأكاديمية في شارع أكسفورد. رأى فيلم (طفولة مكسيم غوركي) ثلاث مرات في أسبوع واحد في الأكاديمية. بكى وهو يطابق بين ما كان يراه على الشاشة وبين طفولته، وكتب بعض القصص.

* * *

ذات يوم قال روجر: "محرّري سيأتي إلى لندن قريباً. تعلم أنني أزوده برسالة أسبوعية حول الكتب والمسرحيات. كما أنني أكتب الكلمة الغريبة عن الشخصيات الثقافية. يدفع لي عشرة جنيهات في الأسبوع. أعتقد أنه آتٍ لكي يتفقّدني. يقول إنه يريد أن يقابل أصدقائي. وعدته بحفلة عشاء لندنية ثقافية، ويجب أن تأتي، يا ويلي. ستكون أول حفلة في بيتي في ماربل آرتش. سوف أقدمك كنجم أدبي واعد. لدى بروست شخصية اجتماعية تدعى سوان. سوان هذا يحبّ، من أجل متعته فقط، أن يجمع أناساً متنافرين، لكي يبتكر باقة زهور اجتماعية، كما يقول. آمل أن أفعل الشيء ذاته للمحرر. سيكون هناك زنجي قابلته في إفريقيا الغربية عندما كنت أقوم بأداء الخدمة الوطنية. إنه ابن هندي غربي ممن ذهبوا ليعيشوا في إفريقيا الغربية كجزء من حركة العودة إلى إفريقيا. اسمه ماركوس، على اسم المحتال الأسود الذي أسس الحركة. سوف تحبه. إنه ساحر ومهذّب جداً. يدأب على تعزيز العلاقات الجنسية المتداخلة عرقياً، وهو لا يرتوي أبداً. عندما التقينا أول مرة في إفريقيا الغربية، كان حديثه ينصب بمجمله على الجنس. ولكي أبدو منسجماً،

قلت إن النساء في إفريقيا الغربية جذّابات. قال: "هذا إذا كنت تحب الشيء الحيواني". إنه الآن يتدرب لكي يكون دبلوماسياً عندما يصبح بلده مستقلاً، ولندن بالنسبة له هي الجنّة. لديه طموحان. الأول أن يُرزق بحفيد يكون أبيض خالصاً في مظهره. قطعَ نصف الطريق إلى هناك. لديه خمسة أطفال خلاسيين، من خمس نساء بيض، ويشعر بأن كل ما عليه فعله الآن هو أن يراقب الأطفال، ويتأكد من أنهم لن يخيبوا أمله. يريد، عندما يصبح عجوزاً، أن يمشي عبر شارع كينغزوي بصحبة حفيد أبيض. سوف يحدّق الناس إليهما، وسيقول الطفل بصوت عال: "جدّي، إلامَ يحدّق هؤلاء". طموحه الثاني أن يكون الرجل الأسود الأول الذي سيفتح حساباً في كوتس، أي بنك الملكة."

قال ويلي: "أليس لديهم أناس سود؟"

"لا أعرف. لا أعتقد أنه يعرف ذلك أيضاً."

"لماذا لا يذهب إلى البنك ويتأكّد؟ يسأل عن استمارة."

"يخشى أن يصدّوه بطريقة ذكية. يمكن أن يقولوا إن الاستمارات نفدت. لا يريد أن يحدث ذلك. سوف يذهب إلى كوتس، ويطلب فتح حساب عندما يكون فقط متأكداً من أنهم سيقبلونه. يريد أن يفعل ذلك بعفوية كبيرة، ويجب أن يكون الأسود الأول الذي يفعل ذلك. إنها مسألة متداخلة ولا يمكنني أن أقول إنني أفهمها. لكنك ستتحدث معه عن ذلك. إنه صريح جداً. هذا جزء من سحره. وسيكون هناك شاعر شاب و زوجته. يجب ألاّ تواجهك أي مشكلة معهما. سيبدوان نشازاً ولا يقولان أبداً أي شيء، وسيكون الشاعر منتظراً لصدّ أي شخص يتحدث إليه. ليس من الضرورة أن تقول له شيئاً. في الواقع هو معروف بصورة جيدة. سيكون

محرري سعيداً لمقابلته. في لحظة غبية كتبت مقطعاً فيه إطراءُ لأحد كتب الشاعر في رسالة لندنية، وبطريقة ما وصله الخبر. هكذا تعارفنا."

قال ويلي: "أعرف هؤلاء الصامتين. كان والدي دائماً مُقسِماً على الصمت. سوف أفتّش عن الشاعر."

"لن يمنحك هذا أي متعة. الشعر معقد ومتباهٍ وعقيم تماماً، وأحياناً تظنّ أنها غلطتك أنّ الشعر هكذا. هذا ما كنت قد لمسته. ابحث عنه إذا أردتَ، ولكن عليك ألاّ تشعر بأنه يجب أن تقوم بذلك قبل العشاء. إنني سأدعو الشاعر وزوجته من أجل باقة الزهور الاجتماعية فقط. قليل من السرخس الميت كفيلٌ بتعطيل كل شيء. الشخصان اللذان يجب أن تتفحصهما رجلان أعرفهما منذ أيام اكسفورد. كلاهما ينحدر من طبقة وسطى متواضعة، وهما يلاحقان النساء الثريات. يعملان أشياء أخرى، لكن هذا في الواقع عملهما. نساء ثريات جداً. بدأ ذلك بصورة بسيطة في أكسفورد، ومنذ ذلك الحين تدرّجا أكثر فأكثر، أعلى وأعلى، إلى نساء أغنى وأغنى. معاييرهما للثراء في المرأة عالية الآن حقاً. هما عدوان ألدّان بالطبع. كلّ يظن الآخر محتالاً. مشاهدتهما وهما يعملان كانت بمنزلة تربية حقيقية. كلاهما اكتشف، في الوقت نفسه تقريباً، في أكسفورد أن الفتح الأول في تعقب النساء الثريات غاية في الأهمية. إنه يثير فضول النساء الثريات الأخريات اللواتي لن يُعرنَ، لولا ذلك، أي انتباه لمغامرين من الطبقة الوسطى، وهذا، من ثمّ، يجرّ هؤلاء النسوة إلى مدار الصياد. حالاً تندلع المنافسة بين النسوة الثريات، وكلّ منهن ستدّعي أنها أكثر غنىً من الأخريات.

"ريتشارد قليل الحظّ، سكير وضاجّ، ووزنه يزداد، وهو ليس ذاك

النوع من الرجال ممن تظنّ أن النساء ينجذبن إليه. يرتدي سُتراً صوفية خشنة وضيعة، وقمصان "فيلا" قذرة. لكنه يعرف سوقه، وبعض من تلك الخشونة هو مجرد أداء، وجزء من الطُعم الذي ينصبه. يقدم نفسه كنموذج من برتولت بريخت المسرحي الألماني الشيوعي الداعر كريه الرائحة. ولكن ريتشارد ماركسيّ حجرةِ النوم فقط. الماركسية أخذته إلى حجرة النوم، والماركسية تنتهي عند حجرة النوم. كل اللواتي أغراهن يعرفن ذلك. يشعرن بالأمان معه. كانت الأمور هكذا في أكسفورد، ومازالت الآن. الاختلاف هو أنه خلال أيام أكسفورد كانت تنتعش روحه المألوفة لمجرد أن ينام مع نسوة ثريات، لكنه الآن يأخذ مبالغ ضخمة منهن. بالطبع لديه أخطاؤه. أتخيّل أنه مرّ بأكثر من مشاحنة في غرف النوم. أتخيل سيدة نصف عارية تقول دامعة: "ظننتُ أنك ماركسي." أتخيّل ريتشارد يرفع سراويله بسرعة ويقول: "ظننتُ أنك ثرية." يعمل ريتشارد الآن في مجال النشر، ثري تماماً، ونجمه صاعد بسرعة. وكناشر فإن ماركسيته تجعله أكثر جاذبيةً من أي وقت مضى. كلما نهب سيدات أكثر اندفعت نسوةٌ أخريات لإعطائه.

أسلوب بيتر مختلف جذرياً. خلفيته أكثر تواضعاً، وهو وكيل عقارات ريفية، وفي أكسفورد بدأ يحسّن من أسلوب الجنتلمان الإنكليزي. أكسفورد ملأى بالنساء الأجنبيات الشابات اللواتي يدرسن الإنكليزية في عدة مدارس للغة. بعضهن ثريات جداً. بيتر، بدافع غريزة ما، تجاهل بنات الجامعة واختار أن ينشط بين هؤلاء الناس. كان يمكن أن يحسبنه الصفقة المثالية، ولكنه، من حيث هو أسرع منهن، إذ تعلم كيف يفصل القمح عن التبن، حقق بعض النجاحات البارزة. دُعي إلى

بيتين أو ثلاثة من البيوت الأوربية الثرية. بدأ يقابل أثرياء من القارة. حسّنَ من مظهره. بدأ يقصّ شعره بطريقة نصف عسكرية، إذ ينساب أملس وراء الأذنين، وتعلم كيف ينمّي خدّيه الغائرين. ذات يوم في القاعة العمومية لطلاب السنة الثانية، حيث كان يتناول قهوة رديئة بعد الغداء، قال لي: "ما الذي تقول إنه الشيء الأكثر إغراء مما يمكن أن يرتديه الرجل؟" صُدمت. لم تكن تلك محادثةً نموذجيةً في قاعة عمومية. ولكن كان ذلك يكشف عن المدى الذي وصل إليه بيتر في مهنة وكالة العقارات، وإلى أين كان يتجه. قال أخيراً: "قميص نظيف جداً مكوي بطريقة جيدة." فتاة فرنسية كان قد نام معها في الليلة الفائتة أخبرته ذلك. ولم يكن يرتدي من حينها سوى القمصان البيضاء. قمصانه غالية جداً الآن، مصنوعة يدوياً، ومجدولة من رقائق قطنية فاخرة، حيث الياقة تناسب تماماً رقبته، وتنتصب بتناسق فوق السترة من الخلف. يحبّ القمصان الرسمية بطريقة معينة، بحيث تبدو الياقة مصقولةً. وهو أكاديمي ومؤرخ. ألّفَ كتاباً صغيراً عن الأطعمة عبر التاريخ- موضوع مهمّ، ولكنه موسوعة صغيرة مفككة ككتاب- وهو يتحدث عن كتب جديدة وعروض كبيرة من الناشرين، ولكن كل ذلك من أجل التباهي فقط. طاقته الفكرية في الواقع أضحت ضحلةً جداً. النساء يلتهمنه. ولكي يرضي شبقهنّ، طوّر ما يمكن أن أصفه بذائقة جنسية خاصة. النساء يتحدثن- لا تنسَ هذا يا ويلي- وأخبار ذائقة بيتر تنتشر. هي الآن جزء من نجاحه. الاهتمامات الأكاديمية كانت دائماً تعكس صورة النسوة اللواتي يعاشرهن. أصبح خبيراً في شؤون أمريكا اللاتينية، وقد حصل على جائزة كبيرة: امرأة كولومبية. كولومبيا بلد فقير، لكن المرأة

مرتبطة بواحدة من تلك الثروات السخيفة في أمريكا اللاتينية، التي تشكلت عبر أربعة قرون من الدم والعظام الهندية. سوف تأتي مع بيتر، وسوف يحترق ريتشارد بأبهى أنواع الغيرة. لن يصمد أمام الأمر بهدوء. سوف يفعل شيئاً، ويخلق مشهداً ماركسياً حامي الوطيس. سوف أرتب الأمر بحيث تتاح لك الفرصة للتحدث مع السيدة. هذه هي باقة الزهور الاجتماعية. حفلة عشائنا الصغيرة المؤلفة من عشرة أشخاص."

وراح ويلي يعدّ على أصابعه. استطاع أن يحصي تسعة فقط. وتساءل من يكون الشخص العاشر.

في يوم آخر قال روجر: "محرري يريد أن يمكث معي. قلت له إن البيت صغير جداً، لكنه يقول إنه ترعرع في الفقر، ويعرف البيوت التي يسند بعضها بعضاً. في الواقع البيت مؤلف من غرفة نوم ونصف. المحرر رجل ضخم، وأعتقد أنني سأشغل النصف الآخر من الغرفة، أو أذهب إلى الفندق. سيكون كل هذا غير عادي. سوف أكون كالضيف في حفلة عشائي الخاصة."

في اليوم المحدد طرق ويلي الباب، وانتظر لبعض الوقت أمام البيت الصغير. أخيراً طلبت منه بيرديتا الدخول.لم يتعرّفها ويلي مباشرة. المحرر لتوه هناك. كان بديناً، يرتدي النظارات، ويندفع بجسده عبر القميص، وشعر ويلي بأن حياء الرجل ورغبته في ألاّ يُرى جعلته لا يريد المكوث في الفندق. بدا أنه يشغل حيزاً لا بأس به من المنزل الذي كان صغيراً حقاً، بالرغم من كل الحيل الصغيرة للمهندس. روجر الذي كان يبدو مكتئباً خرج من القبو وقام بتقديم المدعوين.

ظلّ المحرر جالساً في مكانه. قال إنه رأى المهاتما غاندي في عام ١٩٣١، عندما أتى المهاتما إلى إنكلترا لحضور مؤتمر الطاولة المستديرة.

لم يقل شيئاً آخر عن المهاتما (الذي كان ويلي وأمه وعم أمه يحتقرونه)، ولم يقل شيئاً عن ملابس المهاتما أو مظهره؛ تحدث فقط عن رؤيته له. عندما أتى ماركوس الهندي الغربي، الإفريقي الغربي، تحدث المحرر بطريقة مشابهة عن رؤيته بول روبسون.

بدا ماركوس واثقاً، خفيف الظل، ممتلئاً بالحماس، وما أن بدأ يتحدث حتى انبهر ويلي به. قال ويلي: "سمعت عن خططك بخصوص حفيد أبيض." قال ماركوس: "ليس الأمر استثنائياً. سيكون ذلك تكراراً لما حدث على نطاق واسع هنا قبل مائة وخمسين عاماً. في القرن الثامن عشر كان ثمة ما يربو على نصف مليون إنسان أسود في إنكلترا. جميعهم تلاشوا. لقد ذابوا في السكان المحليين. لقد استُولِدوا. المورث الزنجي مرتدّ. لو كان هذا الأمر معروفاً، لكان هناك شعور عرقي أقل بكثير مما هو عليه الآن. وجلّ ذاك الشعور لا يتعدّى سطح الجلد، إن صحّ التعبير. سوف أخبرك هذه القصة. عندما كنت في إفريقيا تعرّفت إلى امرأة فرنسية من الألزاس. قالت لي بعد حين إنها تريدني أن أقابل أسرتها. ذهبنا إلى أوربا معاً وقصدنا مسقط رأسها. عرّفتني بأصدقاء مدرستها. كانوا أناساً محافظين، فقلقت بشأن ما سيقولون. بعد أسبوعين من مكوثي هناك، نمتُ معهم جميعاً. لا بل لقد نمت مع اثنتين، أو ثلاثٍ، من الأمهات. ولكن صديقتي ظلّت قلقةً."

عندما أتى الشاعر تلقى ثناءً من المحرر، وبعد ذلك جلس، هو و زوجته، باتزان في إحدى زاويا الغرفة الصغيرة.

كانت المرأة الكولومبية أكبر سناً مما توقع ويلي. يمكن أن تكون في نهاية عقدها الأربعيني. إنها نحيلة، شفافة، ويبدو عليها القلق. شعرها

شديد السواد يشي بالصباغ، وبشرتها، بالمقارنة مع شعرها، بيضاء جداً مغطاة بالمساحيق. عندما أتت وجلست بالقرب من ويلي قالت: "هل تحب السيدات؟" عندما تردد ويلي قالت: "ليس جميع الرجال يحبون النساء. أعرف ذلك. بقيتُ عذراء حتى بلغت سنّ السادسة والعشرين. كان زوجي لوطياً. كولومبيا ملأى بالأولاد الصغار الهجّن، الذين يمكنك شراؤهم بدولار." قال ويلي: "ماذا حدث عندما بلغت السادسة والعشرين؟" قالت، "إنني أخبرك قصة حياتي، لكنني لستُ بصدد الاعترافات. بالطبع شيء ما حدث." عندما بدأ روجر وبيرديتا بتوزيع الطعام قالت: "أحب الرجال. أعتقد أن لديهم قوةً كونيةً." قال ويلي: "تعنين طاقة؟" قالت بشيء من الانزعاج: "أعني قوةً كونيةً." نظر ويلي إلى بيتر. كان قد حضّر نفسه للمساء. إنه يرتدي قميصه الأبيض الباهظ ذا الياقة المنتصبة، والمصقولة جيداً، والعالية في الخلف؛ تسريحة شعره نصف العسكرية، الشعر الأشقر والأشيب، أملس عند الجوانب، مع لمسة خفيفة فقط من مرهم عطري ليحافظ على تناسقه؛ غير أن عينيه كانتا غائرتين وشاردتين.

قال روجر وهو يوزّع الصحون: "لماذا تزوجت لوطياً، يا سيرافينا؟" قالت: "كنا أغنياء وبيضاً." قال روجر: "يَصْعُبُ عدّه سبباً." تجاهلت ذلك. قالت: "نحن أغنياء وبيض على مدى أجيال. نتحدث الإسبانية الكلاسيكية. والدي كان ذاك الرجل الأبيض والوسيم. لا بد أنك رأيته. من الصعب علينا أن نتزوج في كولومبيا." قال ويلي: "ألا يوجد هناك أناس بيض آخرون في كولومبيا؟" قالت سيرافينا: "إنها كلمة شائعة بالنسبة لكم هنا. ليست كذلك بالنسبة لنا. نحن بيض وأثرياء في كولومبيا، ونتحدث هذه اللغة الإسبانية الصافية، بل أصفى من تلك

التي يتكلمونها في إسبانيا. من الصعب علينا الحصول على أزواج. العديد من بناتنا تزوجن من أوربيين. أختي الأصغر تزوجت من أرجنتيني. عندما يترتب عليك أن تبحث بعيداً، وبصعوبة عن زوج، لابدّ أن ترتكب أغلاطاً."

صرخ ريتشارد الناشر عبر الغرفة قائلاً: "يمكنني أن أقول إنها غلطة. مغادرةُ كولومبيا والذهاب للعيش على أرض هندية مسروقة."

قالت سيرافينا: "أختي لم تسرق أيَّ أرض."

قال ريتشارد: "كانت مسروقة من أجلها قبل ثمانين عاماً. على يد الجنرال روكا وعصابته. سكة الحديد وبندقية ريمنغتون مقابل حجارة ومقلاع الهنود. هكذا تمّ الاستيلاء على سهول البامبا المعشوشبة، وكل تلك المراعي الذكية المزيفة. إذاً، أختك انتقلت من خطأ قديم إلى لصوصية جديدة. أقول شكراً لله لقدوم إيفا بيرون، وتحطيمها لكل هذا الصرح الفاسد."

سيرافينا قالت لويلي: "هذا الرجل يحاول أن يجعل نفسه ممتعاً أمامي. إنه نموذج شائع في كولومبيا."

قال ماركوس: "لا أظن أن كثيراً من الناس يعرفون أن ثمة عدداً ضخماً من الزنوج كانوا في بوينس آيرس و الأرغواي في عام ١٨٠٠ لكنهم ذابوا في السكان المحليين. لقد استُولدوا. المورث الزنجيّ قابل للنكوص. قليل من الناس يعرفون ذلك."

واستمرّ ريتشارد وماركوس في حديثهما من أقصى الغرفة إلى أقصاها، حيث كان ريتشارد يقف بالمرصاد لكل ما يقوله ماركوس متعمداً أن يكون استفزازياً. سيرافينا قالت لويلي: "إنه من ذاك النوع من الرجال ممن يحاول إغرائي حالما أكون وحيدة معه. هذا مملّ. يظن أنني

أميركية لاتينية وسهلة." ثمّ خلدت للصمت. خلال هذا كله ظلّ بيتر هادئاً. ويلي، الذي لم يعد بحاجة للاصغاء، وينظر بلامبالاة في أنحاء الغرفة، جعل عينيه تستريحان على بيرديتا، وعلى جذعها العلوي الطويل. لم يكن يعتقد بأنها جميلة، لكنه تذكّر الطريقة الأنيقة التي رمت فيها القفازات المخططة على طاولة تشيز فيكتور، وفي ذات الوقت فكرّ بجون وهي تتعرى في الغرفة في نوتينغ هيل. التقطت بيرديتا نظرته وتمسّكت بها. انفعل ويلي بشكل يفوق الوصف.

بدأ روجر وبيرديتا بترحيل الصّحون. ماركوس، بطريقته الحماسية المتوقدة، نهض وبدأ يساعدهما. بعدئذ أتت القهوة والبراندي.

قالت سيرافينا بشرود لويلي: "هل شعرت بالغيرة؟" كانت أفكارها تجرها إلى مسالك لا يعرفها. قال ويلي: "ليس بعد. شعرت فقط بالرغبة." قالت: "اصغِ لهذا. عندما أخذت بيتر إلى كولومبيا هرعت النساء كلهن إليه. هذا الأكاديمي والسيد الإنكليزي بخطّ فكّه المتين. بعد شهر واحد نسي كل ما كنت قد فعلته من أجله، وهرب مع واحدة أخرى. لكنه لم يكن يعرف البلاد وارتكب خطأً فادحاً. خدعته المرأة. كانت خلاسية ولم تكن ثرية على الإطلاق. اكتشف ذلك خلال أسبوع. عاد إليّ وراح يتوسّل لكي أصفح عنه. ركع على الأرض ووضع رأسه في حضني وراح يبكي كالطفل. مسحت على شعره وقلت: "ظننتَ أنها ثرية؟ ظننتَ أنها بيضاء؟" قال: "نعم، نعم." سامحته. ولكن كان يجب أن يُعاقب. ماذا تظنّ؟"

نظّف المحرر حنجرته مرةً، مرتين. كان ذلك بمنزلة دعوته للصمت. سيرافينا، التي أشاحت عن ويلي، وأشاحت ببصرها عن ريتشارد،

جلست مشدودة الجذع وراحت تحدّق إلى المحرر. كان يجلس ضخماً وثقيلاً في الزاوية، فائضاً عن حزام بنطلونه، حيث قميصه مفتوح عند كلّ زرّ.

قال: "لا أعتقد أن أي واحد منكم يفهم ماذا تعني المناسبة في هذا المساء بالنسبة لمحرر ريفي. كل واحد منكم أعطاني بارقة من عالم بعيد كل البعد عن عالمي. أتيتُ من بلدةٍ قديمة مكفنة بالدخان في الشمال الشيطاني الأسود. لا يوجد الكثير من الناس ممن يودون معرفتنا هذه الأيام. لكننا لعبنا دورنا في التاريخ. مصانعنا أنتجت بضائع انتشرت في كل أنحاء العالم، وحيثما ذهبت بضائعنا كانت تساهم في إطلاق العصر الحديث. كنا تماماً على حقّ عندما فكّرنا بأنفسنا كمركز للعالم. غير أن العالم تبدّل الآن، وفقط عندما ألتقي أناساً من أمثالكم أكوّنُ فكرةً حول توجُّه العالم. إذاً، هذه المناسبة ملأى بالمفارقات. جميعكم تعيشون حياة متألقة. سمعت عن بعضٍ منكم من خلال التقارير، وكل شيء سمعته ورأيته هنا الليلة أكّد ما كنت سمعته. أرغب من أعماق قلبي أن أشكركم جميعكم على الحفاوة العظيمة التي أبديتموها تجاه رجل كانت حياته دائماً نقيض التألّق. لكننا نحن الذين نعيش في الزوايا المعتمة، لنا أرواحنا. كانت لدينا طموحات، وكانت لدينا أحلامٌ، لكن الحياة تنصب لنا شراكها القاسية. (ربما في هذه البقعة المهملة يرقد قلب كان يوماً مكتنزاً بالنار الإلهية). لا يمكن أن أطمح بمقارعة الشاعر غراي، لكنني كتبتُ يوماً بطريقتي الخاصة عن قلب مثل هذا. وأودّ الآن، إذا سمحتم لي، وقبل أن نفترق، ربما إلى الأبد، أن أريكم شيئاً مما كتبته."

من جيب سترته الداخلية أخرج المحرر بعض الصفحات المطوية من الأوراق المنضدّة. بتعمّد، وفي الصمت الذي أشاعه، راح يفرد الصفحات دون أن ينظر إلى أحد.

قال: "هذه بروفة منضدّة، أحرف جرائد غير مقطّعة. النسخة نفسها معدّة قبل وقت طويل. كلمة أو اثنتان يمكن استبدالهما هنا أو هناك، عبارة عرجاء أو عبارتان يمكن تقويمهما، ولكن على العموم إنها جاهزة للطباعة. سوف تُطبع في جريدتي في أسبوع وفاتي. لابد أنكم خمنتم بأنها نَعْيَتي. بعض منكم يمكن أن يشهق دهشةً. البعض يمكن أن يتنهّد. لكن الموت يأتي إلى الجميع، ومن الأفضل أن يكون المرء مستعداً. هذه الكلمات كُتبت بعيداً عن روح الخيلاء. تعرفونني جيداً لتدركوا هذا. لكنني بروح الحزن والندم على كل ما فات، أدعوكم الآن للتأمل في مجرى حياةٍ ريفية مغمورة."

وبدأ يقرأ: "هنري بيرسيفال سومرز، الذي أصبح محرراً لهذه الصحيفة خلال الأيام السوداء من تشرين الثاني عام ١٩٤٠ ، والذي أذيع خبر وفاته بشكل أكثر تفصيلاً على صفحة أخرى، ولد لأبٍ كان يعمل مجهّز سفن في ١٧ تموز من عام ١٨٩٥ . .."

مرحلة إثر مرحلة، وبروفة إثر أخرى، ومن عمود ضيق من صفحة مطبوعة إلى آخر، راحت القصة تتوالد: البيت الصغير، الشارع الفقير، الفترات التي كان فيها الأب عاطلاً عن العمل، مصائب العائلة، الصبي الذي ترك المدرسة في سنّ الرابعة عشرة، مشتغلاً في أعمال مكتبية صغيرة في مكاتب مختلفة، الحرب، رفض الجيش له لأسباب طبية، ومن ثمّ في النهاية، وفي السنة الأخيرة من الحرب، العمل في الصحيفة، في قسم الإنتاج "كحامل نسخة"، والذي هو في الحقيقة عمل امرأة، ويعني قراءة النسخة بصوت عالٍ للمنضّد. وبينما كان يقرأ جاشت عواطفه.

بدا الشاعر وزوجته حياديين، ساخرين، وغير مدهوشين. كان بيتر

خلواً من التعبير. سيرافينا ظلت مشدودة الجذع مظهرةً صورتها لريتشارد. ماركوس، القلق ذهنياً، مفكراً بهذا وذاك، بدأ غير مرة بالتحدّث عن أشياء لا علاقة لها، وتوقف فقط لدى سماع صوته. غير أن ويلي كان مسحوراً بقصة المحرر. بالنسبة له كانت جديدةً كل الجدة. لم يكن ثمة الكثير من التفاصيل الملموسة التي يمكن التعلق بها، لكنه كان يحاول، وهو يصغي، أن يرى بلدة المحرر، ويدخل حياته. وجد نفسه، لدهشته، يفكر بوالده، ومن ثم راح يفكر بنفسه. جالساً بالقرب من سيرافينا التي استدارت بعيداً عنه، حيث كانت جافّة ومتمنّعة على الحديث، مال ويلي بجذعه نحو الأمام مركّزاً على المحرر.

المحرر، مدركاً لاهتمام ويلي، بدأ يضعف. بدأ يغصّ ببعض كلماته. نشج مرة أو مرتين. ومن ثمّ وصل إلى المطبوعة الأخيرة. كانت الدموع تنساب على وجهه. بدا كأنه على وشك الانهيار. "... حياته الأكثر عمقاً كانت في العقل. غير أن الصحافة بطبيعتها آنية، وهو لم يخلف أي نصب تذكاري. الحب، ذاك الوهم الإلهي، لم يمسّه أبداً. ولكنه عاش عشقاً رومانسياً مدى الحياة مع اللغة الإنكليزية." خلع نظارتيه العكرتين، أمسك أوراقه المطبوعة في يده اليسرى، وثبّت بصره على بقعة على الأرض على بعد ثلاثة أو أربعة أقدام أمامه. كان ثمة صمتٌ هائلٌ.

قال ماركوس: "إنها قطعة كتابية جميلة جداً."

ظلّ المحررُ على جلسته محدقاً نحو الأسفل، تاركاً الدموع تسيل، وعاد الصمت إلى الغرفة. الحفلة انتهت. عندما تكلم الناس، متبادلين كلمات الوداع، تمّ ذلك همساً، كأنهم في غرفة مريض. الشاعر وزوجته غادرا؛ بدا الأمر كأنهما لم يكونا موجودين البتة. نهضت سيرافينا،

ودَعَت نظرتها تسبح لا مرئيةً على ريتشارد، و أخذت بيتر بعيداً. همس ماركوس: "دعيني أساعدك في التنظيف، بيرديتا." أصيب ويلي بالدهشة لنداء الغيرة لديه. لكن لا ماركوس و لا هو سُمح لهما بالبقاء.

روجر، الذي ودّعهما على باب البيت الصغير، فَقَدَ نظرته القلقة. قال بخبث، دون أن يرفع صوته: "قال لي إنه يريد أن يقابل أصدقائي اللندنيين،. لم تكن لدي أيٌّ فكرة أنه كان يريد مستمعين."

* * *

في اليوم التالي كتب ويلي قصة عن المحرر. تجري القصة في البلدة الهندية، ربع الحقيقية، التي تعوّدَ أن يستخدمها في كتابته، وجعل المحرر يتقمص شخصية الرجل المقدس، الذي كان قد كتب عنه للتو في بعض القصص. حتى تلك اللحظة كان الرجل المقدس يُرى من الخارج: عاطلاً وخبيثاً، يعيش على حساب البائسين، وينتظر في صومعته كالعنكبوت. الآن، وبشكل غير متوقع، أظهر الرجل المقدس بؤسَه: إنه أسير طريقته في الحياة، يتشوق للخروج من صومعته، حيث يخبر قصته لمسافر من بلاد بعيدة، أي أحد العابرين ممن لن يعودوا على الأرجح. كانت القصة تشبه من حيث المزاج القصة التي رواها المحرر. من حيث الجوهر، كانت تشبه القصة التي سمعها ويلي من أبيه قبل عدة سنوات.

القصة، وهي تنمو تحت يديه، باغتت ويلي. أعطته طريقة جديدة في النظر إلى عائلته وحياته، وفي غضون الأيام التالية اكتشف مادة العديد من القصص الجديدة من حيث النوع. بدت القصص كأنها تنتظره،

ودهش لكونه لم يكن يراها من قبل؛ وراح يكتب بإيقاع سريع على مدى ثلاثة أو أربعة أسابيع. بدأت إذاً الكتابة تقوده إلى أشياء صعبة، أشياء لم يكن يستطيع مواجهتها، فتوقف.

كانت نهاية كتابته. لم يأته شيءٌ آخر. الإلهام السينمائي كان قد نضب قبل فترة. وعندما كان هذا الإلهام ممكناً، بدت الأمور سهلة جداً، لدرجة أن ويلي كان يساوره القلق بأن ثمة أناساً آخرين يفعلون الشيء نفسه: يستقون أفكاراً قصصية أو لحظات درامية من (القمم العالية)، و (الحرارة البيضاء)، و (طفولة مكسيم غوركي). الآن، عندما لم يكن يحدث أي شيء من هذا القبيل، تعجّب كيف كان يفعل ما كان يفعله. لقد كتب ما مجموعه ستٌ وعشرون قصة. وبلغ عدد صفحاتها نحو مائة وثمانين، وشعر بخيبة الأمل لأن كل هذه الأفكار، وكل تلك الكتابات، وكل تلك الإثارة، أنتجت هذا العدد القليل من الصفحات.

لكن روجر رأى أنها تشكل حجماً معقولاً لكتاب، واعتقد بأن المجموعة كاملة. قال: "القصة الأخيرة أكثر جوانيةً، لكنني أحب هذا. أحب الطريقة التي نما فيها الكتاب وتوسّع. إنه أكثر غموضاً وأكثر امتلاءً بالمشاعر مما تتصور يا ويلي. إنه جيد جداً. ولكن من فضلك لا تظنّ أنه يعني الشهرة."

وبدأ روجر يرسل الكتاب إلى أناس يعرفهم في مجال النشر. كل أسبوعين أو ثلاثة كان الكتاب يعود من حيث أتى.

قال روجر: "هذا ما كنت أخشاه. القصص القصيرة دائماً صعبة، والهند ليست في الواقع موضوعاً. الناس الوحيدون الذين يقرؤون عن الهند هم أولئك الذين عاشوا أو عملوا هناك، ولن يكونوا مهتمين بالهند

التي كتبتَ عنها. الرجال يريدون جون ماسترز-(منعطف بهواني)، و (أبواق)، و (النمر)- والنساء يردن (نرسيسوس الأسود) لرومر غولدن. لم أكن أريد أن أرسله إلى ريتشارد ولكن يبدو أنه الوحيد الذي تبقّى."

قال ويلي: "لماذا لا تريد أن ترسله إلى ريتشارد؟"

"إنه وغد. لا يستطيع دعم الكتاب. سيجد طريقة لخذلانك. إنه موقفه من العالم. موقفه على الدوام. إنه يحب فعل الشيء المنحرف من أجل التسلية تقريباً. وإذا أنجز الكتاب فسوف يقدمه بطريقته العقائدية، مستخدماً الكتاب لتسويق فكرة ماركسية معينة. سوف يعزز سمعته الماركسية، ولكن هذا لن يساعد الكتاب. لكنّ الحاجة تفرض نفسها عندما يحلّ الشيطان."

وهكذا ذهب الكتاب إلى ريتشارد. وقد أخذه. رسالة على صفحة المؤسسة وصلت إلى ويلي في الكلية، تطلب منه أن يحدد موعداً للمجيء إلى المكتب.

كان المكتب يقع في إحدى ساحات بلومزبري السوداء. إنه بناء لندني نموذجي- ليس له شرفة، وقد شُيّد من الآجرّ الأسود- بدا عادياً لويلي. مع ذلك عندما راح يصعد الدرج الأمامي للبناء، الذي بدا صغيراً، تخيّل ويلي أنه يزداد اتساعاً. على الباب الأمامي رأى أن البناء في الواقع واسع ومتين، وعندما صار في الداخل، رأى أن وراء الواجهة السوداء غرفاً عالية مضاءة جيداً وشاسعة باتجاه الداخل.

في غرفة الاستقبال كانت الفتاة خلف لوحة المفاتيح في حالة ذعر. صوت كان يصرخ في وجهها من الجهاز. أدرك ويلي أن ذاك كان صوت ريتشارد. كان يشتم دون جهد، ما جعل الفتاة النحيلة الذراعين في حالة

هياج. كأنها كانت في بيتها، وليس في مكان عام، وربما ذكّرها الصوتُ بأبٍ عنيف يهدد ويتوعّد. فكّر ويلي بأخته ساروجيني. مرّ وقت ليس بالقليل قبل أن تلحظ الفتاة وجود ويلي، واحتاجت لبعض الوقت لتتمالك نفسها قبل أن تتحدث إليه.

كان مكتب ريتشارد يقع في الغرفة الأمامية في الطابق الأول. إنه غرفة ضخمة عالية فيها حائط من الكتب.

اصطحب ريتشارد ويلي إلى النوافذ العالية وقال: "هذه البيوت كانت لتجار لندن الأغنياء قبل مائة وخمسين عاماً. أحد تلك البيوت يمكن تماما أن يكون بيت أوسبورن في رواية (دار الغرور). الغرفة التي نحن فيها يمكن أن تكون غرفة الجلوس. حتى الآن يمكنك أن تتخيل العربات والحوذيين وبقية المشهد. ما هو صعب أن تتخيله اليوم، وما ينساه معظم الناس، هو أن تاجر لندن الكبير في رواية (ثَكَري)، الذي كان يجلس في غرفة مثل هذه، أراد لابنه أن يتزوج من وريثة زنجية من (سانت كيتس) في الإنديز الغربية. عملت في هذا المبنى لعدة سنوات، لكن لم يخطر في بالي مثل هذا. كان صديقك ماركوس هو الذي ذكّرني بذلك. الرجل الذي يريد أن يفتح حساباً في كوتس. بدا الأمر كأنه نكتة عندما أخبرني عن الوريثة، لكنني تأكّدت من الأمر. ثروة السيدة لابد أنها أتت من العبيد وقصب السكّر. كانت تلك هي الأيام العظيمة لمزارع العبيد في الإنديز الغربية. تخيّل. في وقت مثل ذاك، وريثة زنجية في لندن. وكان الطلب عليها كبيراً. كان يمكن أن تتزوج بكل بساطة، بالطبع، لكن (ثَكَري) لا يخبرنا. وبما أن المورّث الزنجي ارتدادي، في غضون جيلين أو أكثر كان يمكن لأحفادها أن يصبحوا تماماً من الإنكليز

ومن الطبقة العليا. نحتاج إلى رجل أسود استوطن حديثاً من إفريقيا الغربية لكي يقدم هذه القراءة التقويمية لإحدى روائعنا الكلاسيكية من العصر الفكتوري."

تركا النافذة وذهبا ليجلسا أحدهما قبالة الآخر على المكتب الكبير. بدا ريتشارد وهو جالس أكثر ضخامة وأثقل وزناً وأكثر خشونة مما يتذكره ويلي.

قال ريتشارد: "ذات يوم يمكن أن تقدم لنا قراءة جديدة لرواية (مرتفعات وذرينغ). كان هيثكليف طفلاً نصف هندي عُثِر عليه بالقرب من أحواض ليفربول. لكنك تعرف ذلك." تناول بعضاً من الأوراق المنضدة. "هذا هو عقدُ كتابك."

أخرج ويلي قلمه.

قال ريتشارد: "ألا تريد أن تقرأه؟"

ارتبك ويلي. لقد أراد أن ينظر إلى العقد، لكنه لم يشعر بأنه يمكن أن يقول لريتشارد ذلك. أن يقرأ العقد في حضور ريتشارد يمكن أن يعني التشكيك بنزاهة ريتشارد، و تلك قلة أدب لم يكن ويلي مستعداً للقيام بها.

قال ريتشارد: "إنه عقدنا الذي يسري تقريباً على الجميع. سبعة ونصف بالمائة للمبيعات في البلاد، ثلاثة ونصف بالمائة للمبيعات في الخارج. سوف نتدبّر الحقوق الأخرى التي تخصّك. نحن نفترض بالطبع أنك تريد ذلك. إذا بعناه في أمريكا سوف تحصل على خمسة وستين بالمائة. سوف تحصل على ستين بالمائة للترجمة، خمسين بالمائة إذا بعناه للأفلام، أربعين بالمائة للطبعة المغلفة ورقياً. يمكن أن تشعر في الوقت الحالي أن هذه الحقوق لا تعني شيئاً. لكن يجب عدم التغاضي عنها.

سوف ننجز العمل الأصعب نيابة عنك. هذا ما نحن مدربون للقيام به. سوف تنتظر وتنقّب بكل ما سيحدث لاحقاً."

كانت ثمة نسختان من العقد تنتظران توقيع ويلي. عندما باشر بتوقيع النسخة الثانية أخرج ريتشارد ظرفاً من درج مكتبه ووضعه أمامه.

قال ريتشارد: "هذه هي السلفة. خمسون جنيهاً على شكل خمس أوراق نقدية جديدة. هل سبق أن كسبت أكثر من ذلك دفعةً واحدة؟"

لم يكن ويلي قد كسب هذا المبلغ. أضخم أجر تلقاه من الإذاعة كان ثلاثة عشر جنيهاً، لقاء نصّ طوله خمس عشرة دقيقة، حول رواية (أوليفر تويست)، لمصلحة برنامج خدمة الفونوغراف المدرسية تحت إشراف (بي بي سي).

عندما نزل كانت الفتاة خلف لوحة المفاتيح أكثر هدوءاً. غير أن شقاء حياتها- محاصرة بين مكتب مضنٍ وبيت مضنٍ- بدا على وجهها. فكر ويلي، بطريقة أكثر يأساً وعجزاً من ذي قبل، بأخته ساروجيني في الوطن.

أراد روجر أن يرى العقد. كان ويلي غير مرتاح لذلك. سيجد الأمر صعباً أن يشرح لروجر لماذا وقّع. صار روجر جدياً وأقرب إلى شخصية المحامي وهو يتملّى العقد، وفي النهاية قال، بعد تردد خفيف: "أظن أن الشيء الرئيس هو أن تنشر الكتاب. ماذا قال عن الكتاب؟ في العادة هو ذكي جداً حول هذه الأمور."

قال ويلي: "لم يقل شيئاً عن الكتاب. تحدّث عن ماركوس و (دار الغرور).

بعد أربعة أو خمسة أسابيع كان ثمة حفلة في بيت ريتشارد في تشيلسي. ذهب ويلي باكراً. لم ير أحداً يعرفه، وتورّط مع رجل قصير بدين، صغير السنّ، -بنظارات وشعر غير مسرّح وسترة صغيرة جداً مع حمّالات وسخة- بدا كأنه يعيش على وحي فكرة بوهيمية عتيقة عن الكاتب. كان مختصاً بالتحليل النفسي وألّف كتاباً يدعى (الحيوان فيكَ- وفيّ). كانت توجد بعض النسخ منه، لكن لا أحد كان يعيرها انتباهاً. استحوذ الرجل على انتباه ويلي- كلٌ كان يستخدم الآخر غطاءً للهرب من الغرفة الحيادية- لدرجة أنه لم ير روجر قادماً. وحالما رأى روجر رأى سيرافينا. كانت مع ريتشارد. إنها ترتدي فستاناً قرمزياً على شكل زهرة، مشدودة القامة وأنيقة، ولكن ليست بذات القسوة التي أبدتها خلال عشاء روجر. ترك ويلي المحلل النفساني واتجه إليها. كانت مطواعة وحميمة معه، وجذابة تماماً في مزاجها الجديد. غير أن كلّ أفكارها كانت لريتشارد. كانا يتحدثان- بطريقة غير مباشرة وبشكل متقطّع- عن مشروع عمل جريء كانا يقومان به معاً: الذهاب أولاً إلى مصلحة صناعة الورق في جوجوي شمال الأرجنتين، ولاحقاً طباعة الكتب المغلفة ورقياً بشكل أرخص مما هو عليه الحال في أوربا والولايات المتحدة. من الممكن الآن أن تصنع ورقاً من نوعية جيدة من تِفلِ قصب السكر. تِفلُ القصب هو اللبّ الخيطي الذي يتبقى بعد طحن قصبة السكر من أجل صناعة السكر. سيرافينا تملك مئات الأمتار المربعة من قصب السكر في جوجوي. تفل قصب السكر في جوجوي لا يكلف شيئاً؛ إنه زبالة، وقصب السكر ينمو خلال أقل من عام.

رجال متأنقون ونسوة متأنقات بعناية، يستخدمون كلمات

وابتسامات ليقولوا القليل، تحلقوا حول هذا الحديث- قليلاً للتظاهر- والنقاش عن تفل قصب السكر.

فكّر ويلي: "في ذلك المكتب الكبير كان ريتشارد حقيقياً. والفتاة كانت حقيقية. هنا في هذا المنزل الصغير، وفي هذه الحفلة، ريتشارد يمثّل. الجميع يمثّلون."

فيما بعد تحدث روجر وويلي عن الحفلة وعن سيرافينا.

قال روجر: "سوف يأخذ ريتشارد بضع مئات من الآلاف منها. إنها موهبته للإتيان بكل تلك المشروعات المغرية. الشيء الغريب هو أنه إذا التزم أحدنا حقيقةً، فإن العديد من مشروعات ريتشارد يمكن أن تجني نقوداً. هو نفسه غير مهتم بمتابعة أي شيء. ليس لديه الصبر. إنه يحبّ الإثارة في الفكرة، المصيدة، والنقود السريعة. ومن ثمّ يتابع سيره. سيرافينا مستثارة سلفاً. إذاً، بشكل أو بآخر لا يهمّ إذا لم تسترجع نقودها. ستكون قد عاشت متعتها الخاصة. وهي لم تكسب نقودها. لقد كُسبت من أجلها منذ وقت طويل. هذا ما سيقوله ريتشارد لها عندما تشتكي. هذا إذا اشتكت."

قال ويلي مستخدماً كلمة التقطها في الكلية: "ثمة الكثير من الناس الراقين هناك."

قال روجر: "جميعهم ألفوا كتباً. هذه هي النقيصة الأخيرة للأقوياء وذوي المنشأ الرفيع. هم في الواقع لا يريدون أن يكتبوا، لكنهم يريدون أن يكونوا كُتّاباً. يريدون اسمهم على غلاف كتاب. ريتشارد، بالإضافة إلى كل شيء آخر، هو ناشر الطبقات الرفيعة جداً والمغرورة. الناس يدفعون لناشر المغرورين لكي ينشروا كتبهم. ريتشارد لا يقوم بأي شيء

فجّ. إنه دقيق جداً، وانتقائي جداً، بخصوص نشره لأولئك الناس، لدرجة أن أحداً لا يدرك حقيقة ذلك. ولديه العدد الكافي من الأثرياء وأصحاب المراكز ممن يشعرون بالامتنان له. بشكل ما إنه قوي مثل وزير حكومة. يأتون ويذهبون، لكنّ ريتشارد يستمرّ. إنه يتقدم في المجتمع على كل الجهات."

لأسابيع عدّة ظل ويلي يروح ويجيء إلى منزل روجر في ماربل آرتش، آخذاً النصيحة خلال تحضيره للمخطوطة، ومناقشاً من ثمّ رسائل الرفض. كانت بيرديتا غالباً هناك. ازداد عبق أناقتها على ويلي، ولبعض الوقت، وأثناء الأحاديث الكثيرة عن الكتاب والناشرين، شعر ويلي بالحرج أمام روجر، لكنه لم يكن يمتلك الشجاعة. الآن وقد ضمن الكتاب، وحصل على خمسين جنيهاً، ظنّ أنه من العيب أن يتأخّر أكثر. فكّر أن يذهب إلى مكتب روجر، من أجل الرسميات، ويقول: "روجر، لدي شيء أخبرك به. بيرديتا وأنا نحب بعضنا بعضاً."

لكنه لم يذهب أبداً إلى مكتب روجر. لأنه خلال نهاية الأسبوع ذاك اندلعت اضطرابات عرقية في نوتينغ هيل. بدأت الشوارع الصامتة- بحاويات الفضلات المعروضة، التي توسّخ أرقام المنازل والغرف، وبالنوافذ المسدلة بإحكام، الموصدة والخالية- تمتلئ بالناس المتوترين. البيوت التي بدت مستأجرة من قبل العجائز والحياديين أطلقت عدداً لا يحصى من الشبان بثيابهم الإدواردية الساخرة، يجوبون الشوارع بحثاً عن السود. هندي غربي يدعى كيلسو، ودون أن يكون لديه أي فكرة عما يحدث، حيث كان يزور أصدقاء له، التقى حشداً من المراهقين خارج محطة الأنفاق في طريق لاتيمر ولقي حتفه.

الصحف والإذاعات كانت تغصّ بأخبار الاضطرابات. في اليوم الأول الذي ذهب فيه ويلي إلى الكافيتريا الصغيرة قرب الكلية لتناول قهوة منتصف الصباح، بدا له أن الجميع كانوا يطالعون الصحف. كانت سوداء بصور فوتوغرافية وعناوين رئيسة. سمع مستخدماً طاعناً في السنّ، تعلو سحنته سنوات من الحرمان، يقول بعفوية تامة كما لو كان في بيته: "هؤلاء السود يشكّلون خطراً." كانت ملاحظة عابرة، لا تعكس إطلاقاً ما كان في الصحف، وشعر ويلي في الحال أنه مهدّد ومخذول. شعر بأن الناس ينظرون إليه. وأحسّ بأن الصحف تتحدث عنه. بعد ذلك ظلّ في الكلية ولم يغادرها. هذا النوع من التواري لم يكن جديداً عليه. هذا ما تعوّدوا القيام به في الوطن، عندما كانت تندلع فتنٌ دينية أو طبقية خطيرةٌ.

في اليوم الثالث للقلاقل وصلته برقية من منتج الإذاعة الذي يعرفه. كانت تطلب منه الاتصال.

قال المنتج: "ويلي. هذا شيء يجب أن نفعله حالاً. الناس في كل أنحاء العالم ينتظرون ما إذا كنا سننجز هذه القصة أم لا، وكيف سننجزها. فكرتي هي كالآتي: ويلي. سوف تذهب بثيابك العادية إلى (لادبروك غروف) أو طريق (سانت آنز ويل) أو طريق (لاتيمر) عند محطة الأنفاق. طريق لاتيمر ستكون أفضل. هناك المركز الرئيس للقلاقل. موقفك سيكون موقف رجل من الهند جاء ليلقي نظرة على نوتينغ هيل. تريد أن ترى ما وجده كيلسو. إذن تذهب للبحث عن الحشود. أنت رجل تبحث عن المشكلات قليلاً، رجل يريد أن يُضرَب. إلى حدّ معين بالطبع. هذا كل ما في الأمر. انظر فيما سيرشح. نصّ الخمس دقائق المعتاد."

"ما المكافأة؟"

"خمسة جنيهات."

"هذا ما تدفعونه عادةً. هذا ليس معرضاً فنياً أو عرض أزياء."

"لدينا ميزانية يا ويلي.. أنت تعرف ذلك."

قال ويلي: "لدي امتحانات. إنني أراجع دروسي. ليس لدي الوقت."

رسالة أتت من روجر:

عزيزي ويلي، في حياة المدن الكبيرة دائماً.. ثمة لحظات من الجنون. أشياء أخرى لا تتبدل. عليك أن تعرف أننا دائماً، بيرديتا وأنا، هنا من أجلك.

فكّر ويلي: "إنه رجل طيب. ربما هو الوحيد الذي أعرف. غريزةٌ ما جعلتني أتعقبه بعدما أجرى تلك الحلقة الإذاعية حول كونه محامياً للمساعدات القانونية. أنا سعيد أنني لم أذهب إلى مكتبه وأخبره بشأن بيرديتا."

متوارياً في الكلية، أتيحت لويلي الآن الفرصة لرؤية بيرسي كاتو أكثر مما استطاعه في الشهور القليلة الماضية. كانا لا يزالان صديقين لكن اهتماماتهما المختلفة جعلتهما يفترقان. ويلي يعرف أكثر عن لندن الآن وليس بحاجة إلى بيرسي كدليل أو سند. تلك الحفلات البوهيمية مع بيرسي وجون وآخرين- وأيضاً مع بعض الضائعين والمختلين والكحوليين، ومن هم حقيقةً بوهيميون- هذه الحفلات في شقق نوتينغ هيل المغبرّة لم تعد تبدو مدنية ومذهلة.

كان بيرسي، كعادته، أنيق الملبس. لكن وجهه تغيّر، كأنه فقد بعضاً من حيويته.

قال: "سوف يفقد الرجل العجوز مزرعته بسبب ما حدث. الأوراق لن تسمح له بالذهاب الآن. لكنه يحاول أن يصطحبني معه. يمكن أن يكون مؤذياً جداً. لم يسبق أن سامحني عندما أدير ظهري له. منذ فترة والصحافة تنقّب عن أشياء حول ممتلكات وخطط التطوير، التي تبنّاها الرجل العجوز، في نوتينغ هيل، وأحدهم يحاول أن يشيع قصةً بأنني كنت، كرجل أسود، ذراعه اليمنى. كلّ يوم أفتح الصحف في الغرفة العمومية وأتوقع أن أجد اسمي. لن تحبّ الكلية هذا. وربما طلبوا مني أن أغادر. ولن أدري أين سأذهب، يا ويلي."

رسالة وصلت إلى ويلي من الهند. المغلفات من الوطن لها نوعية خاصة. إنها من الورق المحلي المكرر صناعياً، الذي يوحي بالرّمم التي صنع منها، وكان يمكن أن تُجمّع معاً في السوق، في الغرف الخلفية لمخازن الورق، من قبل أولاد فقراء يجلسون على الأرض، بعضهم يستخدم قّطاعات كبيرة (ليست بعيدة عن أصابع أقدامهم)، وبعضهم يستخدم الفرشاة المصمّغة. يستطيع ويلي بسهولة أن يتخيّل نفسه هناك، بلا أمل. لهذا السبب كان منظر هذه الرسائل القادمة من الوطن مسبباً للكآبة للوهلة الأولى، وكان الاكتئاب يستمرّ، مع نسيان أسبابه، بعدما ينتهي من قراءة الرسالة.

إنه خطّ والده على غلاف الظرف. فكّر ويلي، بينما كان يشعر بحنان غضّ تجاه والده: "الرجل المسكين سمع بالقلاقل، وهو قلق. يعتقد أنها تشبه الاضطرابات في الوطن."

وراح يقرأ: عزيزي ويلي، آمل أن تجدكَ الرسالة مثلما غادرتني. غالباً لا أكتب لأنه ليس لدي أخبار في العادة، على الأقل ذاك النوع من

الأخبار التي أشعر أنه يجب أن أكتب لك عنها. أكتب الآن بسبب أخبار عن أختك ساروجيني. لا أعلم كيف ستكون ردة فعلك. تعلم أن الناس من كل حدب وصوب يأتون إلى المعبد. حسنٌ. ذات يوم أتى ألماني. كان رجلاً كهلاً بساق معطوبة. حسنٌ، ومن أجل أن أختصر في الحديث، طلب أن يتزوج ساروجيني، وهذا بالضبط ما فعله. أنت تعرف أنني دائماً شعرت بأن أمل ساروجيني الوحيد يكمن في زواج دولي، ولكن يجب أن أقول إن الأمر فاجأني. أنا متأكد من أن لديه زوجة في مكان ما، ولكن ربما ليس جيداً أن تسأل كثيراً. إنه مصور فوتوغرافي، ويتحدث عن قتاله في برلين في نهاية الحرب، فاتحاً نار بندقيته الآلية على الدبابات الروسية، بينما كان صديقه قد رمى بندقيته جانباً، وانبطح على الأرض، يصطكّ رعباً. في تلك الأيام كان ينجز الأفلام عن الثورات، وبتلك الطريقة يكسب عيشه. إنه أمر غريب، ولكن في تلك الأيام الجميع كانوا يجدون طريقة لتدبر أمورهم- فكر ويلي، "يمكنك أن تقول ذلك ثانية"- وبالطبع ستقول أنا آخر شخص يحق له الحديث. هما سينجزان فيلماً عن كوبا. إنها المكان الذي يصنعون فيه السجائر. إنهما سيكونان مع رجل اسمه غوان، غوفيا أو غوفارا، ومن ثم سيذهبان إلى أماكن أخرى. أمك سعيدة تماماً لذهاب البنت من بين يديها، لكن لن يدهشك أنها تتظاهر بعكس ذلك. لا أعلم كيف سينتهي هذا الشيء، أو كيف سينعكس على المسكينة ساروجيني . حسنٌ. هذه هي كل الأخبار في الوقت الحالي.

فكّر ويلي: "إنه شيء تعلمته منذ أن وصلت إلى هنا. كل الأشياء تتجه نحو الميلان. العالم يجب أن يتوقف، لكنه يستمرّ."

٣
ترجمة ثانية

خطر لويلي ذات يوم أنه لم ير بيرسي كاتو في الكلية منذ بعض الوقت. عندما تقصّى أخباره سمع بأن بيرسي حزم حقائبه وغادر الكلية دون أن يخبر أحداً. لا أحد كان قادراً أن يقول أين هو بيرسي، غير أن قصة تقول إنه غادر لندن، وعاد أدراجه إلى باناما. شعر ويلي باليأس لسماعه هذه الأخبار. بدا الأمر- لاسيما بعد الاضطرابات في نوتينغ هيل- كأن الجزء المبكّر من حياته في لندن قد ضاع الآن. كان بيرسي قد قال إنه قلق بشأن ظهور اسمه في الصحف. ولكن على الرغم من أن الصحف كتبت كثيراً وعلى مدى أسابيع عن مبتزّي العقارات في نوتينغ هيل، لكنها لا يبدو أنها تعلم شيئاً عن بيرسي؛ وشعر ويلي بأن بيرسي قرر أن يغادر لندن، لأنه بحسب طريقته الحكيمة المعتادة انتابه هاجس بأن أمراً أكثر خطراً سيقع. شعر ويلي بأنه تُرك في الخلف، مكشوفاً. ذهبت النكهة من حياته اللندنية وبدأ يتساءل، مثلما فعل منذ البداية، إلى أين هو ذاهب.

أخته ساروجيني كتبت من ألمانيا. لم يكن ويلي يريد أن يفتح الظرف. تذكّر، بشيء من الخجل، كم كان الأمر مثيراً في الوطن، في

المعبد أو في المدرسة التبشيرية، أن يرى طابعاً بريدياً ألمانياً، أو أجنبياً على غلاف رسالة. تصميم الطابع كان سيجعله يحلم بالبلد، ويدفعه للتفكير بأن مرسل الرسالة شخص مبارك.

عزيزي ويلي، أتساءل عمّا إذا كنت تعرف القلق الذي تسببه لنا. أنت لا تكتب، و ليست لدينا أيُّ فكرة عما تفعله. هل يمكن أن تحصل على شهادة في الكلية التي تدرس بها، وهل ستمنحك تلك الشهادة عملاً؟ أمامك مثالُ والدك، وإذا لم تكن حذراً، فستصبح عاطلاً مثله. أشياء مثل هذه تحدث في العائلات.

فكّر ويلي: "تعوّدت أن أشعر بالقلق تجاه هذه الفتاة. لم أكن أعتقد أن أمامها أيّ فرصة، وكنت مستعداً لأي شيء لمساعدتها في أن تصبح امرأة سعيدة. لكن يمرّ هذا الرجل الألماني البارد، والصغيرة البشعة ساروجيني تتغيّر. تصبح المرأة المتزوجة الكاملة، وكأن تلك المرأة كانت هناك طوال الوقت. لقد أصبحت تماماً مثل أمي. أشعر بأن كلّ مخاوفي ومحبتي ذهبت أدراج الرياح. لست متأكداً من أنني أحبّ هذه الساروجيني."

أنا وولف على وشك الذهاب إلى كوبا وأماكن أخرى. لقد كلّمني وولف كثيراً عن الأفكار الثورية. إنه مثل عمّ أمي، لكن بالطبع أتيحت له فرص أكثر، وهو أفضل ثقافةً، وبالطبع رأى جلّ العالم أكثر من العمّ المسكين. أتمنى أن تركز على هذا الجانب من العائلة، وعندئذ سترى كم من الأشياء يمكن أن تقوم بها في عالمنا، وكيف أنك تهدر حياتك بأنانية في لندن وأنت تعمل هذا الشيء البسيط أو ذاك دون أن تعرف لماذا تقوم بأي شيء. أنا و وولف في ألمانيا لبضعة أسابيع. لدى وولف أهل الأفلام، وأناس من الحكومة يريد رؤيتهم هناك. عندما تستقر الأمور سوف آتي إلى لندن لبضعة أيام لرؤيتك.

فكر ويلي: "من فضلك لا تأتي، يا ساروجيني. من فضلك لا تأتي."

ولكنها في الوقت المقرر أتت، لتمكث ثلاثة أو أربعة أيام، وتقلب حياته رأساً على عقب. مكثت في فندق صغير قرب الكلية- كانت قد رتبت ذلك بنفسها قبل أن تغادر ألمانيا- وكانت تأتي كل يوم إلى غرفة ويلي في الكلية، وتحضّر وجبة صغيرة سريعة. لم تطلب منه أن يساعدها في شيء. اشترت قدوراً وصحوناً جديدة رخيصة وشوكاً وسكاكين، ووجدت محلات السمانة، وراحت تأتي كل يوم بخضراوات طازجة، وتطبخها على مسخّن كهربائي في غرفة ويلي. أجلست المسخّن على ظهره، ووضعت الوعاء على قضبانه الحديدية، فوق الأسلاك الكهربائية المشعّة. تناولا الطعام في صحون ورقية، وغسلت القدور في المغسلة الكائنة في نهاية الردهة. لم تكن ساروجيني أبداً طاهية جيدة، والطعام الذي طهته في غرفة الكلية كان مرعباً. بقيت الرائحة في الغرفة. وخشي ويلي بشأن تجاوز قواعد الكلية، وكان أيضاً قلقاً بالمقدار نفسه بشأن رؤية الناس للطاهية السوداء الصغيرة الحجم- المتبرّجة بشكل عشوائي: سترة من صوف محبوك فوق فستان الساري وجوارب في قدميها- التي هي أخته.بطريقتها الواثقة الجديدة، مع أنها لا تزال لا تعرف الكثير عن أي شيء، كانت في خمس دقائق تفشي جميع قصص ويلي الصغيرة حول عائلتهم وخلفيتهم.

قالت: "عندما تحصل على هذا الدبلوم أو الدرجة، ما الذي ستفعله بها؟ سوف تحصل على عمل صغير في سلك التعليم وتختبئ هنا طول حياتك؟"

قال ويلي: "لا أعتقد أنك تعرفين. لكنني ألفت كتاباً. سوف يصدر السنة القادمة."

"هذا هراء كبير. لا أحد هنا أو في أي مكان آخر يريد أن يقرأ كتاباً لك. لست بحاجة لأن أخبرك هذا. هل تتذكّر عندما أردتَ أن تصبح تبشيرياً؟"

"ما أعنيه هو أنني أشعر بأنه يجب أن أنتظر هنا حتى يصدر الكتاب."

"بعدئذ سيكون هناك شيء آخر تنتظره، وسيكون هناك شيء آخر بعده، وهكذا دواليك. هذه هي حياة أبيك."

بعد عدة أيام من مغادرتها، ظلت رائحة طبخها في غرفة ويلي. في الليل كان ويلي يشمّها على وسادته، وشعره، وذراعيه.

فكّرَ: "ما تقوله صحيح، على الرغم من أنني لا أحبها لأنها تقول ذلك. أنا لا اعرف إلى أين أنا ذاهب. أنا فقط أدع الأيام تمرّ. لا أحب المكان الذي ينتظرني في الوطن. خلال السنتين والنصف المنصرمة عشت كرجل حرّ. لا أستطيع العودة إلى الشيء الآخر. لا أحب فكرة الزواج من إحداهن مثل ساروجيني، وهذا ما سيحدث إذا عدت إلى الوطن. إذا عدت إلى الوطن فسأخوض المعارك التي خاضها عمّ أمي. لا أريد أن أخوض تلك المعارك. سيكون ذلك هدراً لحياتي الثمينة. ثمة آخرون ممن يستمتعون بهذه المعارك. وساروجيني على حق بخصوص الطريقة الأخرى أيضاً. إذا حصلت على دبلوم التعليم، وقررت أن أبقى هنا لأمارسه، فسيكون ذلك بمنزلة الاختباء. ولن يكون أمراً حلواً أن أدرّسَ في مكان مثل نوتينغ هيل. هذا هو نوع المكان الذي سيرسلونني إليه، وسوف أمشي مطارداً بالخوف خشية أن أصطدم بحشد ما، وأُطعَن بالسكين مثل كيلسو. سيكون الأمر أسوأ مما لو كنت في الوطن. و إذا بقيت هنا فسوف أظلّ أحاول النوم مع صديقات أصدقائي. وقد اكتشفت أن ذلك

شيء من السهل القيام به تماماً. ولكنني أعلم أن ذلك خطأ، وسوف يوقعني في مشكلة ذات يوم. المشكلة هي أنني لا أعرف كيف أخرج وأتعرف إلى فتاة بنفسي. ما من أحد دربني على ذلك. لا أعرف كيف أتجاهلُ مرورَ غريبٍ عندما ألمس فتاة، أو أمسك يدها، أو أحاول أن أقبّلها. عندما روى لي أبي قصة حياته وتحدث عن قصوره الجنسي، سخرتُ منه. كنت طفلاً وقتئذٍ. الآن أكتشف أنني مثل أبي. جميع الرجال يجب أن يدربوا أبناءهم على فن الإغواء. ولكن في ثقافتنا لا توجد غواية. زيجاتنا تُدبّر تدبيراً. لا يوجد فن للجنس. بعض الأولاد هنا يكلمونني عن كاما سوترا. لا أحد يتكلم عن هذا في الوطن. إنه نصّ طبقة عليا، لكنني لا أعتقد أن والدي المسكين، بالرغم من أنه براهميّ، رأى نسخةً منه في حياته. تلك الطريقة الفلسفية العملية في التعامل مع الجنس تنتمي إلى الماضي، وذاك العالم خرّبه ودمره المسلمون. الآن نعيش مثل حيوانات سفاحية صغيرة في وكر. نتلمّس طريقنا إلى كل علاقتنا النسوية ودائماً ملاحقين بالعار. لا أحد يتكلم عن الجنس أو الإغواء في الوطن، لكنني أكتشف الآن أنه المهارة الأساسية التي يجب أن يكون كل الرجال مدربين عليها. ماركوس وبيرسي كاتو، وريتشارد يبدون رائعين بتلك الطريقة. عندما سألت بيرسي كيف كان قد تعلم قال إنه بدأ في سن صغيرة، يدغدغ ومن ثمّ يغتصب الفتيات الصغيرات. صُدِمتُ لدى سماعي ذاك. لستُ مصدوماً كثيراً الآن."

هاتَفَ بيرديتا باكراً ذات صباح: "بيرديتا. من فضلك تعالي إلى الكلية في نهاية عطلة الأسبوع هذه. "

"هذا حمق يا ويلي. كما أنه ليس فيه أي إنصاف لروجر."

"ليس من إنصاف. لكنني أحتاج إليكِ. كنتُ رديئاً المرة الماضية. لكنني سأخبركِ. إنها قضية ثقافية. أريد أن أنام معك، أريد يائساً أن أنام معك، ولكن في اللحظة الحقيقية تهيمن الأفكار القديمة وأصبح مذعوراً وخجولاً، لا أعلم من ماذا، وتسير الأمور بشكل سيئ. سأكون أفضل هذه المرة. دعيني أحاول."

"أوه، ويلي. لقد قلت هذا من قبل."

لم تأت.

ذهب يبحث عن جون. لم يكن قد رآها منذ عدة أشهر. تساءل ماذا يمكن أن يكون قد حدث للمنزل في نوتينغ هيل، وهل يمكنهما بعد الاضطرابات الذهاب إلى هناك. لكن جون لم تكن وراء طاولة العطورات في ديبنهامس. الفتيات الأخريات، بوجوههنّ المتبرّجة كثيراً، لم يكّن ودودات. واحدة أو اثنتان منهنّ انكمشتا خوفاً منه: ربما بسبب الطريقة المصمّمة، عالية الكعب، التي مشى بها باتجاههن. أخيراً التقى فتاةً أعطته أخباراً عن جون. جون تزوجت. وقد تزوجت حبيبَ طفولتها، شخصاً عرفته منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها. الفتاة التي كانت تخبر ويلي بالقصة ما زالت ممتلئة برومانس العلاقة كلها، وفي عينيها ألق صادق ينبعث من تحت الرموش الاصطناعية والكحل وخطوط الحاجبين المرسومة. "ذهبا إلى كل مكان معاً. كانا مثل أخ وأخت. بالرغم من أن زوجها مرتبط بعمل مضحك. حانوتي: يجهّز الموتى للدفن. شغل العائلة. لكنكَ إذا ترعرعت في كنفه، فالأمر مختلف، تقول جون. هو وجون أحياناً يرتبان الجنازات معاً. أحضرا سيارة رولز رويس عتيقة إلى العرس. كانت عائلتها قد استأجرتها

بخمسة وعشرين جنيهاً. كثير من النقود، لكن الأمر يستحقّ. رأت جون السيارة الجميلة في الصباح. كان يقودها الشخص المحلي الذي قام بتأجيرها. طرحة مزينة وكل شيء. قالت لوالدها: "لم تستأجرها، أليس كذلك؟" قال لا، ربما كانت ذاهبة إلى تظاهرة للسيارات العتيقة. ولكن بالطبع كانت السيارة هناك. مثل أخ وأخت كانا. ليس ذاك النوع من الأشياء التي تحدث هذه الأيام."

وكلما استفاضت الفتاة في الحديث، أعطت ويلي صوراً عن الحياة الآمنة في كريكلود، حياة العائلة والأصدقاء، المتع والإثارة، ومن ثمَّ شعرَ بالضياع والنبذ. لو أن ويلي تعلّم الشرب- وكان قد تعلم الأسلوب المرتبط بالشرب- لكان في مقدوره أن يذهب إلى الحانة. فكرّ عوضاً عن ذلك بالعثور على عاهرة.

ذهب متأخراً جداً في ذلك المساء إلى بيكاديللي سيركس. تجول في الشوارع الجانبية، لكنه كان لا يتجرأ على النظر إلى المشاة العدوانيين، الخطرين في الهيئة إلا قليلاً. مشى حتى تعب. نحو منتصف الليل ذهب إلى كافيتريا مضيئة. كانت تعجّ بالعاهرات. كن قاسيات، غبيات الملامح، ولسن جذّابات، معظمهن يشربن الشاي ويدخنّ، وبعضهن يأكل لفائف جبن بيضاء ناعمة. كن يتحدثن بلكنات صعبة. فتاة قالت للأخرى: "تبقّت لديَّ خمس." كانت تتحدث عن رسائل فرنسية. أخرجتها من حقيبتها وأحصتها. خرج ويلي وراح يسير من جديد. كانت الشوارع أهدأ. في شارع جانبي رأى فتاة تتحدث إلى رجل بطريقة وديّة. بدافع الفضول مشى باتجاههما. فجأةً رجل غاضب صرخ: "بحق الجحيم ما الذي تظنين أنك تفعلينه؟" وعَبَر الطريق. لم يكن يصرخ على ويلي بل

على الفتاة. تركت الرجل الذي كانت تتحدث إليه. ثمة آثار غبار على شعرها، وجبهتها وأهدابها. قالت للرجل الأصلع الذي كان يصرخ: "أعرفه. كان في (RAF) عندما كنت في (WAAF) "لاحقاً، وتحت رغبة أن لا يكون كلياً مهزوماً، تحدث ويلي إلى امرأة. لم يعاين وجهها. فقط لحق بها. كان الأمر شنيعاً بالنسبة له، في الغرفة الصغيرة المسخّنة جداً بين روائح العطر والبول، وربما ما هو أسوأ. لم ينظر إلى المرأة. لم يتحدثا. ركّز على نفسه، على خلع ملابسه، وعلى طاقاته. تعرّت المرأة جزئياً فقط. قالت لويلي بلكنة خشنة: "يمكنك أن تظلّ لابساً جواربك." كلمات غريبة، سُمعت مراراً من قبل، ولكن أبداً ليس بذاك المعنى الحرفي. قالت: "كن حذراً تجاه شَعري." انتصابٌ أتى إلى ويلي، انتصابٌ دون حسّ، وبلا متعة، ولم يتلاشَ. شعر ويلي بالخجل. تذكّر بعض الكلمات من كتاب بليكان القديم حول الجنس، كلمات سخرت منه يوماً. فكّر: "ربما أصبحت رياضياً جنسياً." في تلك اللحظة قالت له المرأة: "مارس الجنس مثل رجل انكليزي." وبعد بضع ثوانٍ رمته جانباً. لم يكن يريد أن يجادل. ارتدى ثيابه وذهب إلى الكلية. كان مملوءاً بالعار.

بعد بضعة أيام، وبينما كان يستقل باصاً بالقرب من محطة فيكتوريا، وهي مسار الباصات إلى الضواحي، رأى في وضح النهار العاهرة التي كان قد أعطاها نصف راتبه الأسبوعي. كانت قصيرة بدينة، واضحة، وغير متميزة بلا مكياجِ الليل وعلامات الرذيلة، امرأة أتت بوضوح من الضواحي من أجل بضعة ليالٍ تمضيها في لندن، وهي الآن عائدة إلى بيتها.

فكّرَ ويلي: "إهانة مثل هذه تنتظرني هنا. يجب أن ألحق ببيرسي. يجب أن أغادر."

لم يكن يعرف إلى أين سيذهب. بيرسي- بانطلاقة أدنى في العالم، ومن أب غادر جامايكا ليلتحق بالعصابات السوداء التي بلا ملامح في قناة بانـامـا- يتـفـوق عليـه في تلك النقطة. يمكن لبـيرسي أن يذهب إلى جامايكا أو بانـامـا، أو، إذا أراد، إلى الولايات المتحدة. يستطيع ويلي أن يذهب فـقط إلى الهند، ولم يكن يريد ذلك. كل مـا يملكه الآن كـان مجرد فكرة- وكانت مثل الإيمان بالسحر- بأن شيئاً ما سيحدث ذات يوم، وسيأتيه إلهام ما، وسوف تجرفه مجموعة من الحوادث إلى المكان الذي يجب أن يذهب إليه. كل ما عليه أن يفعله هو أن يبقي نفسه في حالة جاهزية لتعرف اللحظة.

في غضون ذلك، ثمة الكتاب ينتظر صدوره، والدبلوم يتريث لكي يحصل عليه. اختبأ في الكلية يفكّر بالفكاك أكثر من شهادة الكلية بوصفها المكافأة الحقيقية لتعبه، وراح ينقّب بين الكتب المقررة المملة. وبينما كان يسعى لنسيان العالم، بدا العالم وكأنه ينساه. لا طلب من منتج بي بي سي لأي نص، ما من ملاحظة من روجر، لا شيء على مدى أسابيع يذكّره بأنه عاش حياة لندنية نشيطة ومتنوعة بنفسه وأنه مؤلف لكتاب على وشك الصدور. لكن فهرس ريتشارد جاء ليذكّره. كان ذلك سبباً للاكتئاب. في الكتاب مقطع يشغل نصف صفحة في مكان ما في الوسط. لقد قُدم ويلي على أنه "صوت مقموع جديد من شبه القارة"، وكان ثمة شيء حول البيئة الهندية الريفية غير العادية للقصص، ولكن لم تكن هناك أي إشارة عن طبيعة الكتابة. بدا مدخل الفهرس، الذي كان متواضعاً، كئيباً، و الخاسر تجارياً، أقل إطراءً للكتاب منه لريتشارد، ولسياسة شركته المعروفة. ذاك هو الجانب الذي كان يخشاه

روجر في ريتشارد. شعر ويلي بأن كتابه لُوّثَ، وضاع عليه، ومات سلفاً. بعد فترة وجيزة وصلت البروفات الطباعية. وراح يشتغل عليها مثل رجل يمر عبر الطقوس والشعائر المرتبطة بولادة صامتة. بعد نحو أربعة أشهر وصلت النسخ الستة من الكتاب المنشور.

لم يأتِ شيء من ريتشارد أو من مكتبه. لم يأت شيء من روجر: خشي ويلي أن تكون بيرديتا قد تخلت عنه. وجد نفسه يغرق في هذا الصمت. بحث في الصحف والأسبوعيات في مكتبة الكلية. نظر في المنشورات التي لم يسبق له أن قرأها. لم ير أي شيء يتعلق بكتابه لمدة أسبوعين، وبعد ذلك، بدأ يرى هنا وهناك، مقاطع صغيرة مرمية بين أخبار النشر الجديد.

...حيث كان يتوقع المرء، بعد الرحلة المتوثبة للهندي-الإنكليزي جون ماسترز، أن يجد بهاراً هندياً حقيقياً حاراً، لكنه يحصل فقط على مذاق عسير الوصف، من منبعٍ غير مؤكّد، ويخرج في النهاية بالانطباع الغريب بأنه تناول طعاماً متنوعاً ولمدة طويلة، ولكن في الوقت ذاته فاتته الوجبة. ...

...هذه المزق العشوائية، غير المكتملة، من الرعب أو فقدان الهدوء أو القلق، تبدو، بأكثر الطرق إرباكاً، أنها تنبثق من رؤية غير مستقرة للعالم. إنها تتحدث مجلدات عن غربة الشباب، وتبشّر بالسوء للحالة الجديدة. ...

فكّر ويلي: "دع الكتاب يموت. دعه يتلاشى. دعني لا أذكّر به. لن أكتب بعد ذلك. هذا الكتاب شيء كان يجب ألاّ أنجزه، على أيٍّ حال. إنه مصطنع ومزيف. ولأكن ممتناً بأن لا أحد من المراجعين اكتشف كيف أُنجز."

ومن ثمّ ذات يوم وصلته رسالتان. واحدة من روجر.

عزيزي ويلي، تهانيّ المتأخرة على الكتاب، والذي بالطبع أعرفه بصورة جيدة. المراجعات التي رأيتها لم تكن على الإطلاق سيئة. إنه ليس كتاباً يسهل على المرء الكتابة عنه. بدا كل مراجع كأنه يتناول جانباً مختلفاً من الكتاب. وهذا جيد تماماً. كان على ريتشارد أن يفعل أكثر، لكن هذا هو أسلوبه. للكتب أقدارها، مثلما يقول الشاعر اللاتيني، وأشعر بأن كتابك سيحيا بطرق لا تستطيع في اللحظة الراهنة تخيلها.

في مزاجه المهزوم، وبسبب خشيته على بيرديتا، رأى ويلي جوانب غامضة في الرسالة. رآها باردة وبعيدة، ولم يشعر بأنه يجب أن يعترف بها.

الرسالة الأخرى من فتاة أو امرأة شابة من بلد إفريقي. كان لها اسم برتغالي الوقع، وكانت تتبع دورة من نوع ما في لندن. قالت إن المراجعة في صحيفة الديلي ميل- قراءة متواضعة، تذكّرها ويلي، لكن المراجع حاول أن يصف القصص- جعلتها تشتري الكتاب. *في المدرسة قيل لنا إنه من المهم أن نقرأ، لكنه ليس سهلاً على أناس من خلفيتي، وأعتقد من خلفيتكَ، أن يجدوا كتباً يرون فيها أنفسهم. نقرأ هذا الكتاب أو ذاك ونقول لأنفسنا أحببناه، غير أن كل الكتب التي يُطلب منا قراءتها هي مكتوبة لأناس آخرين، ونحن حقاً دائماً في بيوت الآخرين، وعلينا أن نمشي بحذر، وأحياناً يجب أن نصمّ آذاننا تجاه الأشياء التي يقولها الناس. أشعر أنه يجب أن أكتب إليك لأنني في قصصك، وللمرة الأولى، أعثر على لحظات تشبه لحظات في حياتي، بالرغم من أن المادة والخلفية مختلفتان جداً. كم ينعش قلبي أن أفكر أن ثمة شخصاً مازال طوال هذه السنين يفكر ويشعر مثلي.*

أرادت أن تقابله. سرعان ما كتبَ لها طالباً منها المجيء إلى الكلية. لكنه خشي شيئاً. يمكن أن تكون مهذبة مثل رسالتها. لم يكن يعرف شيئاً تقريباً عن بلدها الإفريقي البرتغالي، ولا عن الأعراق، والتجمعات والتوترات. لقد ذكَرَت خلفيتها، لكنها لم تقل أي شيء عنها. من الممكن أنها تنتمي إلى جماعة مختلطة، أو أنها في وضع منشطر إلى نصفين. شيء من هذا القبيل يمكن أن يفسّر عواطفها، والطريقة التي قرأت بها كتابه. فكر ويلي بصديقه بيرسي كاتو، حيث انقطعت أخباره الآن: متأنق وصاحب دعابة على السطح، لكنه مملوء بالغضب في الداخل. ولكن إذا أتت واستجوبته عن كثب حول كتابه فقد يجد نفسه مسلماً باللعبة، وبأن الفتاة، أو المرأة، ذات الاسم البرتغالي الرّنين، تفهم أن القصص الهندية التي وجدت فيها جوانب من حياتها الإفريقية، كانت قد اقتُبست من أفلام هوليوود، ومن ثلاثية مكسيم غوركي عن روسيا. لم يكن ويلي يريد أن يخيب أمل الفتاة. كان يريدها أن تظل معجبة. هذا الخط من التفكير قاده إلى وجهة أخرى، وإلى القلق على نفسه. بدأ يخشى أن الفتاة يمكن ألاّ تجده مستحقاً للكتاب الذي كتبه، وليس جذاباً بما فيه الكفاية، أو صاحب حضور كافٍ.

ولكن حالما وقع بصره عليها تلاشت جميع مخاوفه، وشعر بالهزيمة. كانت تتصرف كأنها دائماً تعرفه، ودائماً معجبة به. كانت شابة ونحيلة وصغيرة، وحلوة تماماً. كان لها طريقة مطواعٌ رائعة. وما كان أكثر نشوةً لويلي أنه للمرة الأولى في حياته يشعر بأنه في حضرة شخص يقبله بصورة كاملة. في الوطن كانت حياته محكومة بميراثه المختلط. لقد أفسد عليه هذا كل شيء. حتى الحب الذي شعر به تجاه والدته، والذي

يجب أن يكون صافياً، كان مملوءاً بالألم الذي انتابه تجاه ظروفها. في إنكلترا تعود أن يحيا مع فكرة اختلافه. في البدء هذا الشعور بالاختلاف كان مثل تحرر من قواعد وقساوات الوطن. لكنه بدأ في حالات معينة- مع جون، على سبيل المثال، ومن بعدها بيرديتا، وأحياناً عندما يكون هناك مشكلة في الكلية- يستعمل اختلافه كسلاح، جاعلاً نفسه أبسط وأخشن مما كان عليه. إنه السلاح الذي كان مستعداً لاستخدامه مع الفتاة من إفريقيا. لكن لم تكن هناك حاجة لذلك. لم يكن هناك شيء للوقوف ضده، إن صحّ التعبير، ولا ريبة للسيطرة عليها، أو شعور بالمسافة.

بعد مضي نصف ساعة لم يُفكّ السحر، وبدأ ويلي ينتشي بهذا الشعور الجديد تجاه كونه مقبولاً كرجل، وبكونه كاملاً في نظر نفسه. ربما كان الكتاب هو السبب الذي جعلها تنظر إليه بتلك الطريقة اليقينية. ربما كانت خلفية آنا الإفريقية المختلطة. لم يكن ويلي يتمنى التدقيق أكثر، وما منحته إياه آنا كان يبادلها إياه بزخم تام. سحرته الفتاة، وفي غضون الأسابيع التالية، تعلّم أن يحب كل شيء فيها: صوتها، لكنتها، ترددها حيال بعض الكلمات الإنكليزية، بشرتها الجميلة، والعنفوان الذي تعاملت من خلاله مع النقود. بخصوص التعامل مع النقود، لم ير ذلك مع أيٍّ امرأة أخرى. بيرديتا دائماً تضيع عندما كانت تبحث عن النقود. جون، الضخمة الردفين، كانت تنتظر حتى نهاية الصفقة قبل أن تخرِجَ جزداناً صغيراً وتفتحه بيديها الكبيرتين. نقود آنا دائماً جاهزة. ومع تلك الروح من العنفوان كانت هناك نحافتها العصبية. تلك النحافة جعلته يشعر بالحماية لها. كان سهلاً ممارسة الجنس معها،

مع غياب لأي نوعٍ من العدوانية التي أوصى بها بيرسي كاتو، وكل ما بدا صعباً مع أخريات قبلها كان متعةً صافيةً معها.

في المرة الأولى التي تبادلا فيها القبل- على الكنبة المواجهة للمسخّن في غرفة الكلية- قالت: "عليك الاعتناء بأسنانك. إنها تفسد ملامحك." قال، على سبيل النكتة: "حلمت الليلة الماضية بأنها أصبحت ثقيلة جداً وأنها على وشك السقوط." وكان ذلك صحيحاً: كان مهملاً لأسنانه منذ أن وصل إلى إنكلترا، وكان أن أهملها تماماً بعد اضطرابات نوتينغ هيل، واختفاء بيرسي كاتو، والمقطع المنفّر عن كتابه في فهرس ريتشارد البائس. لا بل إنه بدأ يجد نوعاً من المتعة في تلك اللطخ، التي وصلت تقريباً حدّ الاسوداد الآن، في أسنانه. حاول أن يخبرها بالقصة. قالت: "اذهب إلى طبيب الأسنان." ذهب إلى طبيب أسنان أسترالي في فولهام وأخبره: "لم أذهب في حياتي إلى طبيب أسنان. لا أشعر بأي ألم. ليست لدي أيٌّ مشكلة أخبرك بها. أتيت إليك فقط لأنني حلمت بأنني على وشك أن أفقد أسناني." قال طبيب الأسنان: "نحن جاهزون حتى لذلك الاحتمال. وكله سيتمّ على نفقة الصحة العامة. دعنا نلقي نظرة." ومن ثمّ قال لويلي: " أخشى أنه لم يكن حلماً له معنىً مخبوء. أسنانك حقاً على وشك السقوط. قلاحٌ مثل الإسمنت. وهي مبقعة بصورة خطيرة- عليك أن تحتسي الكثير من الشاي. الأسنان السفلية يعلوها القلاح بكليتها، جدار صلد من تلك المادة. لم أرَ شيئاً مثل هذا من قبل. إنها معجزة أنك لا تزال قادراً على رفع فكك." وراح ينظّف القلاح بشيء من الغبطة، يحكّ ويكسر ويطحن، وعندما انتهى شعر ويلي أن فمه يلتهب، وأسنانه مكشوفة ومهزوزة وحسّاسة حتى

للهواء. قال لآنا: "سمعت من الأولاد في الكلية أشياء طريفة عن أطباء الأسنان الأستراليين في لندن. آمل أننا فعلنا الشيء الصحيح."

شجّع آنا للحديث عن بلدها. حاول أن يتصور البلد على الساحل الشرقي من إفريقيا، مع فراغ عظيم خلفه. حالاً، ومن القصص التي روتها، بدأ يفهم أن لها طريقة خاصة في النظر إلى الناس: سواء أكانوا أفارقة أم غير أفارقة. فكّر ويلي: "هل تراني هي إذاً مجرد شخصٍ غير إفريقي؟" لكنه دفع بتلك الفكرة جانباً.

روت له قصة عن صديقة مدرسة: "أرادت دائماً أن تصبح راهبة. وانتهى بها الأمر إلى مرتبة هنا، وقد ذهبتُ لرؤيتها قبل بضعة أشهر. الراهبات يعشن نوعاً من حياة السجن، ويبقين على اتصال مع العالم الخارجي بطريقتهن الخاصة. أثناء تناول الطعام يقوم أحدهم بقراءة مقتطفات من الصحف لهن، ويتضاحكن مثل بنات المدارس لأبسط النكات. كان باستطاعتي أن أبكي. تلك الفتاة الجميلة، وتلك الحياة المهدورة. لم أستطع أن أتمالك نفسي وسألتها لماذا فعلت ذلك. كان خطأً من قبلي أن أزيد من أحزانها. قالت: (ما الشيء الآخر الذي كان بإمكاني فعله؟ لم يكن لدينا نقود. ما من رجل سيأتي ويأخذني بعيداً. لم أكن أريد أن أتعفّن في تلك البلاد) .. وكأنها لم تكن تتعفّن الآن."

قال ويلي: "أفهم صديقتكِ. أردت أن أكون قساً ذات مرة. ومبشّراً. أردت أن أكون مثل الآباء. كانوا أفضل حالاً بكثير من الناس حولنا. لم يكن يبدو هناك أيّ مخرج آخر." وجاءه خاطرٌ بأن حالة آنا في بلادها يمكن أن تكون مشابهة لحالته في الوطن.

في وقت آخر على الكنبة الصغيرة، قالت آنا: "هاك قصةً لكتابك

القادم. إذا اعتقدتَ أنك تستطيع أن تفعل أي شيء فيها. أمي لها صديقة اسمها لويزا. لا أحد يعرف أي شيء عن أبوي لويزا. تمّ تبنيها على يد عائلة غنية تملك العقارات وقد ورثت جزءاً من الأملاك. لويزا ذهبت إلى البرتغال وأوربا. عاشت ببذخ لعدد من الأعوام وأعلنت بعد ذلك أنها عثرت على رجل رائع. أحضرته معها. أقاموا حفلة كبيرة في العاصمة، والرجل الرائع أخبر كل شخص عن الناس المشهورين الذين كانوا أصدقاءه المقربين في أوربا. فيما بعد، هو ولويزا، ذهبا إلى الدغل للعيش في أملاك لويزا. كان الناس يتوقعون أن يروا الأصدقاء الكبار يأتون، وباب البيت يُفتح. لكن لا شيء حدث. لويزا ورجلها الرائع صارا أكثر بدانةً، يروون ذات القصص التي رووها أثناء حفلتهم. وتناقص شيئاً فشيئاً عدد الناس الذين يذهبون لرؤيتهم. بعد فترة بدأ الرجل ينام مع النسوة الإفريقيات، ولكن حتى ذلك صار شيئاً يفوق طاقته فأقلع عنه. إذاً لويزا، الطفلة المتبناة، ورجلها الرائع عاشا بسعادة، أو بلا سعادة، ومن ثمّ ماتا. وثروة عائلة لويزا تبخّرت، ولم يعرف أحد من تكون لويزا، أو من يكون الرجل الرائع. هكذا تعودت أمي أن تروي القصة. هاكَ قصةً أخرى: ثمة هذه الفتاة المزرية الثياب والتعسة في المدرسة الداخلية. كانت تعيش في الدغل مع أبيها وزوجة أبيها. بعدئذ تتزوج الأمّ الحقيقية للفتاة ثانيةً، وتذهب الفتاة للعيش معها. تتبدّل الفتاة تبدلاً ملحوظاً. تصبح فتاةً عصرية الثياب، سعيدة، وفاتنة. سعادتها لا تعمّر طويلاً. يصبح زوج أمها مهتماً بها، مهتماً جداً. في إحدى الليالي يذهب إلى غرفة نوم الفتاة. ووقع مشهدٌ، ومن ثم طلاقٌ، وفضيحة كبيرة."

وعرف ويلي أن الفتاة في القصة الثانية، الفتاة التعِسة في المزرعة

المخيفة والمدمرة في بلدها الإفريقي كانت آنا. وظنّ أن ذلك يفسّر نحافتها، وعصبيتها. وهذا ما أججّ من شعوره تجاهها.

رسالة أتت من ساروجيني في كوبا، مع صورة:

هذا الرجل يقول إنه يعرفك. إنه أمريكي لاتيني من باناما، واسمه كاتو لأنّ عائلته أمضت الكثير من الوقت في المستعمرات الإنكليزية. يقول إنه في الأيام الخوالي كان الناس يعطون عبيدهم أسماءً يونانية ورومانية على سبيل النكتة، وانتهى المطاف بجده أن يحمل اسم كاتو. إنه الآن يعمل مع تشي في أمريكا الجنوبية، حيث الكثير من العمل، وذات يوم ربما سيكون قادراً على العودة إلى جامايكا للقيام ببعض الأعمال هناك. هناك حيث قلبه. هذا الشخص يجب أن يكون قدوةً لك.

في الصورة المربعة بالأبيض والأسود، التي لم تكن نقية جيداً، كان بيرسي يجلس على نصف حائط، ساقاه متدليتان في الضوء المائل للصباح أو الظهيرة المتأخرة. كان يرتدي قبعة صوفية مخططة، وسترة بيضاء، أو قميصاً مشجّراً، مع تصميم مزخرف فاقع من الألوان البيضاء نفسها. كان أنيقاً كعادته. وكان يبتسم للكاميرا، وفي عينيه المشعتين ظنّ ويلي أنه يستطيع أن يرى جميع شخصيات بيرسي: بيرسي جامايكا وباناما ونوتينغ هيل والحفلات البوهيمية، وكلية التربية.

ما خططُك؟ نحصل على أخبار قليلة من إنكلترا هنا، فقط معلومة بسيطة هنا أوهناك عن الاضطرابات العرقية. هل نُشر كتابك؟ احتفظتَ به لنفسك. لم ترسل لنا نسخةً، وأفترض أنه صدرَ ونفدَ. حسن. الآن وقد أخرجته من نظام حياتك، حان الوقت لكي تضع ذاك الغرور جانباً، وتفكر بشكل بناءٍ أكثر بمستقبلك.

فكّر ويلي: "إنها على حق. كنت أؤمن بالسحر. وقتي انتهى هنا تقريباً. منحتي على وشك الانتهاء، ولم أخطط لأي شيء على الإطلاق. مازلت أعيش هنا في جنة الحمقى. عندما يحين وقتي وأُرمى خارج الكلية، ستتبدل حياتي جذرياً. علي أن أبحث عن مكان أمكث فيه. وعلي أن أبحث عن عمل. وستكون لندن مدينة مختلفة وقتئذ. وآنا لن ترغب بالمجيء إلى الغرفة في نوتينغ هيل. سوف أخسرها."

ظلّ قلقاً على هذا المنوال لبعض الوقت، ومن ثمّ فكّر: "لقد كنت أحمقَ. مازلت أنتظر لكي أُقاد إلى حيث يجب أن أذهب، منتظراً إشارةً. وطوال هذا الوقت كانت الإشارة هناك. يجب أن أذهب مع آنا إلى بلدها."

عندما تقابلا لاحقاً قال: "آنا، أود أن أذهب معك إلى إفريقيا."

"لقضاء عطلة؟"

"بصورة دائمة."

لم تقل شيئاً. بعد أسبوع أو نحوه قال: "هل تتذكرين ما قلته بشأن الذهاب إلى إفريقيا؟" اكفهّر وجهُها.

قال: "لقد قرأتِ قصصي. تعرفين أنني لا أملك مكاناً آخر أذهب إليه. ولا أريد أن أخسركِ." بدت مشوشة. لم يقل المزيد. لاحقاً، عندما كانت تهمّ بالمغادرة قالت: "عليك أن تعطيني بعض الوقت. عليّ أن أفكّر." عندما جاءت في المرة التالية إلى غرفته، وكانا معاً على الكنبة الصغيرة، قالت: "هل تظنّ بأنك ستحبّ إفريقيا؟"

قال: "هل تظنين أنه يوجد شيء ما أستطيع القيام به هناك؟"

"دعنا نرى كيف تحبّ المزرعة. نحتاج إلى رجل في المزرعة. لكن عليك أن تتعلم اللغة."

في أسبوعه الأخير في الكلية وصلته رسالة من ساروجيني في كولومبيا. أنا سعيدة أنك حصلت أخيراً على الدبلوم، على الرغم من أنني لا أعلم ماذا ستفعل به حيث أنت ذاهب. عملٌ جدي تحتاج القيام به في إفريقيا، بخاصة في تلك الأماكن البرتغالية، ولكنني لا أعتقد أنك ستقوم بهذه الأعمال بنفسك. أنت مثل والدك، تتمسّك بأفكار قديمة حتى النهاية. وبخصوص مسائل أخرى، آمل أنك تعي ما تقوم به، يا ويلي. لم أفهم ما كتبته عن الفتاة. الغرباء الذين يذهبون إلى الهند ليس لديهم أيُّ فكرة عن البلد، حتى وهم هناك، وأنا متأكدة من أن الشيء نفسه ينطبق على إفريقيا. أرجوك كن حذراً. إنك تسلم نفسك لأيدي الغرباء. تعتقد أنك تعرف ما أنت ذاهب إليه، لكنك لا تعرف كل ما ينتظرك."

فكر ويلي: "تحبّ زواجها الدولي، لكنها قلقة بشأن زواجي."

ولكن، كما دائماً، كلماتها، وعلى الرغم مما فيها من حذلقة، بما أنها كلمات شخص يحاول أن يدّعي الرشد، أقلقتَه وظلّت معه. سمع الكلمات وهو يحزم حقائبه، مقتلعاً حضوره بالتدريج من غرفة الكلية، مفككاً مركز حياته اللندنية. وبينما كان يجلو عن المكان، بسهولة الآن، تساءل عما إذا كانت قدمه ستطأ أرض هذه المدينة ثانيةً، إذا اضُطر ذات يوم لفعل ذلك. يمكن أن يحالفه الحظ ثانية، وربما وقعت سلسلة من حوادث المصادفة التي جرّبها سابقاً، ولكنها ستقوده إلى مدينةٍ لا يعرفها.

* * *

غادر-هو وآنا- من مدينة ساوثامبتون. كان يفكّر باللغة الجديدة التي عليه أن يتعلمها. وتساءل عمّا إذا كان سيقدر على التمسّك

بلغته. تساءل عمّا إذا كان سينسى اللغة الإنكليزية، لغة قصصه. راح يضع لنفسه اختبارات صغيرة، وكلما انتهى من اختبار كان يبدأ مباشرةً بآخر. وبينما كانت سفينة (المتوسط) تشق طريقها، والركاب الآخرون يتغدون ويتعشون، ويلعبون ألعاباً على متنها، كان ويلي يحاول أن يتعامل مع تلك المعرفة التي هبطت عليه في السفينة، وهي أن لغته الأم تلاشت تقريباً، ولغته الإنكليزية في طريقها إلى الزوال، ولم يتبقّ له لغة مناسبة، أو ملَكَة للتعبير. لم يخبر آنا. في كل مرة كان يتفوّه بكلمةٍ كان يختبر نفسه، ليرى كم من الأشياء مازال يعرف، وفضّل أن يمكث في المقصورة، ويتعامل مع هذا الشيء الغبي الذي هبط عليه. فَسُدت عليه فرصة رؤية الإسكندرية وقناة السويس. (تذكّر- وكأنما من حياة أخرى أكثر سعادةً، بعيدة عن عبوره الآن بين الوهج الأحمر للصحراء على الجانبين- كريشنا مينون في بدلته السوداء قرب أصص الورد في حديقة هايد بارك، متكئاً على عصاه، ناظراً إلى الأسفل، يصوغ خطابه الذي سيلقيه في الأمم المتحدة عن مصر والقناة.)

قبل ثلاث سنوات، عندما توجه إلى إنكلترا، قام بهذا الجزء من الرحلة في الاتجاه المعاكس. كان لا يكاد يعي ما كان يراه. لديه الآن فكرة أفضل عن التاريخ والجغرافيا؛ ويملك فكرة ما عن عراقة مصر. ودّ لو أنه نسخ المناظر الطبيعية في ذاكرته، لكنّ قلقه حول فقدان اللغة أبعده عن التركيز. وبذات الطريقة غير المرضية رأى ساحل إفريقيا: ميناء السودان، على حافة قفرٍ شاسع؛ جيبوتي، ومن ثمّ بمحاذاة القرن الإفريقي، مومباسا ودار السلام، وأخيراً الميناء التابع لبلد آنا. كل هذا بينما كان يتصرف بعقلانية وصفاء. لا آنا ولا أي شخص آخر كان يمكن أن يدرك أن ثمة

نشازاً ما. ولكن كل هذا بينما كان ويلي يشعر بأن ثمة ذاتاً أخرى داخله، تقبع في فضاء صامت وتكظم حياته الخارجية بكاملها.

تمنّى لو أنه أتى إلى بلاد آنا بطريقة أخرى. كانت المدينة كبيرة وباهرة، أجمل بكثير مما كان قد تصوره، و لا تشبه أي شيء ربطه ويلي ذات يوم بإفريقيا. فخامتها أخافتهُ. لم يكن يظنّ أنه قادر على التكيف معها. الناس الغرباء، الذين رآهم في الشوارع، كانوا يعرفون اللغة وطرائق المكان. فكّرَ: "لن أمكث هنا. سوف أغادر. سوف أمضي بضعَ ليال هنا، ومن ثمّ أجد طريقة للمغادرة." هكذا كان يفكر طوال الوقت الذي أمضاه في العاصمة، في بيت أصدقاء آنا، وهكذا كان يفكر خلال الرحلة البطيئة الأبعد، في سفينة ساحلية صغيرة إلى الإقليم الشمالي، حيث تقع المزرعة: عائداً مسافة قليلة كان قد قطعها إلى الخلف، لكنه الآن أقرب إلى اليابسة، أقرب إلى الأفواه والمصبات المرعبة لأنهار عريضة جداً، هادئة ومهجورة، حيث يختلط الماء والوحل، مشكلاً دوامات بطيئةً من الأخضر والبني. تلك كانت الأنهار التي منعت أي طريق أو ممر ترابي باتجاه الشمال.

نزلوا أخيراً في بلدة وطيئة مبنية من الإسمنت، رمادية وصفراء وبيضاء باهتة، بشوارع مستقيمة كما في العاصمة، ولكن بدون إعلانات كبيرة، بل بدون أيّ إشارة للحياة في المكان. خارج البلدة، كان ثمة طريق إسفلتي ضيق يمرّ عبر الأراضي باتجاه الريف. دائماً، إذاً، الأفارقة، وهم أناس صغار وقلائل هنا، يمشون فوق التربة الحمراء على جانبي الطريق الإسفلتي، يمشون كأنهم في برية، لكنها لم تكن برية بالنسبة لهم. وليس بعيداً من هنا، تميّزها خطوطٌ من الذرة ونباتات

المنيهوت، و أشياء أخرى، كانت تظهر المستوطنات الإفريقية، وهي أكواخ وباحات مسوّرة بالقصب، أكواخ بخطوط مستقيمة أنيقة، وسقوف من أعشاب طويلة جميلة، بدت في أحيان كثيرة كأنها تمسك بالشمس، وتشعّ مثل شعر طويل مسرّحٍ بعناية. صخورٌ كبيرة جداً رمادية ومخروطية الشكل، بعضها بحجم التلال، تنهض بغتةً من الأرض، وكل حجر مخروطي كان يقف وحده، مشكلاً نقطة علاّم بحدّ ذاته. استداروا باتجاه طريق قذرة. كانت الأدغال عالية علوّ السيارة، والقرى التي مرّوا بها أكثر ازدحاماً من الطريق الإسفلتي. الطريق الترابية حمراء وجافة تتخللها بركٌ قديمة، تركت بقعاً من الوحل الأسود على زجاج السيارة. تركوا هذا الطريق وبدؤوا يصعدون منحدراً نافراً باتجاه البيت. الطريق هنا مموّجٌ عندما يكون مستقيماً، وعندما ينعطف يكون مخدداً بمياه الأمطار، ذلك أن الماء يحفر مساره نزولاً. كان البيت وسط حديقة قديمة تغصّ بالأشجار، وتحت ظلّ شجرة مطرية ضخمة كثيرة الأغصان، كانت شجرة البوغنفيليا تعرّش حول الشرفة التي تحيط بالجوانب الثلاثة للطابق الأرضي.

كان الهواء ساخناً وفاسداً في الداخل. ناظراً من نافذة غرفة النوم، عبر الشبكات السلكية والحشرات الميتة، باتجاه الحديقة العشوائية والأشجار المصطفقة السامقة، والأرض المنحدرة بمحاذاة شجيرات البلاذر وعناقيد الأسطحة العشبية، وإلى الصخور المخروطية التي كانت تظهر من بعيد صانعةً سلسلة متصلة وطيئة تميل إلى الأزرق الشاحب، راح ويلي يفكّر: "لا أعرف أين أنا. لا أعتقد أنني أستطيع أن أتلمّس طريق العودة. لا أريد أبداً لهذا المنظر أن يصبح مألوفاً. يجب ألاّ أفرغ حقائبي. ويجب ألاّ أتصرّف كأنني سأمكث هنا."

مكث لمدة ثمانية عشر عاماً.

انزلق ذات يوم على الدرج الأمامي لبيت المزرعة. جدّ آنا الأبيض، الذي تعوّد الذهاب مرة كل عام إلى لشبونة وباريس- تلك كانت القصة- كان قد بنى المنزل في الأيام الأولى للنقود، بعد حرب ١٩١٤، وكان الدرج الأمامي نصف دائري، ومؤلفاً من رخام مستورد أبيض وبني. الرخام الآن متصدّع، تعلوه الطحالب في التجاويف، وفي هذا الصباح الماطر صار زلِقاً، بسبب الرطوبة وغبار الطلع المنبعث من شجرة الفيء الضخمة.

استيقظ ويلي في المشفى العسكري للبلدة. كان بين الجنود السود الجرحى، بوجوههم المشعة، وعيونهم الحمراء المرهقة. عندما جاءت آنا لرؤيته قال: "سوف أتركك."

قالت بصوتٍ سبقَ أن سحَرَهُ، ولا يزال يحبه: "تعرّضتَ لسقطةٍ بشعة. أخبرتُ تلك الفتاة الجديدة مراراً بأن تمسح الدرج. ذاك الرخام كان دائماً زلِقاً. خاصة بعد المطر. شيء أحمق، بالفعل لمكان مثل هذا."

"سوف أتركك."

"لقد انزلقتَ، يا ويلي. فقدت الوعي لبعض الوقت. الناس يبالغون بشأن الاقتتال في المزرعة. أنت تعرف ذلك. سوف لن تكون هناك حرب."

"أنا لا أفكر بالاقتتال. العالم مملوء بالأشياء الزلِقَة."

قالت: "سأعود في وقت لاحق."

حين عادت، قال: "هل تظنين أنه من الممكن لأحدهم أن يعاين كل كدماتي وجروحي ويستنتج ماذا حدث لي؟ يستنتج ما الذي فعلته بنفسي؟"

"إنك تسترجع معنوياتك."

"امتلكتِ ثمانية عشر عاماً مني."

"هل حقاً تعني أنك تعبتَ مني؟"

"أعني أنني وهبتكِ ثمانية عشر عاماً. لا أستطيع أن أعطيكِ أكثر. لا أستطيع أن أحيا حياتكِ أكثر. أريد أن أحيا حياتي."

"كانت تلك فكرتكَ يا ويلي. وإذا غادرت، فإلى أين ستذهب؟"

"لا أعرف. ولكني عليّ أن أتوقف عن العيش معكِ هنا."

عندما غادرت، نادى المشرفة الخلاسية، وراح يملي عليها ببطء رسالةً إلى ساروجيني، متهجياً الكلمات الإنكليزية. لسنوات، ومن أجل حالات مشابهة، كان دائماً يتذكّر عنوان ساروجيني- في كولومبيا، بوليفيا، بيرو، الأرجنتين، الأردن، وعدد آخر من البلدان- والآن، وعلى نحوٍ أكثر بطئاً، لأنه هو نفسه ليس متأكداً من الكلمات الألمانية- راح يملي العنوان في برلين الغربية للمشرفة. أعطاها ورقة نقدية إنكليزية قديمة من فئة خمسة الجنيهات ، ولاحقاً، في ذلك اليوم، أخذت المشرفةُ الرسالةَ إلى متجرٍ خاوٍ تقريباً لتاجر هندي، وهو أحد القلائل من التجار الذين بقوا في البلدة. لم تكن هناك خدمة بريدية مناسبة منذ أن غادر البرتغاليون، واستولى المتمردون على الحكم. ولكن هذا التاجر، الذي كانت لديه اتصالات مع كامل الساحل الشرقي لإفريقيا، يستطيع تدبّر الأشياء على متن سفن محلية متجهة إلى الشمال، صوب دار السلام وموماسا. هناك يمكن أن تُختم الرسائل وتُرسَل.

الرسالة المعنونة بصورة ركيكة، والتي انتقلت من يد إلى يد في إفريقيا، وخُتمت أيضاً برداءة، وصلت ذات يوم في عربةٍ بريد حمراء صغيرة إلى وجهتها في شارلوتنبيرغ. وبعد ستة أسابيع وصل ويلي

نفسه إلى هناك. الثلج القديم كان مكوماً على الأرصفة، مع وجود ممرات من الرمل الأصفر في الوسط، وبقع متناثرة من روث الكلاب على الثلج. كانت ساروجيني تعيش في شقة كبيرة مظلمة على ارتفاع طابقين من الدرج. لم يكن وولف هناك. لم يكن ويلي قد قابله ولم يكن يتشوق لمقابلته. قالت ساروجيني ببساطة: "إنه مع عائلته الأخرى." وكان ويلي سعيداً أن يترك الأمر على حاله، دون الاستفسار عن المزيد.

بدت الشقة كأنها مهملة منذ سنين، وجعلت ويلي يفكّر، بقلبٍ مفطور، ببيت المزرعة الذي غادره لتوه. قالت ساروجيني: "لم نُدخِل عليه أي ديكور منذ ما قبل الحرب." كان الدهان عتيقاً، تعلوه طبقات متكومة من الدخان، لوناً شاحباً فوق آخر، حيث تفاصيل الديكور على الخشب والجدران قد سُدّت، وفي مطارح كثيرة تسرّبت طبقات الدهان العتيق إلى الخشب الأسود القديم. لكن، وفي حين كان بيت آنا ممتلئاً بأثاث عائلتها الثقيل، كانت شقة ساروجيني نصف خاوية. القطع القليلة من الأثاث كانت أساسية ومستعملة وبدت، كأنها اختيرت دون أيّ عناية. الصحون والأكواب والملاعق والسكاكين كانت جميعها رخيصة. كل شيء بدا مكتنفاً بالموقّت. ولم تكن متعةً بالنسبة لويلي أن يتناول الطعام، الذي أعدته ساروجيني، في المطبخ الصغير ذي الروائح الفاسدة في الخلف.

كانت قد تخلت عن موضة فستان الساري الهندي، وسترة الصوف المحبوكة والجوارب. إنها ترتدي بنطلون الجينز وكنزة ثقيلة، وحركتُها أخفّ وأكثر عنفواناً مما يتذكّره ويلي عنها. فكّر ويلي: "كل هذا كان مدفوناً في الفتاة التي تركتها في الوطن. لم يكن ليظهر أيّ من هذا لو لم يأت الألماني، ويأخذها بعيداً. لو لم يأت هل كانت هي، وكل ما في روحها، سيتلاشى إلى لاشيء؟" كانت جذابة الآن- شيء مستحيل أن

تتخيله أيام الصومعة في المعبد- وبالتدريج، ومن أشياء كانت تقولها، أو تدعها تسقط سهواً، فهمَ ويلي أن الكثير من العشاق مرّوا في حياتها منذ أن رآها آخر مرة.

في غضون أيام من وصوله إلى برلين بدأ ويلي يتكئ على قوة أخته. بعد إفريقيا، أحبّ فكرة البرد العظيم، وأخذته معها لكي يتمشّى في الخارج، على الرغم من أنّ الأرصفة زلِقة وخطرة، وهو لا يزال مهزوزاً. أحياناً، وهما في المطاعم، كان يدخل صبيان التاميل يبيعون زهوراً طويلة الأذرع. كانوا غير مبتسمين، صبياناً في مهمة، يجمعون التبرعات من أجل حرب التاميل العظيمة في البعيد، ولا يكادون ينظرون إلى ويلي وأخته. كانوا ينتمون إلى جيل آخر، لكن ويلي رأى نفسه فيهم. فكّر: "هكذا ظهرتُ في لندن. وهكذا أظهر الآن. لستُ بالوحيد كما كنتُ أعتقد." ومن ثمّ راح يفكّر: "ولكنني مخطئ. أنا لست مثلهم. أنا في الواحدة والأربعين، متوسط العمر. وهم يصغرونني بخمسة عشر أو عشرين عاماً، والعالم تبدّل. لقد أعلنوا من هم، وغامروا بكل شيء من أجل ذلك. كنتُ أختبئ عن نفسي. لم أغامر بأي شيء. والآن الشطر الأفضل من حياتي ولّى."

أحياناً، في المساءات، كان يرى أفارقة في الضوء الأزرق لأكشاك الهاتف يتظاهرون بأنهم يتحدثون، لكنهم كانوا في الواقع يشغلون مكاناً فحسب، آخذين نوعاً من الملجأ. قالت ساروجيني: "الألمان الشرقيون نقلوهم جواً إلى برلين الشرقية، ومن ثمّ جاء هؤلاء إلى هنا." فكّر ويلي: "كم من الكثيرين منا هنا الآن! كم من الكثيرين من أمثالي! هل توجد فسحة لنا جميعنا؟"

سأل ساروجيني: "ماذا حدث لصديقي بيرسي كاتو؟ كتبتِ عنه منذ وقت طويل."

قالت ساروجيني: "كان يعمل بصورة جيدة مع تشي وآخرين. فجأة استولى عليه نوع من الغضب العارم. كان قد غادر باناما وهو طفل، ويحمل فكرةَ طفلٍ عن القارة. عندما عاد بدأ يرى المكان من زاوية مختلفة. أصبح ممتلئاً بالحقد تجاه الإسبان. يمكنكَ أن تقول إنه وصل إلى حالة القدر الذي يغلي."

قالَ ويلي: "وما هي حالة القِدر الذي يغلي."

"كان يظنّ أن الأسبان اغتصبوا ونهبوا القارة بأكثر الطرق همجيةً، و لا خير في المكان، حتى يُقتَل الأسبان، أو من هم جزئياً من الإسبان. إلى أن يحدث ذلك ستظل الثورة هدراً للوقت. إنها فكرة صعبة، لكنها في الواقع ممتعة، وحركات التحرر يجب أن تتبناها ذات يوم. يمكن لأمريكا اللاتينية أن تفطرَ قلبكَ. لكن بيرسي لم يكن يعرف كيف يعرض أفكاره، ونسي أنه كان يعمل مع الإسبان. كان بإمكانه أن يكون أكثر لباقةً. لا أظنّ أنه اهتمّ كثيراً بشرح مواقفه. ضيّقوا الخناق عليه. بدؤوا ينادونه بالزنجي. في نهاية المطاف عاد إلى جامايكا. ووصل خبر يقول إنه يعمل لمصلحة الثورة هناك، ولكننا اكتشفنا فيما بعد أنه يشرف على ملهى ليلي للسياح في الساحل الشمالي."

قال ويلي: "لم يكن بالرجل الذي يشرب، لكن قلبه كان دائماً مع ذاك النوع من العمل. كونه كان سلساً مع السلسين وفظاً مع الفظّين."

وكما ذات مرةٍ روى والدُه قصةَ حياتهِ لويلي، كذلك الآن، وخلال أيام عدّة من شتاء برلين، في المقاهي والمطاعم وفي الشقة نصف الخاوية، بدأ ويلي ببطء يروي لساروجيني عن حياته في إفريقيا.

* * *

اليـوم الأول في بيت آنا الريفي (قـال ويلي) كـان طويلاً أكـثـر مما تتـخـيلين. كل شيء في المنزل- الألوان، الخـشب، الروائح- كـان جديداً بالنسبة لي. كل شيء في الحمام كان جديداً بالنسبة لي- كل التجهيزات القديمة قليلاً-، والمسخّن القديم لتسخين الماء. أناس آخرون صمموا تلك الغرفـة، وساهموا في تركيب تلك التجهـيزات، واختـاروا تلك الرقـائق الجدارية البيضاء- بعضها متشقق الآن، وخطوط التشقق تُظهِر الهبابَ المترسبَ الممتـزج بالقذارة بحيث أن الجدران تبدو نفسـها غيـر متـوازية قليلاً. كل هذه الأشياء صارت مألوفة بالنسبة للناس الآخرين، وعدّوها جزءاً من راحة المنزل. في تلك الغرفة بالذات شعرت أنني غريب.

بشكل أو بآخر أمضيتُ النهار، دون أن تدري آنا، أو أي أحد آخر، بحـالتي الذهنيـة، وذاك الشك العـميـق الذي رافـقني منذ اللحظة التي غـادرتُ فـيـهـا إنكلتـرا. ومن ثمّ هبط الليل. مـولّدٌ دارَ. اللمبات في كل أنحاء المنزل والمبنى الخارجي كانت تضيء وتنوس باستمرار، وبدا الضوء الذي ينبعث منها مستجيباً لذبذبةٍ تردّدية، تارةً يملأ الغرفةَ، وتارةً ينكمشُ نحو الجدران. انتظرتُ طوال الوقت في تلك الليلة الأولى أن يستقرّ الضوء. نحو السـاعة العاشرة خفتت الأضواء كثيراً. وبعد بضع دقائق راحت تخفت ثانيـة، ومن ثمّ انطفأت تماماً. ضعف صوت المولّد، وكنتُ مدركاً للضجة التي كـان يحـدثهـا. كـان ثمة طنين في أذني، ومن ثمّ شيء يشـبـه صـوت الصّراصير في الليل، ومن بعدها الصمت والليل، حيث هبط الاثنان معاً. بعد ذلك بقليل، كان يمكن مشاهدة الأضواء الصفراء الشـاحبة لمصابيح الزيت الآتية من مخادع الخدم في أقصى المنزل.

شعرت بأني بعيد جداً عن كل شيء عرفته، وغريب في ذلك البيت

الإسمنتي الأبيض، مع كل هذا الأثاث البرتغالي العتيق والغريب، وتجهيزات الحمّام غير المألوفة؛ وعندما كنت أستلقي لأخلد إلى النوم كنت أرى ثانية- لمدة أطول مما كنت قد رأيتُ ذلك اليوم- المخروطيات الصخرية العجيبة، والطريق الإسفلتي المستقيم، والأفارقة وهم يمشون.

كنت أستلهم الراحةَ من آنا، من قوتها وعنفوانها. وكما هو الحال الآن، مثلما لاحظتِ يا ساروجيني، حيث إنني أتكئ عليكِ، كنتُ في تلك الأيام، ومنذ اللحظة التي وافقتُ فيها على أن أكون معها في إفريقيا، كنت أتكئ على آنا. آمنتُ بطريقةٍ خاصة بحظّها. بعض هذا كان له علاقة بحقيقة أنها امرأة منحت نفسها لي. اعتقدت بطريقة جوهرية ما بأنها موجّهة ومحمية، ومادمت معها فلن يلحق بي أذىً. ربما كان السبب شيئاً متأصلاً في ثقافتنا، وتحديداً أن الرجال، بالرغم من كل المظاهر، يبحثون في الحقيقة عن نساء يتكئون عليهن. وبالطبع إذا لم تكوني معتادة على أن تكون الحكومات، أو المجتمع، أو حتى التاريخ إلى جانبكِ، فإنه يجب عليكِ الإيمان بحظكِ أو طالعكِ وإلاّ فستموتين. أعرف أنكِ ورثتِ الموروثات الراديكالية لعمّ أمنا، وأن لديكِ أفكاراً مختلفة. لن أجادل معكِ. أريد فقط أن أخبرك لماذا كنتُ قادراً على اتباع امرأة، لا أكاد أعرفها، إلى بلد مُستَعمَرٍ في إفريقيا أعرف عنه القليل، باستثناء أنه يحتضنُ أفكاراً اجتماعية وعرقية صعبة. أحببتُ آنا وآمنتُ بحظّها. الفكرتان تلازمتا معاً. وبما أنني أعرف، ياساروجيني، أنّ لديكِ أفكاركِ الخاصة عن الحب أيضاً، سوف أقوم بالشرح. كانت آنا مهمةً بالنسبة لي، لأنني كنت أعتمد عليها بشأن فكرتي عن كوني رجلاً. تعرفين ما أعني وأظنّ أننا نستطيع أن نسميه

الحب. إذاً، أحببت آنا، من أجل الهدية العظيمة التي جلبتها لي، وبذات الدرجة آمنتُ بحظّها. كان باستطاعتي أن أذهب معها إلى أي مكان.

في غرفة الجلوس ذات صباح، وفي الأسبوع الأول أو الثاني، وجدتُ خادمةً إفريقية صغيرة. كانت نحيلة جداً، وضّاحة الوجه، ترتدي ثوباً قطنياً مهلهلاً. قالت بطريقة غير مألوفة ولكن متأنّقة: "إذاً أنت رجل آنا اللندني." وضعت مكنستها قرب الكرسي المنجّد العالي وجلست عليه، كأنها على عرش، وأراحت كلتا يديها باستقامة على الذراعين الباليتين للكرسي المنجّد، وراحت تنخرط معي في حديث مؤدب. قالت، كأنّها تستظهر كتاباً: "هل قضيت رحلة ممتعة؟" ومن ثمّ: "هل أتيحت لك الفرصة لترى شيئاً من البلد؟ ما رأيك بالبلد؟" كنت أدرس اللغة منذ حين وأعرف عنها بما فيه الكفاية للتحدّث بالطريقة الرنّانة نفسها إلى الخادمة الصغيرة. دخلت آنا. قالت: "تعجّبتُ من هي؟" تخلت الخادمة الصغيرة عن طريقتها المتعالية، ثمّ نهضت عن الكرسي وتناولت مكنستها ثانيةً. وأردفت آنا: "والدها خوليو. هو النجّار. إنه يشرب كثيراً."

كنت قد قابلت خوليو. إنه رجل من نسلٍ خليط، بعينين مبتسمتين رجراجتين، ويعيش في جناح الخادمات. كان إدمانه على الشرب مزحةً هناك، وكان عليّ أن أتعلم ألاّ أخاف من تلك العادة. كان سكير نهاية الأسبوع، وغالباً في أواخر الظهر من كل جمعة، أو سبت، أو أحد، كانت زوجته الإفريقية تهرب إلى حديقة البيت الرئيسة، وحيدة تماماً في رعبها، تتحرك إلى الوراء، أو الجنب، خطوة خطوة، بينما وشاحها الإفريقي ينحسر عن كتفها، وهي تترقّب طوال الوقت الرجل السكير في الجناح. يمكن لهذا المشهد أن يستمرّ إلى أن تخفتَ الأضواء. بعدئذ

يشتغل المولد مغرقاً كلّ شيء باهتزازاته. الضوء الكهربائي المتذبذب كان يزيد من تبديل ملامح الأشياء؛ لكنّ المحنة تمرّ، وفي الأجنحة في صباح اليوم التالي يعود السلام ثانية، بعدما تكون عواطف المساء قد تلاشت.

لكنها -عادة الشرب- لم تكن على الإطلاق مزحةً لابنة خوليو. تحدثت بطريقتها البسيطة والصريحة عن حياتها في المنزل، في تَيْنِكَ الغرفتين في الخلف. قالت لي: "عندما يسكر والدي يضرب أمي. وأحياناً يضربني أنا. وأحياناً تكون الأمور سيئة جداً، لدرجة أنني لا أستطيع النوم. أنهضُ وأتمشّى جيئةً وذهاباً في الغرفة حتى يستبدّ بي التعب. أحياناً أتمشّى طوال الليل." في كل ليلة بعد ذلك، وكلما ذهبتُ إلى السرير، كنت أفكر لثانيةٍ أو ثانيتين بالخادمة الصغيرة في خبائها. في وقتٍ آخر قالت لي: "نأكل الطعام نفسه كل يوم." لم أكن أعلم ما إذا كانت تحتجّ أو تتباهى، أو تتكلم ببساطة عن حقيقة معينة تتعلق بطرائقها الإفريقية. في تلك الأيام الأولى، وقبل أن يجعلني الناس المحليون أفكر بطريقة مختلفة حول الفتيات الإفريقيات، تعودت أن أشعر بالقلق على ابنة خوليو، حيث كنت أرى نفسي فيها، وكنت أستغرب كيف أنها، بالرغم من كلّ لباقتها كما رأيت، كانت قادرة على التكيف مع القفر الذي وجدت نفسها فيه.

بالطبع لم يكن قفراً. بدا مفتوحاً وبرّياً، لكنه كان برمته مخططاً ومنجزاً، وكل ثلاثين دقيقة أو نحوها، إذا كنتِ تستقلين حافلة مناسبة على تلك الطرق الترابية، تصادفين بيتاً ريفياً يشبه كثيراً أو قليلاً بيت آنا. بيوت مبنية من الإسمنت الأبيض الجديد مع شرفات واسعة تتدلى فوقها، وتحيط بها شجيرات البوغنفيليا، مع إضافات في الخلف.

ذهبنا في أحد أيام الآحاد، بعيد وقت قليل من وصولنا، لتناول الغداء في بيت أحد جيران آنا. كان قضيةً كبيرة. كانت ثمة سيارات جيب ولاند روفر ملطخة بالوحل وغيرها من الحافلات تقف في الفسحة الرملية المفتوحة أمام المنزل. كان الخدم الأفارقة يرتدون بزات بيضاء مزرّرة عند العنق. بعد المشروبات تفرق الناس حسب رغباتهم، بعضهم جلس حول الطاولة الكبيرة في حجرة الطعام، آخرون جلسوا حول الطاولات الصغيرة على الشرفة حيث عروق شجيرة البوغنفيليا المتشابكة والعتيقة خفّفت من حدة الضوء. لم تكن لدي أي فكرة عن نوع هؤلاء البشر، أو ماذا سيفكرون بي. لم تتحدث آنا عن المسألة، ولم أكلمها عنها، حاذياً حذوها. وجدتُ الآن أنه لم تكن هناك ردّة فعل خاصة تجاهي. كان ذلك مخيباً للآمال بشكل طريف. كنت أتوقع بعض الاعتراف بغرابتي، ولكن لاشيء. توضّح أن بعضاً من مالكي العقارات هؤلاء لم ينخرطوا في الواقع بأي حديث؛ وكأنّ عزلة حياتهم قد سلبت منهم تلك الملَكَة. عندما حان وقت الطعام، جلسوا وتناولوا طعامهم فحسب، الزوج والزوجة جنباً إلى جنب، ليسوا عجائز وليسوا شباباً، بل في متوسط أعمارهم، يأكلون ولا يتحدثون، ولا ينظرون حولهم، على انفراد تامٍ، كأنهم في بيوتهم. وبينما كان الغداء يشارف على النهاية أشارت اثنتان أو ثلاث من هؤلاء النسوة الأكولات إلى الخدم، ورحن يتحدثن إليهم، وبعد حين عاد الخدم بعينات من الطعام في حقائب ورقية. بدا ذلك جزءاً من أعراف المكان. ربما كان هؤلاء قد أتوا من مكان بعيد، وأرادوا أن يأخذوا الطعام عندما يعودون إلى منازلهم.

عرقياً بدوا متنوعين، متدرّجين من الأسود الصرف، إلى الحنطي

الغامق. عدد منهم لهم ملامح والدي، وهذا ربما كان أحد الأسباب التي جعلتهم يقبلونني. قالت آنا لاحقاً: "لا يعرفون كيف يصنفونك." كان ثمة هنود في البلد، ولم أكن غريباً بالمطلق. وكان ثمة حفنة من التجار الهنود. إنهم يديرون محلات رخيصة، ولم يخرجوا اجتماعياً عن إطار عائلاتهم على الإطلاق. كان هناك تجمع (غواني) قديم وكبير، وهم أناس قدموا بالأصل من الهند، من مستعمرة برتغالية قديمة هناك، كانوا قد أتوا إلى هذا المكان في إفريقيا ليعملوا ككتبة أو محاسبين في قطاع الخدمة المدنية. كانوا يتحدثون البرتغالية بلكنة خاصة. لا يمكن أن يخطئ أحد بي على أنني غواني. لغتي البرتغالية كانت ضحلة وفي بعض الأحيان كنت أتحدثها بلكنة إنكليزية. إذاً، لم يستطع الناس تصنيفي، وسمحوا لي بأن أكون فحسب. كنتُ رجل آنا اللندني، مثلما قالت المربية الصغيرة.

وعن الناس الذي كانوا على الغداء أخبرتني آنا لاحقاً، "إنهم برتغاليون من المرتبة الثانية. هكذا هم مصنفون رسمياً، وهكذا يعدّون أنفسهم. إنهم من المرتبة الثانية، لأنّ معظمهم لديه أجداد أفارقة، مثلي." في تلك الأيام أن يكون المرء حتى برتغالياً من المرتبة الثانية كان يعدّ نوعاً من المنزلة الرفيعة، تماماً مثلما فعلوا على الغداء عندما أبقوا رؤوسهم مطأطأةً وأكلوا، كذلك الأمر في الولاية الاستعمارية، حيث أبقوا رؤوسهم مطأطأةً، وجمعوا من الأموال ما يستطيعون. وكان محتماً أن يتغيّر هذا الوضع في غضون سنوات، ولكن في تلك اللحظة بدا ذاك العالم الاستعماري المنظم متيناً كالصخر للجميع. وكان ذاك هو العالم الذي وجدتُ فيه، أول مرة، القبول التام.

تلك كانت الأيام التي شهدت أعمق علاقة حب مع آنا. أحببتها- في تلك الغرفة التي كانت غرفة جدها، على مرأى من أوراق وأغصان شجيرة المطر الجميلة المتفرعة- من أجل حسن الطالع والتحرر اللذين جلبتهما لي، من أجل طرد الخوف، ومنحي الرجولة الكاملة. أحببت، كما دائماً، جدّية وجهها في تلك اللحظات. كانت ثمة خصلة صغيرة معقوصة من شعرها وكأنها طلعت لتوها من صدغيها. في تلك الخصلة كنت أرى نسلها الإفريقي، وأحببتها من أجل ذلك أيضاً. وذات يوم أدركت أنني طوال الأسبوع الماضي لم أفكر بخوفي تجاه فقدان اللغة والتعبير، والخوف من فقدان هبة الكلام أيضاً.

كانت المزرعة تزرع الليف والبلاذر والقطن. لم أكن أعلم شيئاً عن هذه المحاصيل. ولكن كان هناك مشرف ومراقبون. كانوا يعيشون على بعد نحو عشر دقائق من المنزل الرئيس، باتجاه طريقهم الصغيرة الوسخة، في عنقود من البيوت الإسمنتية الصغيرة البيضاء، ذات السقوف الحديدية المتموجة والشرفات الصغيرة. كانت آنا قد قالت إن المزرعة تحتاج إلى رجل، وأدركت، دون أن يخبرني أحد، أنّ وظيفتي الوحيدة هي أن أطبق سلطة آنا بين هؤلاء الرجال. لم أحاول أبداً أن أفعل أكثر من ذلك، وقد قبلني المراقبون. وأدركتُ أنهم في قبولهم لي كانوا في الحقيقة يحترمون سلطة آنا. وهكذا انسجمنا جميعاً معاً. بدأتُ أتعلم. وشعرت بالمتعة حيال طريقة في الحياة كانت أبعد من أي شيء عرفته أو تصورته لنفسي.

تعوّدت أن أقلق في البداية بخصوص المراقبين. لم يبدُ أنّ لديهم حياة خاصة بهم. كانوا أناساً مختلطين عرقياً، وُلِدَ معظمهم في

الأرياف، وعاشوا في تلك الصفوف من البيوت الإسمنتية. كان فقط إسمنتُ بيوتهم ما يفصل المراقبين عن الأفارقة من حولهم. القش الإفريقي والقصب المضفور كان عادياً؛ أما الإسمنت فيرمزُ للنفوذ. لكن الإسمنت لم يكن عائقاً حقيقياً. كان هؤلاء المراقبون يعيشون حقاً مع الأفارقة. لا توجد طريقة أخرى متاحة لهم. تعوّدت أن أفكر، محاولاً وضع نفسي في مكانهم، في أنهم كانوا يشعرون بحاجة إلى شيء آخر بحكم خلفياتهم المختلطة. كان ثمة البلدة على الساحل. وهي تقدم نوعاً مختلفاً من الحياة، لكنها كانت تبعد أكثر من ساعة في وضح النهار، وأكثر بكثير بعد حلول الظلام. كانت مكاناً للتجوال السريع فحسب. أن يعمل المرء في المزرعة يعني أن يعيش في المزرعة، وكان معروفاً أن الكثير من المراقبين لديهم عائلات إفريقية. وأياً كان الوجه الذي يظهرونه لنا، كانت الحياة التي تنتظرهم في البيت، في تلك المنازل الإسمنتية، حياةً ريفيةً أستطيع التكهّن بها فحسب.

ذات يوم وبينما كنت أستقل السيارة برفقة أحد المراقبين إلى حقل قطن جديد، بدأت بالتحدث إلى الرجل عن حياته الخاصة. كنا في سيارة لاند -روفر، وكنا قطعنا الطريق الترابية مروراً بغابة صغيرة متجنّبين السبخات الأكبر والأغصان الميتة من أشجار ساقطة. كنت أتوقع سماع قصة عن طموح لم يتحقق من المراقب، قصة ما عن أشياء انعكست سلباً، وتوقعتُ التقاطَ استياءٍ خفيف ضد أناس أفضل حالاً في العالم الخارجي. كان المراقب يعتقد أنه مشمول بالبركة. كان قد حاول العيش في البرتغال، بل إنه حاول العيش في مدينةٍ في جنوب إفريقية؛ لكنه عاد أدراجه. ضرب مقود اللاند- روفر براحة يده وقال: "لا أستطيع

العيش في أي مكان آخر." عندما سألت لماذا، قال: "هذا ما نقوم به الآن. لا تستطيع أن تقوم بهذا في البرتغال." سيارات اللاند روفر والحافلات ذات العجلات الأربع كانت جديدة بالنسبة لي؛ كنت ما أزال تحت وقع الإثارة، جراء العبور فوق طريق، والبحث عن مخرج عبر أكمة شبكية رطبة. لكنني شعرت بأن المراقب يكنّ تقديراً أكبر للحياة في هذا المكان؛ استسلامه كان أكثر من مجرد شيء جنسي بسيط كما بدا. وعندما رأيت ثانيةً البيوتَ الريفية البيضاء العفنة نظرتُ إليها باحترام جديد. إذاً شيئاً فشيئاً كنت أتعلم. ليس فقط عن القطن أو الليف أو البلاذر، ولكن عن الناس أيضاً.

تعوّدتُ عبورَ الطريق إلى البلدة. وعرفت المخاريط الصخرية على طول الطريق. كل واحد منها كان له شكله الخاص ويُمثّل نقطة علاّم بالنسبة لي. بعض المخاريط ارتفعت نقيةً عن الأرض. بعضها الآخر علق به حطام صخري على قاعدته، حيث سطح المخروط كان قد تقشّر. بعض المخاريط كان بنياً وعارياً، وأخرى مغطاة بالأشنيات الصفراء على جانب واحد؛ وعلى حواف بعض المخاريط التي تقشرت كان ثمة أعشاب خضراء، بل أحياناً شجرة. المخاريط كانت دائماً جديدة. إنها دائماً بمنزلة المغامرة، بعد أسبوع أو اثنين في المزرعة، العودة بالسيارة إلى البلدة. على مدى ساعة أو أكثر كانت تبدو البلدة جديدة: الحوانيت الكولينيالية، شبابيك المتاجر الصدئة المتداخلة، الحمّالون الأفارقة وهم يجلسون خارج المتاجر بانتظار حمولة ما؛ الشوارع المرصوفة، السيارات والشاحنات، والكراجات؛ السكان بأعراقهم المختلطة، والمجندون البرتغاليون الشبان، من حاميتنا الصغيرة، بخدودهم المتوردة، وهم يضفون على المكان جواً غريباً من أوروبا. كانت

الحامية لا تزال بعد صغيرة جداً؛ والثكنات صغيرة وملساء بلا توعّد، وهي أبنية وطيئة ذات طابقين من الإسمنت الأبيض أو الرمادي، متجانسة مع بقية البلدة. في بعض الأحيان كان ثمة مقهى يرتاده المرء. لكن المقاهي لم تدم في بلدتنا. لم يكن المجندون يملكون النقود، وكان أهل البلدة يفضلون العيش على انفراد.

معظم المتاجر التي كنا نرتادها كانت برتغالية. واحد أو اثنان كانا هنديين. كنت في البداية خائفاً من الذهاب إليها. لم أكن أريد أن أتلقى تلك النظرة من أصحاب المتجر تذكّرني بالوطن والأشياء السيئة. لكن لم يكن ثمة شيء من هذا القبيل البتة، و لا أثر لتعرّفٍ عرقي من العائلة في الداخل. هناك، أيضاً، قبلوا الشخص الجديد الذي صرتُهُ في بلد آنا. لم يبدُ أنهم أدركوا أنني كنت شيئاً آخر ذات يوم. هناك، أيضاً، أبقوا رؤوسهم مطأطأة، وقاموا بما يجب عليهم القيام به. إذاً بالنسبة لي، مثلما كان الأمر بالنسبة للمراقبين، منحني المكان قليلاً من التحرر الإضافي.

في بعض الأحيان كنا نذهب أثناء عطلة نهاية الأسبوع إلى الشاطئ خلف البلدة، حيث يوجد مطعم برتغالي خشن وصغير يقدم السمك والأصداف البحرية المنتشلة لتوها من البحر، مع النبيذ البرتغالي الأحمر والأبيض.

لطالما عدت بالتفكير إلى رعب يومي الأول- تلك الصورة للطريق وللأفارقة السائرين ظلت دائماً معي- وتساءلت كيف الأرض رُوّضت بتلك الطريقة، وكيف يمكن تقطير حياة معقولة كتلك من أفق غير واعد مثل ذاك، وكيف، بشكل ما، عُصِر الدم من الحجر.

كانت الأمور مختلفة قبل ستين أو سبعين عاماً، عندما وصل جد آنا واستولى على بقعة شاسعة من الأرض، كانت قد منحته إياها

الحكومة التي شعرت بضعفها وكانت قلقة- في وجه القوة المتحركة والسكان الأكثر لبريطانيا وألمانيا- بشأن احتلال المستعمرة الإفريقية، التي ادّعتها لنفسها. لابد أن البلدة كانت من أكثر المستوطنات الساحلية الصغيرة قسوةً بسكانها من العرب السود، أولئك الذين ولدوا بعد قرن من الاختلاط العرقي. لابد أن الطريق الداخلية كانت ممراً من التراب. كل شيء كان يُنقل على عربات على مسافة ميلين في الساعة. الرحلة التي كنت أقوم بها خلال ساعة كانت تستغرق يومين. لابد أن بيت المزرعة كان بسيطاً جداً، ولا يختلف كثيراً عن الأكواخ الإفريقية، باستثناء أنه كان مبنياً من الأخشاب وقضبان الحديد المجدولة، مع المسامير والمفاصل الفولاذية، حيث كل شيء كان يُرسل على متن السفينة من العاصمة، ومن ثمّ يوضع في عربات. لم يكن الضوء الكهربائي موجوداً، لا شاشات من الأسلاك الشبكية ضدّ البعوض، لا ماء سوى مياه الأمطار التي تفيض عن السطح. أن يعيش المرء هناك كان يعني أن يعيش على الأرض، شهراً وراء شهر، سنة وراء سنة، ويتكيف مع المناخ والأمراض، ويعتمد كلياً على الناس. ليس من السهل تخيّل ذلك.ومثلما لا يمكن لأي إنسان أن يتمنى أن يكون شخصاً آخر، بما أنه ما من أحد يستطيع تخيل نفسه من دون قلب وعقل مُنحا له، كذلك لا يمكن لأي إنسان من زمن لاحق أن يعرف حقيقةً ماذا يعني أن يعيش المرء على تلك الأرض في تلك الأيام. يمكننا أن نحكم فقط بما نعرف. جدّ آنا، وجميع الناس الذين عرفهم كان بإمكانهم أن يدركوا ما كانوا يعرفونه فحسب. ولابد أنهم كانوا يشعرون بالرضا للعيش مع ذلك الإدراك.

على طول الساحل، عربُ مسقط وعمان، وهم المستوطنون السابقون، أصبحوا تماماً أفارقة. لم يعودوا عرباً، ويُعرفون محلياً فقط بالمحمديين. جدّ آنا، الذي عاش تلك الحياة القاسية على تلك الأرض القاسية، أصبح هو نفسه نصف إفريقي، مع عائلة إفريقية. ولكن بينما لم يتحرك التاريخ على مدى أجيال بالنسبة للعرب الأفارقة على الساحل، وسمح لهم بالبقاء على ما هم عليه، بدأ التاريخ يسرع بشكل غير متوقع بالنسبة لجدّ آنا. كانت ثمة الحرب الكبرى في عام ١٩١٤ في أوربا. وقد استطاع جد آنا في تلك الآونة أن يجمع ثروة. المزيد من المستوطنين خرجوا إلى الأرياف؛ وتطورت العاصمة؛ كانت هناك القطارات، حيث البيض (والغوانيون) يجلسون في المقدمة والسود في المؤخرة خلف حاجز من القماش. تمنى جد آنا، في هذه الفترة، أن يستعيد شخصيته الأوربية التي كان قد خلعها. أرسل كلاً من ابنتيه نصف الإفريقيتين إلى أوربا لمتابعة الدراسة؛ ولم يكن سراً أنه تمنى لهما أن تتزوجا من برتغاليين. وبنى منزله الريفي الكبير، بجدران إسمنتية بيضاء وأرضية إسمنتية حمراء. كانت ثمة حديقة كبيرة في الأمام وعلى الجوانب، وخطٌّ من غرف الضيوف ذات شرفات متفرعة من الشرفة الرئيسة في الخلف. كل غرفة ضيوف كان لها حمّامها مجهزاً بأحدث المعدات العصرية. مقرات الخدم واسعة، وكانت في أقصى الخلف. اشترى الأثاث الكولينيالي الفاخر الذي كان لا يزال حولنا. نمنا في غرفة نومه، أنا وآنا، على فراشه المطرّز العالي. إذا كان من العسير الدخول إلى شخصية الرجل، الذي أصبح نصف إفريقي، فقد كان الأصعب هو الشعور بالراحة تجاه شخصيته اللاحقة، والتي من المفترض أن تكون أسهل على التفسير. شعرت دائماً أنني غريب في المنزل. لم أستطع التعود مطلقاً على الفخامة؛ إذ بدا الأثاث غريباً وغير مريح حتى النهاية.

وإذ كانت خلفيتي دائماً تنغّص عليّ حياتي في حالات كهذه، لم أستطع أن أنسى الأفارقة. جدّ آنا، والآخرون، قساوسة وراهبات تلك البعثة التبشيرية المخيفة، بأزيائهم القديمة الطراز ممن استقروا هكذا في الأرض المفتوحة العارية، كل هؤلاء الناس كانوا يعدّونه شيئاً صحيحاً أن يلووا عنق الأفارقة حسب إرادتهم، ويجبروهم على التكيف مع الطريقة الجديدة. لكَم تساءلت كيف استطاعوا أن ينجحوا في ذلك، وكنت أخشى طرح السؤال. مع ذلك فإن الأفارقة أبقوا بشكل ما على ذواتهم، وعلى الكثير من دياناتهم وتقاليدهم، على الرغم من أن الأرض حولهم تمّ اقتطاعها وزرعها بمحاصيل كانوا ملزمين برعايتها. هؤلاء الناس السائرون على طرفي الطريق الإسفلتي، كانوا أكثر من عمال مزارع. كانت لديهم التزامات اجتماعية لا تقل تعقيداً عن تلك التي عرفتها في الوطن. يستطيعون دون إنذار مسبق الانقطاع عن عمل المزرعة لأيام، والمشي مسافات طويلة ليجروا اتصالاً بروتوكولياً، أو ليأخذوا هدية لأحد ما. عندما يمشون لم يكونوا يتوقفون لشرب الماء، لم يبدُ أنهم بحاجة إليه. في مسائل الأكل والشرب كانوا لا يزالون في تلك الأوقات يتبعون طرائقهم القديمة. كانوا يشربون الماء في بداية النهار، ومن ثمّ في آخره، ولكن ليس أبداً في منتصفه. لم يكونوا يأكلون شيئاً في بداية النهار قبيل ذهابهم إلى أعمالهم، والوجبة الأولى التي كانوا يأخذونها في منتصف الصباح كانت مؤلفة من الخضراوات فقط. كانوا يتناولون ذاك النوع من الطعام الخاص بهم، ومعظم ما يأكلونه كان مزروعاً في المزروعات المختلفة حول أكواخهم. المنيهوت المجفّف كان المحصول الرئيس. ويمكن طحنه وتحويله إلى طحين، أو تناوله كما هو. إصبعان أو

ثلاث منه يمكن أن تكفي حاجة إنسان واحد يقوم برحلة طوال النهار. في أصغر القرى يمكن أن تشاهد الناس يبيعون المنيهوت المجفف من محصولهم الصغير، كيسين أو ثلاثة في كل مرة، مقامرين بحاجتهم خلال ما يأتي من أسابيع.

كان شيئاً غريباً أن يشاهد المرء هذين العالمين المختلفين جنباً إلى جنب: المزارع الكبيرة والبيوت الإسمنتية، والعالم الإفريقي الذي كان يبدو أقل تأثيراً، لكنه الموجود في كل مكان مثل نوعٍ من البحر. كان مثل نسخة من عالمٍ -في حياة أخرى، كما بدا الأمر- سبقَ أن خبرتهُ في الوطن.

بمحض مصادفة غريبة كنت على الطرف الآخر هنا. لكنني تعوّدت التفكيرَ، عندما أتيت لأعرف القصة أكثر، بأن جد آنا لن يحب هذا لو أنه أُخبر في نهاية حياته بأن شخصاً مثلي سيعيش في بيته الريفي، ويجلس على كرسيه الفاخر، وينام مع حفيدته في سريره المطرّز الكبير. كانت لديه فكرة أخرى تماماً عن مستقبل عائلته واسمه. أرسل ابنتيه النصف إفريقيتين إلى المدرسة في البرتغال، وكان الجميع يعرفون أنه أرادهما أن تتزوجا من برتغاليين مناسبين، لكي يتخلص من الميراث الإفريقي الذي أعطاهما إياه خلال الأيام العصيبة، عندما كان يعيش لصيقاً جداً بالأرض، ولم تكن لديه أي فكرة عن العالم الآخر في الخارج.

كانت الفتاتان جميلتين، ولديهما النقود. لم تكن هناك مشكلة بالنسبة لهما، لاسيما خلال فترة الكساد العظيم، العثور على أزواج في البرتغال. واحدة منهن مكثت في البرتغال. الأخرى، وهي والدة آنا، عادت إلى إفريقيا والمزرعة مع زوجها. كانت هناك حفلات وزيارات ودعوات غداء. لم يستطع جدّ آنا أن يشبع تباهياً بصهره. تخلى عن

غرفة النوم، بكل أثاثها الباذخ، للزوجين. ولكي لا يكون عقبةً في الطريق انتقل إلى إحدى غرف الضيوف في الجانب الخلفي من المبنى، وبعد ذلك، وانطلاقاً من إحساس أكبر، انتقل إلى منزل أحد المراقبين على بعد مسافة معينة. بعد فترة من الوقت ولدت آنا. بعدئذ، شيئاً فشيئاً، في تلك الغرفة التي كنت أستيقظ فيها كل صباح، تحول والد آنا إلى شخص غريب. أصبح سلبياً وفاتر الهمّة. لم تكن لديه أية واجبات تجاه المزرعة، لاشيء يحركه، وفي بعض الأيام لم يكن يغادر الغرفة مطلقاً، ولم يكن يغادر السرير. كانت القصة التي انتشرت بين المراقبين المختلطين عرقياً، وبين جيراننا- وقد وصلت إلى أسماعي لا محالة بعد وقت ليس بالطويل من وصولي- بأن الزواج الذي بدا جيداً لوالد آنا في البرتغال، كان أقل جودة في إفريقيا، وهذا ما جعله يمتلئ غيظاً.

كانت آنا على دراية بالقصص التي أشيعت حول والدها. قالت، عندما بدأنا نتحدث عن هذه الأشياء: "كان صحيحاً ما قالوه. لكنه كان فقط جزءاً من الحقيقة. أعتقد أنه ظنّ، عندما كان في البرتغال، وبعيداً عن كل شيء، أعني، بعيداً عن النقود، أن ذلك سوف يساعده، بما أنه خرج بطريقة لا تخلو من امتياز إلى البلد الجديد. لكنه لم يُخلق للغابات. لم يكن في يوم ما رجلاً نشيطاً، ومستوى طاقته انخفض عندما جاء إلى هنا. وكلما قل نشاطه ازداد تواريه في غرفته، وانخفضت طاقته أكثر فأكثر. لم يكن يشعر بأي استياء تجاهي أو تجاه والدتي أو جدي. كان سلبياً فحسب. كان يكره أن يُطلب منه القيام بأشياء بسيطة جداً. أتذكر كيف كان وجهه يتلون بالألم والغضب. كان حقاً شخصاً يحتاج إلى مساعدة. وكطفلة كنت أفكر فيه على أنه رجل

مريض، وغرفة نومه ليست سوى حجرة مريض. جعل هذا طفولتي هنا تعيسة جداً. وكطفلة تعودتُ التفكير في والدي ووالدتي، هؤلاء الناس لا يدركون بأنني، أنا أيضاً، مخلوقة وأحتاج إلى مساعدة. أنا لستُ دمية صنعوها فقط بالمصادفة."

ومع مرور الوقت بدأ والدا آنا يعيشان منفصلين. والدتها عاشت في بيت العائلة في العاصمة، حيث كانت تعتني بآنا التي تدرس في مدرسة الراهبات هناك. وعلى مدى سنوات لم يعلم أحد خارج إطار العائلة بأن ثمة شيئاً غير صحيح. كان ذلك هو العُرف أيام الاستعمار: الزوجة في العاصمة أو في إحدى المدن الساحلية، تشرف على تعليم الأولاد، والزوج يشرف على المزرعة. في العادة، وبسبب هذا الانفصال المتكرر، كان الأزواج يباشرون العيش مع نسوة إفريقيات، ويشكلون عائلات إفريقية. غير أن الشيء الآخر حدث هنا: والدة آنا عثرت على عشيق في العاصمة، وكان رجلاً خليطَ العرق، خادماً مدنياً، ضليعاً في العادات الفخمة، لكنه كان لا يزال خادماً مدنياً. واستمرت العلاقة بينهما وأصبحت معرفة شائعة. جدّ آنا، الذي كان يشارف على نهاية حياته الآن، شعر بالخذلان. ألقى باللائمة على والدة آنا بشأن الزواج السيئ، وكل شيء آخر. شعر بأن دمها الإفريقي استحوذ عليها. وقبل وفاته بقليل غيّر وصيته. أعطى لآنا ما كان ينوي إعطاءه لوالدتها.

آنا الآن في مدرسة اللغة في إنكلترا. قالت: "أردت أن أتحرر من اللغة البرتغالية. أشعر بأن ذلك هو السبب الذي جعل جدي إنساناً محدوداً. لم تكن لديه أي فكرة حقيقية عن العالم. كل ما كان يقدر على التفكير فيه هو البرتغال، وإفريقيا البرتغالية، ومستعمرة غوا،

والبرازيل. في عقله، وبسبب اللغة البرتغالية، كان باقي العالم محجوباً. ولم أكن أريد أن أتعلّم إنكليزيةَ جنوب إفريقيا، وهي اللغة التي يتعلّمها الناس هنا. أردت أن أتعلم الإنكليزية البريطانية."

وفي الوقت الذي كانت تدرس فيه في مدرسة اللغة في أكسفورد، اختفى والدها. غادر بيت المزرعة ذات يوم ولم يعد أبداً. وكان قد أخذ معه قدراً لا بأس به من سعر المزرعة. استخدم ثغرة قانونية معينة ورهن نصف ممتلكات آنا، بما في ذلك بيت العائلة في العاصمة. ولم يكن هناك شك في أن آنا كانت ستدفع النقود التي تحصل عليها، وهكذا كل ما رُهن للبنوك كان قد ذهب إلى البنوك. وكأن كل المراقبين، وكل شخص آخر ارتاب في والدها، على مدى عشرين عاماً، كانوا على حق. كان ذلك عندما طلبت من والدتها وعشيقها أن يأتيا ويعيشا في المزرعة. وقد انضمت إليهما بعد انتهائها من مدرسة اللغة، وقضوا أوقاتاً سعيدة معاً، حتى جاء الوقت الذي حاول فيه العشيق الدخول معها إلى السرير المطرّز الكبير.

قالت: "لكنني أخبرتكَ بهذا في لندن، بطريقة مبطّنة."

كانت لا تزال تحب والدها. قالت: "أعتقد أنه دائماً يعرف ماذا كان يعمل. وأفترض أنه كانت لديه خطة ما من هذا القبيل. لابدّ أن هذا الذي اقترفه احتاج للكثير من التخطيط. لابدّ أنه أجرى الكثير من الرحلات إلى العاصمة، والكثير من اللقاءات مع المحامين والبنوك. لكن مرضه كان حقيقياً أيضاً. الطاقة المنخفضة، والعجز. وقد أحبّني. لم أشك في هذا أبداً. وقبل وقتٍ قليل من لقائي بكَ ذهبتُ لرؤيته في البرتغال. هناك قضى نحبه. كان قد حاول الذهاب إلى جنوب إفريقيا أولاً، لكن ذلك كان صعباً جداً عليه. لم يحب القيام بكل شيء

مستخدماً لغةً أجنبية. كان بإمكانه الذهاب إلى البرازيل، لكنه كان خائفاً جداً. لذلك عاد إلى البرتغال. كان يعيش في كويمبرا، في شقة صغيرة تقع في حي عصري. لكنه كان لا يزال يعيش على نقود الرّهن. لذلك يمكنك القول إنه عقَدَ صفقةً من ذهب. كان يعيش وحدَه. لم يكن هناك أي أثرٍ ليد امرأة في الشقة. كانت شقة ضئيلة وعارية لدرجة أنها خطفت قلبي. كان عاطفياً جداً، ولكن بطريقة ميّتة من نوع ما. في مرحلة ما طلب مني أن أذهب إلى غرفة نومه لإحضار الدواء الموضوع على الطاولة المجاورة لسريره، وعندما ذهبت وفتحت الدرج رأيت صورة كوداك قديمة من قياس ٦٢٠ لي عندما كنت فتاةً صغيرةً. ظننت أنني سأنهار. ولكنني فكرت عندئذ: "لقد خطّط لذلك." تمالكتُ نفسي، وعندما عدتُ إليه كنتُ حريصةً على ألاّ يظهر أي شيء على وجهي. كان يدعو إحدى غرفتيه بالاستديو. حيّرني هذا الأمر، واتضح لي أنه كان قد بدأ بإنجاز منحوتات حديثة صغيرة من البرونز، وهي أشكال صغيرة لأنصاف أحصنة، وأنصاف طيور، وأنصاف أشياء أخرى، طرفٌ أخضر وخشن، وطرفٌ مصقولٌ جداً. في الحقيقة أحببتُ ما أنجزه. قال إنه كان يمضي شهرين أو ثلاثة لإنجاز قطعة واحدة. أعطاني نسراً صغيراً كان قد انتهى منه. وضعته في حقيبتي، ورحت كل يوم أخرجه وأحمله، مستشعرةً طرفيه، الخشن والمصقول. والحقّ أنني على مدى أسبوعين أو ثلاثة كنت أرى فيه فناناً، وكنت فخوراً. ومن ثمّ بدأتُ أرى قطعاً برونزيةً من مثل قطعهِ في كل مكان. كانت نوعاً من التذكارات. كان العمل الذي يقوم به في الاستديو جزءاً من البطالة التي كان يعيشها. شعرتُ بالخجل من نفسي لأنني ظننتُ أنه يمكن أن يكون فناناً، ولأنني

لم أضغط عليه أكثر. ولم أطرح عليه الأسئلة التي كان يجب طرحها. كان هذا قبل وقت قليل من لقائي بك. أظن أنك سترى الآن لماذا خاطبتني قصصك. كل ذاك الخداع، والأوهام، وتلك التعاسة الحقيقية. كان شيئاً غريباً. هذا ما جعلني أكتبُ إليكَ."

لم يسبق لها أن كانت بهذه الصراحة حول القصص، وقد خشيتُ من التفكير في أن أكون قد كشفت عن نفسي أكثر مما أعرف، وفي أنها ربما كانت تعرف دائماً من أنا ومن أكون. لم تكن لدي نسخة من الكتاب، تمنيتُ أن أترك كل هذا وراء ظهري. لكن آنا كانت لا تزال تحتفظ بنسختها. لكنني لم أكن أرغب في النظر إليها، خشية ما قد أجده فيها.

كنتُ جلبتُ معي القليل من الأوراق. كان لدي دفتران للتمارين يحتويان على قصص وبروفات كنت أنجزتها في المدرسة التبشيرية في الوطن. وكان لدي بعض الرسائل من روجر بخطّه المثقّف الجميل؛ ولسبب ما لم أرغب في التخلص منها. وكان لدي جواز سفري الهندي، و ورقتان من فئة خمسة الجنيهات. فكرتُ في تلك على أنها نقود هربي. آنا كانت تنظر إلي كشخص يعيش على الإعانات، وكنت أعرف منذ البداية أنني ذات يوم سأغادر. عشرة جنيهات لم تكن لتأخذني بعيداً جداً، لكنها كانت كل نقودي الاحتياطية في لندن، وفي زاوية ما من عقلي، حيث بعض الحذر الذي ورثته من الأسلاف، كنت قد رسمتُ نصفَ خطة، أو ربع خطة، ظننت أنها ستجعلني على الأقل أبداً. عشرة الجنيهات، وجواز السفر، والأشياء الأخرى، كانت موضوعة في مغلف بني عتيق في الدرج السفلي لخزانة ثقيلة في غرفة النوم.

ذات يوم لم أستطع أن أجد ذلك المغلف. سألتُ أهل البيت؛ وبدورها

سألَت آنا. لكن لم يكن أحد قد رأى شيئاً، أو لديه شيء يقوله. فقدان جواز السفر أقلقني أكثر من أي شيء آخر. من دون الجواز لم أكن أرى كيف يمكن أن أثبت لأي مسؤول في إفريقيا، أو إنكلترا، أو الهند من أكون. بالنسبة لآنا كان كافياً أن أكتب للوطن للحصول على جوازٍ آخر. فكرتها عن البيروقراطية كانت تنحصر بشيء متشدّد وحيادي يطحن ببطء، لكنه مع ذلك يطحن. كنت أعرف طرائق مكاتبنا- وكان سهلاً عليّ أن أعيد ابتكارها في عقلي: الجدران بلون البازلاء الخضراء تشعّ بالسّخام على مستويات الرأس والأكتاف والقاعدة، النجارة العشوائية للطاولات وأقفاص المحاسبين، الأرضية السوداء بفعل القذارة، الكَتَبة، ببناطيلهم، يمضغون العلك، حيث كلّ منهم موشوم على الجبهة بعلامة غضّة كناية عن الطبقة التي ينحدر منها (واجبه الرئيس خلال النهار)، وعلى كل مكتب ثمة مصنفات قديمة بألوان كثيرة ناصلة، حيث نوعية الورق الرديئة التي تتعفّن- وكنت أعي أنني سأنتظر طويلاً في إفريقيا البعيدة، ولا شيء سيأتي. من دون جوازي ليست لدي أوراق اعتماد، ولاحقّ لي على أيّ شخص. سوف أضيع. ولن يكون بإمكاني أن أتحرك. وكلما فكرت في الأمر، ازداد شعوري بعدم الأمان. ومرت أيام وأنا غير قادر على التفكير في أي شيء آخر. بدأ الأمر مشابهاً لأزمتي وأنا أغادر، ماراً بالساحل الإفريقي، عن فقداني لهبة اللغة.

قالت آنا ذات صباح: "كنت أتحدث إلى الطاهية. قالت إنه يجب أن نذهب إلى رجل تعاويذ. هناك شخص مشهور جداً على بعد عشرين أو ثلاثين ميلاً من هنا. إنه معروف في كل القرى. طلبت من الطاهية أن تتصل به."

قلت: "من تظنين أنه يرغب في سرقة جواز سفر ورسائل قديمة؟"

قالت آنا: "يجب ألاّ نفسد الأمر الآن. علينا ألاّ نتكهّن بأيّ أسماء. من فضلك دعني أوجّهك. لا بل علينا ألاّ نفكر في أحد. علينا أن نترك الأمر لرجل التعاويذ. إنه شخص جدّي جداً ويحترم نفسه كثيراً."

قالت في اليوم التالي: "رجل التعاويذ سيأتي بعد سبعة أيام."

في ذلك اليوم عثر خوليو النجّار في ورشته على المغلف البني، وعلى إحدى رسائل روجر. نادت آنا الطاهيةَ وقالت: "هذا جيد. لكن ثمة أشياء أخرى. يجب على رجل التعاويذ أن يأتي." ويوماً وراء يوم مرت الأمور على هذا المنوال مع اكتشافات جديدة- رسائل روجر، دفاتر التمارين المدرسية- في أماكن متعددة. غير أن الجواز وعشر الجنيهات كانت لا تزال مفقودة، والجميع كان يعرف أن رجل التعاويذ قادم. في النهاية لم يأتِ أبداً. قبل يوم من موعد مجيئه عُثر على النقود والجواز في أحد الدروجِ الصغيرة للطاولة. أرسلت آنا نقوداً لرجل التعاويذ مع الطاهية. لكنه أرجعها لأنه لم يأتِ.

قالت آنا: "إنه شيء يجب أن تتذكره. يمكن ألاّ يخاف الأفارقة منك أو مني ، لكنهم يخافون من بعضهم بعضاً. الجميع يستطيعون الوصول إلى رجل التعاويذ، وهذا يعني أن أكثر الناس تواضعاً يملك القوة. بهذه الطريقة هم أحسن حالاً من أي منا."

استرجعتُ الجواز وشعرت بالأمان ثانية. أنا وآنا، كما لو كنا على اتفاق، لم نتحدث عن الموضوع بعد ذلك. لم نذكر أبداً رجل التعاويذ. غير أن الأرض تحركت من تحتي.

* * *

أصدقاؤنا- أو الناس الذين كنا نراهم أثناء عطل نهاية الأسبوع- كانت لديهم بيوتهم الريفية على بعد ساعتين بالسيارة. ومعظم ذلك على طرق ترابية، كل منها لها منعرجاتها وأخطارها (بعض الطرق تلتف حول القرى الإفريقية)، وكل ما يتجاوز مدة الساعتين كان يصعب الوصول إليه. النهار المداري يصل طوله إلى اثنتي عشرة ساعة، والقاعدة في الغابات هي أن الناس على الطرقات يجب أن يحاولوا العودة إلى بيوتهم في الرابعة، وليس بعد الخامسة أبداً. ثلاث ساعات بالسيارة تتخللها ثلاث ساعات لمناسبة الغداء تناسب تقريباً يوم الأحد. كل ما يتجاوز هذا سيكون اختباراً للمقدرة على التحمّل. إذاً كنا نرى الناس أنفسهم. كنت أفكّر فيهم كأصدقاء لآنا، ولم أستطع أن أصل إلى نقطة التفكير فيهم كأصدقاء لي. وربما كانت آنا بدورها قد ورثتهم مع مزرعتها. وأظنّ أن الأصدقاء يمكن أن يقولوا إنهم ورثونا بذات الطريقة. كلنا أتينا مع الأرض.

في البداية رأيتُ هذه الحياة غنيةً ومثيرةً. أحببتُ البيوت، والشرفات العريضة جداً على الجوانب (تتدلى فوقها البوغنفيليا أو كرمة من نوع آخر)، والغرف الداخلية الباردة والمظلمة، حيث يأتي الضوء الباهر، وتصبح الحديقة جميلة- على الرغم من أن الضوء يصبح قاسياً أثناء التعرّض له، مملوءاً بالحشرات القارصة، والحديقة رملية وكأداء، محروقة في بعض أجزائها، وفي بعضها الآخر تهدّد بالعودة إلى الدغل. من داخل هذه البيوت المظلمة والباردة بدا المناخ نفسه كأنه بركَة، وكأن ثراء الناس أحدث تغييراً في الطبيعة، ولم يعد المناخ ذلك الشيء المهدّد الناقل للأمراض كما كان يتصوره جدّ آنا وآخرون في الأيام الأولى.

في البداية تمنيتُ فقط أن أُنقل إلى تلك الحياة الرغيدة والآمنة، وبشكل فاق كل شيء تصورته عن نفسي، بالرغم من أنني كنت أمتلئ بالترقّب عندما أقابل أناساً جدداً، لم أكن أريد أن ألمح الريبة في عيني أحد. لم أكن أريد أسئلة لست قادراً على التعامل معها بينما أنا تصغي. غير أن الأسئلة لم تُسأل، واحتفظ الناس لأنفسهم بشتى الأفكار التي تكون قد خطرت لهم؛ وبين أناس المزارع هؤلاء كانت آنا تتحلّى بالنفوذ. تخليت بسرعة عن أعصابي. ولكن بعد عام أو أكثر بدأتُ أفهم – وقد ساعدني على هذا الفهم خلفيّتي نفسها– أن العالم الذي دخلته كان مجرد عالمٍ منشطرٍ نصفاً بنصف، وأن الكثير من الناس الذين كانوا أصدقاء لنا عدّوا أنفسهم، في العمق، بشراً من المرتبة الثانية. لم يكونوا تماماً برتغاليين، وهنا كان يكمن كل طموحهم.

مع هؤلاء الأصدقاء المنشطرين نصفاً بنصف، كان الأمر يشبه حال البلدة على الساحل. كان الذهاب بالسيارة إلى البلدة مغامرة دائماً، ولكن بعد انقضاء ساعة كان كل شيء يبدو مبتذلاً. بطريقة ما، مشابهة، كان الذهاب صباحاً بالسيارة إلى بيت ريفي لتناول غداء الأحد يبدو منعشاً ومملوءاً بالوعود، ولكن بعد ساعة أو أكثر في البيت مع الناس الذين فقدوا وهجهم، والذين كانت قصصهم مألوفة جداً، لم يكن هناك شيء لنقوله، ونكون سعيدين جميعاً حين نبدأ عملية الأكل والشرب الطويلة، وما أن تحين الساعة الثالثة، حيث تكون الشمس لا تزال عالية، حتى نتوجه إلى حافلاتنا ذات الأربع عجلات، ونعود أدراجنا إلى بيوتنا.

أصدقاء وجيران المزارع هؤلاء، الذين جاؤوا مع الأرض، كنا نفهمهم فقط بالخطوط العريضة. كنا نراهم حسب الطريقة التي اختاروا أن

يقدموا أنفسهم لنا بها، وكنا نرى ذات الجزء من الشخص في كل مرة. أصبحوا مثل أناس يمكن أن ندرس عنهم في المدرسة، حيث يمثل كل واحد منهم "شخصيةً"، وكل شخصية يمكن أن تُختزل إلى بضع نقاط.

أفراد عائلة كوريا، على سبيل المثال، كانوا فخورين باسمهم الأرستقراطي. كانوا أيضاً ممسوسين بالمال. كانوا يتحدثون عنه طوال الوقت. عاشوا مع فكرة تقول إن كارثةً ما على وشك الوقوع. لم يكونوا يعلمون أي نوع من الكوارث ستكون، وهل هي محلية أم عالمية، ولكنهم كانوا يشعرون بأنها ستقضي على حسّهم بالأمان في كلّ من إفريقيا والبرتغال. ولذلك كانت لديهم حسابات مصرفية في لندن ونيويورك وسويسرا. وكانت الفكرة من وراء ذلك أنه عندما يحل الزمن الرديء، سيكون لديهم "مغلف" من الأموال الجاهزة في مكان واحد على الأقل من هذه الأمكنة. وقد تحدثت عائلة كوريا عن هذه الحسابات المصرفية إلى كل شخص. في بعض الأحيان كانوا يبدون سذّجاً، وفي أحيان أخرى متفاخرين. والحق أنهم كانوا يريدون أن ينقلوا للآخرين رؤيتهم عن الكارثة القادمة، وأن يشيعوا ذعراً خفيفاً بين أصدقائهم في الريف، ومردّ ذلك شعورهم فقط بأنهم من خلال حيطتهم حيال الحسابات المصرفية سيبدون بعيدي النظر، وسباقين للجميع.

كان ريكاردو رجلاً ضخماً عسكري الهيئة، بشعره الأشيب وحلاقته العسكرية على طراز البحّارة. كان يحب ممارسة لغته الإنكليزية معي، وكانت لديه لكنة جنوب إفريقية ثقيلة. كان الرجل الضخم يعيش حزناً شخصياً عظيماً. كانت ابنته تَعِدُ بموهبةٍ غنائية. كل من سمعها في المستعمرة ظنّ أنها متفرّدة وتملك ما يخولها أن تصبح نجمةً في أوربا.

ريكاردو، الذي لم يكن ثرياً، باع بعضاً من أرضه وأرسل الفتاة إلى لشبونة للتمرين. هناك بدأت تعيش مع إفريقي من أنغولا، تلك المستعمرة البرتغالية على الطرف الآخر من القارة. كان ذلك نهاية موهبة الفتاة الغنائية، ونهاية تواصلها مع عائلتها، ونهاية كرامة والدها وأمله؛ وراح ريكاردو يحطّم كل الأشرطة التي كان يحتفظ بها لأغاني ابنته. البعض قال إنه ضغط على ابنته بقسوة كبيرة، وإن الفتاة تخلت عن غنائها حتى قبل أن تقابل الإفريقي. في أحد أيام الأحد على الغداء راح مضيفنا يُسمعنا شريطاً للفتاة وهي تغني. حدث هذا (مثلما عرفت أنا وآنا، حيث أُخبرنا بذلك مسبقاً) ليس بقصد جرح ريكاردو، بل لتكريمه وتكريم ابنته، ولمساعدته على التغلب على حزنه. كان مضيفنا قد عثر على الشريط الخالي من العلامات في منزله، وكان قد قام بتسجيله بنفسه، لكنه نسي ذلك. والآن كنا جميعاً نستمع إلى الفتاة تغني بالإيطالية ومن ثم بالألمانية، وسط نهار قائظ، حيث الضوء باهر في الخارج. وجدت الأمر مؤثراً (على الرغم من أنني لا أعرف شيئاً عن الغناء) فيَّ أن يكون ذلك النوع من الطموح والموهبة يخصّ شخصاً عاش هنا. ولم يُظهر ريكاردو أي امتعاض. كان ينظر إلى الأسفل، منتحباً، ومبتسماً بفخر قديم، بينما كانت ابنته تغني في الشريط بصوت وآمال عدة سنوات انقضت للتو.

كان أفراد عائلة نورنها ذوي دمٍ أزرق، أو برتغاليين من سلالة صافية. كان الرجل صغير البنية ونحيلاً، وقيل إنه كان رجلاً مولّداً، لكنني لم أكن أعلم إلى أي مدى كان ذلك صحيحاً. أما هي فكانت مشوهة أو مُقعَدة بطريقة ما- لم أسمع عن السبب أبداً، ولم أكن أرغب

أبداً بالسؤال- وعندما كانت تأتي وتختلط معنا، كانت تأتي على كرسي متحرك يدفعه زوجها. كانوا يأتون إلى عالمنا المنشطر نصفاً بنصف، بأقصى مشاعر التلطّف. إنهم يعرفون البلد، ويعرفون أين يقفون، وأين نقف نحن. كان بالإمكان أن يشعر المرء بأنهم يكسرون القواعد، فقط لأن السيدة مُقعَدة ويجب تكريمها. لكن الحقيقة هي أنهم كانوا يأتون إلينا بسبب مواهب السيدة نورنها الخاصّة. كانت "عرّافة". وكان زوجها، الرجل المولّد، فخوراً بهذا الجانب في زوجته. عندما كانوا يدلفون من باب بيت ريفي، في يوم أحد على الغداء، كان الزوج يدفع بكرسيها المتحرك الضخم بتكبّرٍ ملحوظ يظهر على وجهه النحيل البرم. لا أحد، حتى آنا، سبق أن أخبرني بأن السيدة نورنها كانت تمتلك هذه الموهبة الحدسية. كانت الموهبة تسمح لنفسها بأن تُحسّ فقط، حيث كانت تتجلى بأبسط الطرق، لدرجة أنني لم ألحظ شيئاً في المرات الأولى القليلة. حتى يدرك المرء هذه الموهبة، عليه أن يعرف شيئاً عنها. أحدهم يمكن أن يقول على سبيل المثال: "أريد أن أذهب إلى لشبونة في آذار المقبل." والسيدة نورنها، متكورة داخل كرسيها، ستقول بنعومة، ودون أن تتوجه إلى أحدٍ بعينه، "إنه ليس وقتاً جيداً. أيلول أفضل." ولن تقول المزيد أو تقدم أيَّ تفسيرات؛ ولن نسمع أبداً عن أية رحلة إلى لشبونة في آذار. ولو أنني- فقط من أجل التوضيح- لو أنني قلت، وأنا جاهل بمواهب السيدة: "لكنّ آذار في لشبونة سيكون جميلاً،" لقال السيد نورنها بتقزز يظهر في عينيه الدامعتين، نتيجة هذه المعارضة: "ثمة أسباب وراء كونه وقتاً غير جيد،" وستشيح زوجته بوجهها الشاحب دون أن يظهر عليه أي تعبير. شعرتُ أن باطنيتها، مقرونةً بعجزها، وكون

زوجها مولداً، جعلت منها طاغيةً. كان بإمكانها أن تقول أي شيء، ويمكنها أن تكون متبرّمة وساخطة كما تشاء، ولثلاثة، أو أربعة، أو خمسة أسباب معقولة، لم يكن يجرؤ أحد على استجوابها. وكنت ألاحظ من حين لآخر نوبات ألمٍ تنتابها، لكنني لم أكن أشعر إلا أنها، حالما تعود مع زوجها إلى البيت، تنهضُ من كرسيها وتكون بحالة جيدة تماماً. كانت تقدم استشارات عِرافية كاملة. استشاراتها لأناس معينين وهي ليست رخيصة. وتلك الزيارات إلى أهل المزارع المنشطرين نصفاً بنصف، الذين كانوا سريعي التأثر بشكل أو بآخر، ساعدت على قهر العُرف.

أنا وآنا كانت لنا أيضاً شخصيتنا. وبما أنه لا يمكن لأحد أن يرى نفسه، كنت متأكداً من أننا كنا سنُدهش وربما نُجرَح- تماماً مثلما ستُدهش وتُجرح عائلات كوريا وريكاردو ونورنها- بما سيراه الآخرون.

أسلوب الحياة في المزارع ابتدأ في عام ١٩٢٠ بعد الازدهار الذي أعقب الحرب. وقد كرس نفسه كواقع خلال الحرب العالمية الثانية. ولذلك كان بالمقارنة جديداً؛ ويمكن حصره داخل حياة أو مرحلة نضج شخصٍ بعينه. لم يتبقّ لي وقت طويل للمكوث الآن، وأتساءل عما إذا كنا في دائرتنا قد مُنحنا جميعاً (وليس فقط عائلة كوريا الدرامية) بعضاً من الهواجس المنغّصة والتي أقصيناها جانباً تحسباً لانخداعنا القادم بإفريقيا ذات يوم. مع ذلك لا أظن أنه كان بمقدور أحد أن يتكهّن بأن عالم الإسمنت سيُستبدل تماماً بالعالم القديم والضعيف للقشّ.

كنا نذهب أحياناً لتناول غداء الأحد في المطعم الخشن على الساحل أثناء عطلة نهاية الأسبوع. كان يقدم طعاماً بحرياً أُعدّ ببساطة، وكان المطعم قد بدأ بالتحسّن، حيث صار أقل خشونة. عندما ذهبنا في أحد

أيام الأحد، وجدنا الأرضية مكسوة بالآجرّ بطريقة الآرابيسك الملون بالأزرق والأصفر بحيث أصبنا بالدهشة. كان عامل الآجرّ رجلاً خلاسياً بعينين فاتحتين واسعتين. ولسببٍ مجهول- ربما لأنه لم ينجز العمل في الوقت المحدد- كان يتعرّض للشتم والسباب من قبل المالك البرتغالي للمطعم. معنا، ومع زبائنه الآخرين، كان المالك مؤدباً كعادته؛ لكنه بعدئذ، ومع تقلّبٍ في الشخصية والمزاج، كان يعود إلى شتم عامل الآجرّ. وعند كل صيحة كان الرجل ذو العينين الواسعتين الفاتحتين يحني رأسه،كمن يتلقّى ضربةً. كان يتصبب عرقاً، وبدا أن السبب أكثر من مجرد الحرارة. استمرّ الرجل بعمله الدقيق، يفرش الملاط الرقيق الذي يجفّ بسرعة، ومن ثمّ يضغط وينقر بشكل خفيف على كلّ آجرّة برتغالية جميلة، ويضعها في مكانها. كان العرق يتصبب على جبهته السمراء الشاحبة، ومن حينٍ لآخر كان ينفضُه مثل دموعٍ من عينيه. كان يرتدي بنطلوناً قصيراً يضيق عند فخذيه المفتولتين كلما جلس القرفصاء. التواءات وأثلام صغيرة من الشعر الخشن كانت تظهر على فخذيه، وعلى وجهه، حيث الحلاقة الناعمة خدّدت البشرة بالبثور. لم يردّ أبداً على صيحات المالك، إذ كان يستطيع بكل سهولة أن يطرحه أرضاً. كان فقط يستمرّ بعمله.

أنا وآنا تحدثنا لاحقاً عما كنا قد رأيناه. قالت آنا: "عامل الآجرّ ليس شرعياً. لابدّ أن والدته إفريقية. كان والده بشكل مؤكد تقريباً مالكاً كبيراً للأراضي. لابدّ أن رجل المطعم يعرف ذلك. البرتغاليون الأثرياء حرصوا على أن يتعلم أولادهم الخلاسيون غير الشرعيين حرفاً معينة. ثمة الكهربائي، والتقني، وعامل المعدن، والنجار، وعامل الآجرّ. مع ذلك معظم عمال الآجر هنا قدموا من شمال البرتغال."

لم أقل المزيد لآنا. ولكن كلما تذكرتُ الرجل الضخم المتعرّق بعينيه الفاتحتين المهانتين، حاملاً عار ولادته على وجهه كالوشم، كنت أفكّر: "مَنْ سينقذ ذلك الرجل؟ مَنْ الذي سينتقم له؟"

ومع مرور الوقت أصبحت العاطفة ممزوجةً بأشياء أخرى. لكن الصورة بقيت. كانت جزءاً من هاجسي الخاص عما سيحدث. وفي سنتي الثالثة عندما بدأت الأخبارُ تتسرب إلى صحفنا الموجّهة عن حوادث كبيرة على الطرف الآخر من القارة، كنت نصفَ جاهزٍ لها.

كانت الأخبار عظيمة جداً بحيث يصعب كبحها. من الممكن أن السلطات أرادت في البداية أن تبقيها طيّ الكتمان، ولكنها ذهبت في الاتجاه الآخر، وبدأت تشيع الرعب. كانت ثمة انتفاضة في إحدى المناطق، وقتل جماعي للبرتغاليين في الريف. مئتان، ثلاثمائة، وربما أربعمائة ماتوا، وقد قضوا طعناً بالمُدى. تخيلتُ أفقاً مثل أفقنا (بالرغم من أنني كنت أعرف أن ذلك خطأ)، وأفارقة مثلنا، أكواخهم وقراهم ومزروعاتهم من الذرة والمنيهوت تمتدّ في الفضاءات بين المزارع الكبيرة: هكتارات متكررة وأنيقة من الليف والبلاذر، مزارع المواشي الشاسعة الخالية من الأشجار تنداح مثل برارٍ معزوقة للتو، تتخللها جذوع سوداء لأشجار ضخمة هوت، أو أحرقت للحيلولة دون أن تصبح ملاذاً للذباب الذي كان يعيش على الماشية. نظام ومنطق؛ والأرض أصبحت أكثر نعومةً؛ غير أن الصورة، التي رسمتها، إبان يومي الأول، لأناسٍ رقيقي العظام يمشون دائماً بمحاذاة الطريق، بدت متوعّدة وكالحلم، وهي تقول لي إن المكان الذي أتيتُ إليه كان بعيداً جداً. الآن بدت الصورة تجسيداً للنبوءة.

غير أن الأفارقة حولنا بدوا كأنهم لم يسمعوا شيئاً. لم يحدث أي تغيير على سلوكهم. ليس في ذاك اليوم، ليس في الأسبوع التالي، أو الشهر التالي. كوريا، الرجل صاحب الحسابات المصرفية قال، إنّ الحالة الاعتيادية نذير شؤم، وثمة ثورة مرعبة تحضّر نفسها هنا أيضاً. غير أن الحالة الاعتيادية ظلت معنا طوال السنة، وبدا أنها ستستمر على الأرجح. وكل الاحتياطات التي أخذناها- أسلحة وهراوات بمتناول أيدينا في غرف النوم: وهي عقيمة في حال نشب شيء يشبه العصيان، أو التمرّد في صفوف الخدم- بدأت تبدو مبالغاً فيها.

كان ذلك عندما بدأتُ التعلّم على استخدام السلاح. ووصل خبر لنا ولجيراننا مباشرة بأننا نستطيع أن نتلقى التعليمات في حقل الرماية التابع للشرطة في البلدة. لم تكن الحامية الصغيرة تمتلك ذلك الحقل، وهي غير جاهزة أبداً في حال نشوب حرب. كان جيراننا متلهفين، لكنني لم أكن أريد أن أذهب على نحوٍ خاص إلى حقل الشرطة. لم أرغب مطلقاً أن أحمل سلاحاً. لم يكن هناك شيء يشبه فيلق طلاب عسكريين في المدرسة التبشيرية، أما خوفي- الأعظم من خوفي على الأفارقة- فهو أنني كنت سأجعل من نفسي شخصاً أحمق أمام الناس المهمّين. ولكن، وأمام دهشتي الكبرى، شعرتُ بالانبهار عندما نظرت من فتحة البندقية أول مرة وإصبعي على الزناد. بدت لي من أكثر اللحظات خصوصية وعمقاً في التحدث مع الذات، إن جاز التعبير، لحظة اتخاذ القرار في أقل من جزء من الثانية وهي تروح وتجيء كأنما تستجيب تقريباً لنشاط عقل المرء. لم يكن ذلك على الإطلاق ما توقعته. شعرت بأن الإثارة التي يُفترض أن تأتي إلى الناس الذين يتأملون على لهب

شمعة واحدة في غرفة غارقة في الظلام، لم تكن أعظم من المتعة التي شعرت بها عندما نظرت من فوهة التسديد، وصرت قريباً جداً من عقلي ووعيي. في غضون ثانية يمكن لميزان الأشياء أن يتبدل، ويمكن أن أضيع في غياهب شيء يشبه الكون الخاص. كان ذلك غريباً وأنا في حقل الرمي في إفريقيا أفكّر بطريقة جديدة في والدي وأجداده البراهميين، وبالخدم المتضورين في المعبد العظيم. اشتريتُ بندقية. ورحت أنصب أهدافاً في أرجاء بيت جدّ آنا، وأتدرب كلما سنحت لي الفرصة. بدأ جيراني ينظرون إلي بتقدير جديد.

أخذت الحكومة وقتها، ولكن الأمور بدأت بالتحرك. ازداد عدد أفراد الحامية. كانت هناك ثكنات جديدة على ارتفاع ثلاثة طوابق مبنية من الإسمنت الأبيض الساطع. المعسكر أو المنطقة العسكرية بدأت بالتوسع، إسمنت صرف على رمال عارية. في الأنحاء توزّعت علامات عسكرية مختلفة تشي بأننا صرنا معقلاً لقيادة عسكرية جديدة. حياة البلدة تغيرت.

* * *

كانت الحكومة متسلّطة. ولكن في معظم الأحيان لم نكن نفكر فيها بتلك الطريقة. شعرنا بأن الحكومة بعيدة جداً، وهي شيء ما في العاصمة، وشيء ما في لشبونة. كان تأثيرها فينا هنا خفيفاً. كنت أتحسّب لها فقط في أوقات حصاد الليف، عندما كنا نقدم طلباتنا للسجون. والحكومة، حسب تقديراتها، كانت ترسل المحكومين (تحت

الحراسة) لحصاد الليف. حصاد الليف كان عملاً محفوفاً بالمخاطر. الأفارقة الجبليون لم يكونوا يريدون القيام به. الليف نبات يشبه صباراً كبيراً أو نبتة الأناناس، أو مثل زهرة خضراء ضخمة شائكة، يصل ارتفاعها إلى أربعة أو خمسة أقدام، ولها أوراق نصلية لينة وكثيفة عوضاً عن التويجات. لأوراقها حوافٌ منشارية قاطعة، بحيث يخشى المرء أن تمسّ يده بطريقة خاطئة، وهي كثيفة جداً عند القاعدة. وهي نباتات خطرة وسمجة عند التعامل معها ويصعب قطعها وفصلها. النقطة الطويلة السوداء على ورقة الليف النصلية حادة كالإبرة وسامّة. الفئران موجودة بوفرة في مزارع الليف، فهي تحبّ الظلّ وتتغذى على لبّ الليف، والأفاعي السامة تأتي وتتغذى على الفئران، إذ تقوم ببلعها بالكامل، وببطء شديد. من المرعب أن ترى نصفَ فأر، رأسَه أو ذيله، عالقاً في فم أفعى منتفخٍ، ولا يزال على قيد الحياة. مزرعةُ الليف مكانٌ مرعب، وكانت بمنزلة القاعدة (أو هو إجراؤنا فحسب) أن تقف ممرضة طبية عن كثب، ومعها الأدوية والسيرومات المضادة للدغة الأفعى أثناء قطع الليف. ذاك العمل الخطر؛ حيث خمسة بالمئة فقط من لبّ الليف يمكن تحويله إلى ألياف؛ وتلك الألياف رخيصة وتُستخدم لأشياء عادية من مثل الحبال، السلال وخيطان الصندل. ولولا مساعدة المحكومين لكان من الصعب جنيُ ليفنا. وحتى أثناء ذلك الوقت كان الليف الصناعي قد بدأ يحلّ محلّه. لم أكترث أبداً.

لم يكن هناك أي تحدّ لحكومتنا المتسلّطة، السهلة الانقياد في ذات الوقت لعدد من السنوات، وقد نمت لتصبح بغرابة حكومة كسولة. وسط أمنهِ العظيم، أصبحَ الحاكم يشعر بأن تفاصيل الحكم مجرد عبء، أو

هكذا بدت، إضافة إلى أنه وفّر، أو رهَنَ، نشاطات حكومية مهمّة إلى أناس متشوقين حيويين ويحفظون الولاء. هؤلاء الناس أصبحوا أثرياء جداً، وكلما ازدادوا ثراءً، قويَ ولاؤهم، وأدوا بصورة أفضل أعمالهم التي فُصّلت لهم. إذاً، كان ثمة نوع من الفاعلية، والمنطق الوعر، في هذا المبدأ للحكومة.

مبدأ من هذا القبيل كان ينشط الآن في نمو الحامية وتطور بلدتنا. كان السلام مستمراً. لم يعد الناس يعيشون فكرة الخطر. مع ذلك كانت الأموال تأتي سنة تلو سنة. لقد مسّتنا جميعاً. شعرنا بأننا كوفئنا وأننا أتقياء. الكل راح يحصي ربحه مرات عدّة. وتبيّن فيما بعد أن الأموال الجديدة كانت تمسّ صديقنا كوريا أكثر من أي أحد آخر في المجموعة، كوريا البارع الذي حاول لسنوات أن يُفزِعَ الناس برؤيته عن الكارثة، بينما كان يملك عدداً من الحسابات المصرفية في الخارج. كوريا هذا اتصل بشخص عظيم في العاصمة، وأصبح (بينما كان يدير مزرعته) وكيلاً في بلدتنا أو الإقليم، بل ربما في البلد، لعدد من الصناعيين الأجانب حول أشياء تقنية ليست على الأرجح رنّانة. في البداية أحبّ كوريا أن يتفاخر بقربه من الرجل العظيم الذي كان برتغالياً حقيقياً. من الواضح أنّ الرجل العظيم كان لديه الكثير مما يفعله بوكالات كوريا، وتحدثنا فيما بيننا بطريقة ساخرة وبحَسَد حول هذه العلاقة غير العادية. هل سعى كوريا للوصول إلى الرجلِ؟ أم أنّ الرجل العظيم، لسبب معين خاص، ومن خلال وسيط ما، (ربما تاجر في العاصمة) اختار كوريا؟ ولكن لا يهم كيف حصل الأمر. كوريا سجّل النقاط. كان فوقنا بمسافات.

تحدث عن الرحلات إلى العاصمة (جواً، وليس بوساطة سفن

الساحل العتيقة النتنة التي كان معظمنا لا يزال يستخدمها)؛ تحدّثَ عن حفلات الغداء والعشاء مع الرجل العظيم، ومرةً عن عشاء في بيت الرجل العظيم. وبعد فترة تحدث كوريا أقل من المرات السابقة عن الرجل العظيم. بدأ يتظاهر، عندما يكون معنا، بأن أفكار عمله هي أفكاره الخاصة، وكان علينا أن نتظاهر معه. وعلى الرغم من أنه كان يستظهر الشركات الأجنبية المتورط معها، والأشياء التقنية الرنانة التي كان يستوردها، أشياء يمكن للجيش أو للبلدة أن تحتاج إليها ذات يوم، وجدت نفسي مدهوشاً تجاه القليل الذي أعرفه عن العالم الحديث، ومدهوشاً في ذات الوقت للسهولة التي كان كوريا (الذي كان حقاً يعرف عمل المزارع) يشقّ بها طريقه في العالم.

أصبح كوريا صيدنا الكبير. عندما عرف أن الغيرة انخفضت، ولم يعد أي منا، أصدقاء وجيران، يثرثر حول موقعه الجديد، أصبح بغرابة متواضعاً. قال لي في يوم أحد: "يمكنك أن تفعل ما أفعله يا ويلي. إنها مسألة شجاعة فحسب. دعني أخبرك. لقد أمضيتَ وقتاً لا بأس به في إنكلترا. تعرف محلات البوتس. نحن هنا نحتاج إلى الأشياء التي يصنعونها، الأدوية وأشياء أخرى. ليس لديهم وكيل. يمكنك أن تكون الوكيل. إذن يجب أن تكتب لهم. سوف تزودهم بالإحالات التي يطلبونها، وعندئذ ستباشر العمل. عليك أن تبدأ التفكير بطريقة مختلفة. لا يمكنك أن تكتب إلى أناس على شاكلة البوتس، وأنت تظن أنهم يريدون أن يعملوا معك لمدة سنة ويوم فقط." وحسبتُ، من الطريقة التي تكلم بها، أنه، هو ومديره، كانا قد انخرطا بكل جدية في عمل البوتس، ولم يحصلوا على شيء منه.

في أحد أيام الأحد قال إنه بدأ يفكّر في تمثيل صاحب مصنع

مشهور لطائرات الهليوكبتر. قال إن الفكرة خطرت له على نحوٍ مفاجئ تماماً- عندما كان يقود سيارته على الطريق إلى الساحل. تحدث عن طائرات الهليوكبتر على مدى عدة أسابيع. بعدئذ قرأنا في الصحف الموجّهة- في خبر لم نكن لنعيره انتباهاً لو لم نكن نعرف كوريا- أنه تم الحصول على عدد من الحوّامات، و لكن من طراز مختلف عن ذاك الذي تحدث عنه كوريا. لم نسمع منه فيما بعد أي شيء عن طائرات الهليوكبتر.

إذاً أصبح كوريا ثرياً- مصلحة الطائرات لم تكن إلا هفوةً- وكان يتحدث وزوجته بطريقتهما الساذجة عن أموالهما. مع ذلك كانت لا تزال فكرة الكارثة الوشيكة الوقوع في بالهما. ثروتهما الجيدة جعلتهما قلقين أكثر من أي وقت مضى، وقالا إنهما قررا ألاّ ينفقا أموالهما في المستعمرة. الشيء الوحيد الذي قاما به هو شراؤهما لبيت على الشاطئ، ليس بعيداً عن المطعم الذي تعوّدنا الذهاب إليه، في منطقة لقضاء العطلات كانت تشهد انفتاحاً سريعاً. فعلا ذلك كنوع من "الاستثمار". كانت تلك إحدى كلماتهما الجديدة. أسّسا شركة أطلقا عليها اسم استثمارات جاكار، وقد وزّعا علينا، مثلما فعلا لأقاربهما في الريف الذين تَركاهُمْ خلفهما، بطاقات مطبوعاً عليها بشكل فاخر الاسم الذي يجمع عناصر من اسميهما الأولين، جاسينتو وكارلا. سافرا كثيراً بسبب عملهما الجديد، ولكنهما الآن لم يكونا فقط يفتحان حسابات مصرفية جديدة. بدأا يفكران بالحصول على "أوراق" لأمكنة عدّة- ما جعلنا نشعر أكثر بالتأخّر خلفهما- ومن أجل رحلاتهما رتبا الأمور في القطار: أوراق إلى أستراليا، أوراق إلى كندا، أوراق إلى الولايات المتحدة، أوراق إلى الأرجنتين والبرازيل. بل إنهما تحدثا- كارلا تحدثت في أحد أيام الأحد-

عن الذهاب والعيش في فرنسا. كانا قد عادا لتوهما من هناك، واشتريا زجاجة من النبيذ الفرنسي المشهور من أجل غداء الأحد. كان ثمة نصف كأس لكل شخص، وكل واحد منا كان يأخذ رشفة، ويقول ياله من نبيذ جيد، على الرغم من أنه كان لاذعاً جداً. قالت كارلا: "الفرنسيون يعرفون كيف يعيشون. شقة على البنك اليساري، وبيت صغير في الريف- هذا ما كنت أقوله لجاسينتو." ونحن الذين لم يسبق لنا أن ذهبنا إلى فرنسا احتسينا النبيذ اللاذع كأنه السمّ.

بعد بضع سنوات من هذا- عندما بدا أنه لا نهاية لنجاحات عائلة كوريا، مادام الجيش موجوداً هناك، والبلدة تنمو، والرجل العظيم في مكانه في العاصمة- بعد بضع سنوات نشبت هناك أزمة. عرفنا ذلك من سلوك عائلة كوريا. كانا يقودان السيارة على مدى ساعة ونصف كل صباح إلى الكنيسة التبشيرية ويسمعان القداس. ثلاث ساعات قيادة، وساعة قداس، كل يوم، والله يعلم كم من الصلوات أو العبادات أو غيرها في المنزل: لم يكن السلوك من النوع الذي يمكن للمرء أن يبقيه سراً. جاسينتو كوريا أصبح شاحباً ونحيلاً. فيما بعد قرأنا في الصحف الموجهة أن تجاوزات معينة تم الكشف عنها تتعلق بجانب المشتريات. لعدة أسابيع سمحت الصحف للفضيحة بالانتشار، وبعدها أصدر الرجل العظيم، البرتغالي الأصل، الذي كان قد ارتبط كوريا معه، بياناً في المجلس المحلي التنفيذي. في كل شيء يتعلق بالخير العام، قال الرجل العظيم، يجب على الحكومة أن تكون في أشد التيقظ، وقد عقد العزم، بدون خوف أو منّة، للوصول إلى قعر ما حدث على الجانب الشرائي. المذنب يجب أن يُقدّمَ للقضاء، لا أحد يجب أن يشك في ذلك.

كان ذلك هو الجانب الآخر من الدولة المتسلطة السهلة الانقياد، وكنا نعرف أن عائلة كوريا في ورطة عميقة، وأنه لا الحسابات المصرفية في المدن الكبيرة، ولا الأوراق الخاصة بالبلدان الكبيرة، يمكن أن تنقذ هؤلاء. كان الظلام هنا ظلاماً.

قالت كارلا المسكينة: "لم أكن أريد هذه الحياة أبداً. الراهبات سيقلن لك. أردتُ أن أكون راهبة."

وعرفنا عندئذ- كان شيئاً لطالما تحدثنا عنه لسنوات فيما بيننا- لماذا اختير كوريا من قبل الرجل العظيم. كان فقط من أجل تلك اللحظة، عندما كان على الرجل العظيم أن يرمي بشخص ما إلى الظلام. أن يحطم برتغالياً مثله يعني أن ينسف الانتماء الطبقي حسب العرف المعمول به في المستوطنة، وبالتالي يشوه سمعته. لم تكن هناك مشكلة في رمي شخص من المرتبة الثانية إلى الظلام، شخصٌ ينتمي إلى عالم منشطرٍ نصفاً بنصف، مثقفٌ ومحترمٌ ومجتهدٌ، وضليعٌ بصورة استثنائية بأمور المال، وجاهزٌ للقيام بكل ما يُطلب منه لأسباب عدّة.

على مدى ثلاثة أو أربعة شهور عاشت عائلة كوريا في هذا العذاب. ولطالما حلمت العائلة بأيام أكثر بساطةً، قبل الوكالات، وراحت توبخ نفسها طوال الوقت. قلوبنا ذهبت معهم، غير أن بؤسهم جعل منهم أناساً مملين. جاسينتو تحوّل إلى شخص معطوب يعيش مع علته كمن يلازم عدواً، ولا يفكر في أي شيء آخر. بعدئذ، وعلى حين غرة، انتهت الأزمة. وجد صاحب جاسينتو، أي الرجل العظيم في العاصمة، طريقة للفوز على غريمه الذي كان سبباً بكل هذا الضرر. وعلى إثر ذلك توقفت الصحف عن نشر مقالاتها المسمومة، وفضيحة المشتريات (التي كانت موجودة فقط في الصحف) انتهت بكل بساطة.

لكن لم تكن تلك نهاية القلق عند جاسينتو. كان قد مُنح فكرةً عن الطرق غير الأكيدة للقوة. عرف الآن أنه ليس ممكناً دائماً أن يحظى بحماية الرجل العظيم، ومن ثمّ يمكن لأسباب عدة أن يفكر أحدهم بفتح القضية من جديد ضده. إذاً، كان يعاني. وبشكل ما كان ذلك غريباً، بما أننا على مدى سنوات سمعنا جاسينتو يتحدث (أحياناً بحماسة) عن كارثة ستحلّ، وعن شيء ما يكتسح حياة المستعمرة ، ويكتسح عالمه برمته. رجلٌ عاش بسهولة مع تلك الفكرة (وأحب أن يُفزِعَ الناس بها) كان عليه ألاّ يخشى حفنةً من الناس المنتقمين في العاصمة- بما أن الجميع، على أيٍّ حال، محكوم بالقدر. غير أن الحدث الذي تصوره جاسينتو، وكان سيجرف كل شخص وكل شيء، لم يكن سوى دجل فلسفي. وحالما ينظر المرء إلى المسألة، يرى أنها غامضة جداً. لقد كانت حقاً فكرة أخلاقيةً وطريقة في غفران الذات، بل أسلوباً للعيش في المستعمرة، وفي ذات الوقت للوقوف خارجها. إنها تجريد فحسب. لكن الخزي الذي كان يخشاه لم يكن تجريدياً. كان حقيقياً، ومن السهل تصوره في كثير من تفاصيله؛ وكان شخصياً أيضاً. كان أمراً سيقع فوق رأسه وحده، ويترك بقية العالم الحلو برمّته دون أن يمسّه شيء.

في أحد أيام الأحد، عندما جاء دورنا لتحضير الغداء، ذهبنا إلى مطعم الشاطئ ذي الأرضية الآجرية الزرقاء والصفراء. كانت فكرة كوريا فيما بعد أن نذهب جميعاً لرؤية بيت الشاطئ، أو الاستثمار. آنا وأنا، والعديد من الآخرين، لم يسبق لنا أن رأيناه، وقال إنه لم يذهب إلى هناك منذ سنتين. خرجنا من المطعم نستقل سيارتنا عائدين على طريق الساحل الإسفلتي ، وهي طبقة سوداء على الرمل، وبعد وقت قليل

انعطفنا باتجاه طريق رملي قاسٍ، يمتدّ بين أكمة رملية خضراء متألقة، وأشجار لوز مدارية تنحدر باتجاه البحر. رأينا كوخاً إفريقياً يسطع سقفه العشبي متلوناً بسمرة حمراء تقريباً تحت الضوء. توقفنا. صاح كوريا، "عمتي! عمتي!" امرأة عجوز سوداء ترتدي ثياباً إفريقية خرجت من خلف سياج القصب المستقيم. قال كوريا لنا: "ابنها نصف برتغالي. إنه الناظر." كان صاخباً وودوداً مع المرأة الإفريقية، مبالِغاً ربما بعض الشيء لكي يتباهى أمامنا، لاعباً الدورين التوأمين للرجل الذي ينسجم مع الأفارقة، وصاحب العمل الذي يعامل مستخدميه معاملة جيدة. بدت المرأة قلقة. كانت تقاوم حالة لعب الدور من قبل كوريا. سأل كوريا عن سيباستياو. لم يكن سيباستياو في البيت. وتبعنا كوريا، الذي كان يحدث الكثير من الجلبة، إلى البيت على الشاطئ.

وجدنا نصفَ طللٍ. كانت النوافذ محطمة؛ ووسط الهواء المالح والرطب صدئت المسامير في كل مكان، وكان الصدأ قد سال وبقّع الدهانَ الناصل والخشبَ المتقشّر. الأبواب الفرنسية في الطابق الأرضي كانت مخلوعة من مفاصلها. في غرفة الجلوس التي كان نصفها في الداخل، ونصفها الآخر في الخارج، كان قارب للصيد مرتفع الحوافّ ممدّداً فوق دعائم خشبية كأنه في حوضٍ جاف للسفن.

وقفت المرأة الإفريقية العجوز على مسافة معينة خلف كوريا. لم يقل شيئاً. اكتفى بالنظر. تغضّن وجهه وصار غريباً. كان تجاوز تخوم الغضب، وذهب بعيداً جداً عن المشهد المحيط به. بدا عاجزاً، غارقاً بالألم. فكّرتُ: "إنه مجنون. أتعجّب لماذا لم أر هذا أبداً من قبل." وبدا الأمر كأن كارلا، فتاة الدير، قد تعودت العيشَ مع ما كنتُ قد رأيته

للتو. ذهَبَت إليه، كأننا لسنا هناك، وتحدثَت إليه كأنه طفل، مستخدمةً لغةً لم أسمعها أبداً تستخدمها. قالت: "سوف نضرم النار بهذا المكان اللعين. سوف أذهب وأحضر الكيروسين في هذه اللحظة، وسوف نعود ونحرق المكان المشؤوم برمته، بما في ذلك المركب السافل." لم يقل شيئاً، وسمح لها بقيادته من ذراعه وعادا إلى السيارة، مروراً ببيت العمة.

عندما رأيناهما في المرة الثانية، بعد بضعة أسابيع، بدا كوريا مستنزفاً. خداه النحيلان كانا ناعمين وضامرين. قالت كارلا: "ذاهبان إلى أوربا لبعض الوقت."

السيدة نورنها، متكورةً داخل كرسيها، قالت بصوتها الناعم: "وقت رديء." قالت كارلا: "نريد أن نذهب لنرى الأولاد." ولدا عائلة كوريا، اللذان كانا لم يبلغا العشرين، أرسلا قبل سنة أو نحوها إلى مدرسة داخلية في البرتغال. السيدة نورنها قالت: "وقتٌ أفضل لهما." بعدئذ، ودون أي تغيير في لهجتها، قالت: "ما الذي دها الولد؟ هل هو مريض؟" شعرت كارلا بالتوتر. قالت: "لم أكن أعرف أنه مريض. لم يكتب عن ذلك."

لم تعرها السيدة نورنها أي انتباه. قالت: "قمت مرةً برحلة في وقت رديء. كان ذلك بعد انتهاء الحرب بقليل. وقبل وقت طويل من جلوسي على هذا الكرسي، قبل أن أعتلي العرش، يمكنكِ القول، ذهبنا إلى جنوب إفريقيا، إلى دوربان، مدينة جميلة، لكن الوقت كان رديئاً. بعد أسبوع من وصولنا إلى هناك بدأ السكان الأصليون بالقلاقل. إحراقٌ للمتاجر، نهب. كانت الاضطرابات ضد الهنود، لكنني وقعتُ في المعمعة ذات يوم. لم أعرف ماذا أفعل. لم أكن أعرف الشوارع. في البعيد رأيت

سيدة بيضاء ذات شعر أشقر وثياب طويلة. أشارت لي وذهبت إليها. قادتني دونما كلمة عبر شوارع جانبية عدّة إلى بيت كبير، وهناك مكثتُ حتى هدأت الشوارع. قالوا: (من تكون هذه المرأة؟) أخبرتهم. قالوا: (صِفِي لنا البيت.) وصفتُ البيت. أحدهم قال: (لكن البيت هُدِّم قبل عشرين سنة. كانت السيدة التي قابلتها تعيش هناك، وهُدِّم البيت بعد وفاتها.) " وبعدما سرَدَت قصتها، والتي كانت في الواقع تدور عن ملكَاتها، فتلت السيدة نورنها رأسها إلى جانب واحد، صوب كتفها، مثل عصفور يتجهز للنوم. وكعادتها عندما تكون تتنبأ أو تسرد قصة، لم نستطع أن نتبين في النهاية كيف وإلى أين وصلنا. كل منا كان عليه أن يبدو رزيناً ويبقى هادئاً لفترة وجيزة.

وقتٌ رديء أم لا، غادرت عائلة كوريا إلى أوربا لرؤية أطفالها، ومن ثمّ للقيام ببعض الأشياء. ومكثت بعيداً هناك لعدة شهور.

* * *

وحدَثَ أن تعرفتُ مدير مزرعتهم. كنت أراه كثيراً في البلدة. كان رجلاً خليط النسل، في الأربعينيات من عمره، وله طريقة مثقفة في الحديث. أحياناً كان يبالغ في ذلك. كان يقول، على سبيل المثال، عن صاحب متجر برتغالي، أو هندي، ممن وقّع في مشكلة معهم: "إنه، في أبعد تصورات الخيال، يمكنك القول، ليس بالرجل النبيل." ولكن حديثه كان يزداد رشاقةً وليونةً كلما رآني. أصبح ممتلئاً بالتوجّس، وفي ذات الوقت بالثقة، وشعرت بأنني بدأت أنجرّ إلى مؤامرات صغيرة ضدّ عائلة

كوريا. جرّبنا المقاهي الجديدة (كانت تفتح وتُغلق طوال الوقت). وتعرفنا البارات. وأتيحت لي فرصةُ تذوقِ النكهة الجديدة للبلدة العسكرية، وأحببتها. كنت أحب عِشْرَةَ الجنود البرتغاليين. أحياناً كنت ألتقي ضابطاً يتحلى بذاكرة قوية، يهذر عن مستعمرة غوا والهنود. غير أنّ استيلاء الهنود على غوا كان قد وقع قبل سبع أو ثماني سنوات. قلة قليلة من المجنّدين اليافعين كانوا على دراية بذلك، والجنود بصورة عامة كانوا ودودين. لم تكن الحرب قد نشبت بعد في القرية. وانتشرت قصص عن معسكرات تدريب لحرب العصابات في صحراء الجزائر، ولاحقاً في الأردن، غير أنه اتضح أن هذه القصص كانت من نسج الخيال: حفنة من الطلاب في لشبونة وكويمبرا كانوا يلعبون دور رجال العصابات خلال العطل. في بلدتنا العسكرية، كان لا يزال هناك سلام والكثير من الكياسة. كان المرء يشعر بأنه في أوربا يقضي عطلة. بالنسبة لي شعرت أنني في لندن ثانية، ولكن بنقود الآن. واستغرقت استكشافاتي للبلدة وقتاً أطول فأطول.

ألفارو، مدير عائلة كوريا، قال لي ذات يوم: "هل تحب أن ترى ماذا يفعلون؟" كنا في مقهى في العاصمة نحتسي القهوة قبل العودة بالسيارة إلى البيت، ورفع ذقنه على مجموعة من النسوة الإفريقيات اللواتي يرتدين ثياباً زاهية، ساطعة تحت شمس الظهيرة، كن يعبرن من أمام نافذة المقهى. عادةً كان المنظر بعد الظهيرة ينحصر بأطفال خدرين يتسولون، بهيئات مغبرّة، يتكئون على الحيطان أو نوافذ المتاجر أو الأعمدة، يفتحون ويغلقون أفواههم في حركة بطيئة طوال الوقت، ويبدون كأنهم لا يرون شيئاً. حتى عندما يعطيهم المرء نقوداً، كانوا يبدون كأنهم لا يعرفون؛ ولم يكونوا ليتزحزحوا من أماكنهم، مهما أعطيتهم، وعليك

أن تتعلم كيف تتجاهلهم. لم تكن النسوة على هذه الشاكلة. كانت تكتنفهنّ الفخامة تماماً. وظننتُ أنهنّ من أتباع المعسكر، فقلت لألفارو إنني أودّ أن أرى ماذا يفعلن. قال: "سوف آتي من أجلك غداً. وقت المساء أفضل بكثير، والأفضل أثناء عطلة نهاية الأسبوع. عليك أن تجد طريقة لتقديم الأعذار للسيدة آنا."

جعل ألفارو الأمر يبدو سهلاً، لكنني وجدته صعباً. لم أكذب على آنا منذ عشر سنوات؛ لم تكن هناك مناسبة لذلك. في البداية، في لندن، عندما لم أكن أستطيع أن أتلمس طريقي، كنت ألجأ إلى فبركة أشياء عدة، وبصورة رئيسة حول خلفية عائلتي. لا أعرف كم من هذا صدّقته آنا، أو أنه يعني شيئاً كثيراً لها. في إفريقيا ارتأيت بعد فترة التخلي عن تلك الكذبات اللندنية؛ في مجموعتنا المنشطرة نصفاً بنصف، فقد بدت بلا معنى. ومع مرور السنين، وضعت آنا يدها على الحقيقة عني. ولم يختلف الأمر كثيراً عما آمنت به دائماً؛ ولم تسع أبداً لأن تجعلني أشعر بالوضاعة عبر تذكيري بالقصص التي كنت قد أخبرتها بها. في إفريقيا كنا قريبين جداً، وذاك القرب بدا طبيعياً. لقد منحتني حياتي الإفريقية؛ وكانت الشخص الذي يحميني؛ ولم يكن لدي مرسىً آخر. لذلك وجدتُ الأمر صعباً أن أختلق الأعذار لها. وهكذا فسد الأمر في اليوم التالي. بدأتُ بنسج قصة. لكنها بدت مثل كذبة. حاولت أن أقوّمها فازدادت تعقيداً. فكّرت: "لابدّ أنني سأبدو مثل شخص يعيش مع الخدم." ومن ثمّ رحت أفكر: "سوف أعود إلى طرقي اللندنية." وعندما أزف الوقت، لم تكن آنا لتصغي كثيراً إلى ما كنت أقوله. قالت: "آمل أن تحصل كارلا على مزرعة تعود إليها." وكان الأمر سهلاً

عند هذا الحد. لكنني عرفت أنني خرقت قاعدةً معينة، ووضعت نهايةً لشيء ما، من دون أي سبب تقريباً.

جاء ألفارو في الوقت المحدد تماماً، وربما كان ينتظر في الظلام خارج مبنى المزرعة. ظننتُ أننا سنتوجّه إلى البلدة، لكن ألفارو لم يأخذ الطريق الرئيسة. عوضاً عن ذلك قدنا السيارة ببطء على طرق فرعية وجانبية، حيث كانت جميعها مألوفة بالنسبة لي الآن، حتى خلال الليل. حسبتُ أن ألفارو يقتل الوقت. وتابعنا سيرنا، تارةً نمرّ بحقول القطن، وتارةً أخرى بالأكمة المفتوحة، والآن بالمزارع الداكنة لأشجار البلاذر. كلما قطعنا بضعة أميال كنا نصل قريةً، ومن ثمّ نتمهّل ونقود السيارة ببطء. أحياناً كنا نجد في القرية ما يشبه السوق الليلي، مع مخازن تافهة في الأكواخ الوطيئة المفتوحة، المضاءة بقنديل الإعصار، تبيع الكبريت والسجائر المفروطة، وعلباً صغيرة من كل شيء، وثمة حفنة من الناس المبذرين، رجال أو نساء أو أطفال، وجدوا أنفسهم مفلسين ذلك اليوم، وجلسوا على جانب الطريق، يحملون شموعاً موضوعة في أكياس ورقية بالقرب من أكوام صغيرة جداً من طعامهم، مع أوعية من المنيهوت المجفف، أو الفلفل أو الخضراوات. لطالما حسبتُ أنهم أناس يلعبون دور التدبير المنزلي، ويلعبون قضية البيع والشراء.

قال ألفارو: "جميل، أليس كذلك؟" أعرف بعضاً من هذه القرى جيداً. رأيت أسواق الليل هذه عشرات المرات. لم يكن هذا ما أتيت لرؤيته مع ألفارو. قال: "أردتَ أن تعرفَ ماذا يفعل الأفارقة في الليل. إنني أُريكَ. مضى عليك هنا عشر سنوات. لا أعرف كم تعرف. خلال بضع ساعات ستزدحم هذه الطرق، التي قطعناها، بالناس الباحثين عن

المغامرة. سيكون هناك عشرون أو ثلاثون حفلة حولك. هل تعرف هذا؟ وهم ليسوا ذاهبين إلى هناك لكي يرقصوا فقط، يمكنني أن أقول لك."

أضواء سيارة اللاند روفر كشفت أمامنا، في الوقت المناسب، فتاةً صغيرة ترتدي فستاناً معلقاً من الكتف. كانت تقف على جانب الطريق، مشعة الوجه تحت الأضواء، وراحت تراقبنا ونحن نمرّ. قال ألفارو: "دعني أخبرك. عمر الفتاة نحو أحد عشر عاماً. مرت بفترتها الأولى، وهذا يعني أنها جاهزة للجنس. الأفارقة حسّاسون جداً تجاه هذه الأشياء. ممنوع ذاك الهراء الأجنبي عن الجنس قبل بلوغ السّن. هذه الفتاة، التي تبدو لاشيءَ بالنسبة لك، تذهبُ كل ليلة مع رجل ما. هل أروي أنا أشياء تعرفها؟" قلت: "إنك تخبرني عن أشياء لا أعرفها." قال: "هذا ما نظنّه بك، هل تعلم؟ آمل أن لا تعارض." والحقيقة أنني، خلال عشر السنوات الفائتة، لم أنظر مطلقاً بتلك الطريقة إلى القرى، وإلى الأفارقة السائرين على جانبي الطريق. أفترضُ أن ذلك بسبب قلة الفضول، وأنه البقية الباقية من شعور الطبقة. ولكن يمكن القول أيضاً إنني لم أكن من البلاد، ولم أتدرب على طرائقه الجنسية (على الرغم من أنني التزمتُ بها)، ولم يسبق لي أبداً أن كنت مع شخصٍ مثل ألفارو كدليل.

في البداية، عندما لم أكن قد تعرفت حتى على ملذات العيش في البرية، كنت أعتقد بأن المشرفين، ذوي النسل الخليط، يفتقرون للحياة بمعناها الكامل، كونهم يعيشون قريباً جداً من الأفارقة، متخلين عن الكثير من ذواتهم. الآن كنت أرى أنها بالنسبة للبعض يمكن أن تكون حياةً من الإثارة المستمرة. كان ألفارو يعيش في بيت إسمنتي قذر، مؤلف من أربع غرف. كان ينهض وحيداً على بقعة مكشوفة، خالية من

الأشجار، داخل مزرعة كوريا. كان يبدو مكاناً خالياً من الراحة، بحيث لا يستحق اسم البيت، غير أن ألفارو كان يعيش هناك سعيداً مع زوجته الإفريقية وعائلته الإفريقية، ومع عدد من الخليلات والمومسات والعاهرات، اللواتي بمتناول اليد في القرى المحيطة. لم يكن ألفارو ليجد حياةً مثل هذه في أي مكان من العالم. فكرتُ في البداية في المساء الذي كان يقتل فيه الوقت، مستقلاً الطرق الخلفية. قال: "خذ تلك الفتاة الصغيرة التي مررنا بها للتو. لو توقفت وسألتها عن الطريقة التي ستلتحم بنهديها بك، لعرَفتْ ماذا تفعل." وأدركتُ أن ألفارو كان مصمماً، ويفكر في تلك الفتاة الصغيرة، أو أية فتاة أخرى تلتصق بنهديها الغضين به.

أخيراً وصلنا إلى الطريق الرئيسة. كانت تخدّده الحفر بشكل سيئ بعد المطر. لم نكن نستطيع الرؤية إلى مسافة بعيدة، وكان علينا أن نمشي ببطء. وبين الحين والآخر كنا نصادف مخروطاً صخرياً. ولفترة وجيزة، قبل وبعد مرورنا، كان يبدو معلقاً فوقنا في الظلام، مشيراً إلى مرحلة أخرى من القرية. كانت البلدة مستيقظة، لكنها لم تكن صاخبة. أضواء الشوارع مبعثرة وغير مضيئة كثيراً. هنا وهناك، في المنطقة المركزية، كان ثمة أنبوب مشعّ يحيل نافذة المتجر إلى صندوق من الضوء، ليس بقصد الدعاية للبضائع الرديئة، المرتبة بصورة يختلط فيها الحابل بالنابل، بل لكي يبقى اللصوص بعيداً. الضوء الأزرق الضعيف، الذي يتحدّى النظر، لم يكن ليكشف بعيداً في ظلام الشارع، حيث خلال النهار يجلس الحمالون، أو رجال ينتظرون طوال الصباح، وبعد الظهر للقيام بحمولة ما؛ يجلسون على أدراج المتاجر بأرجل مفتوحة، وحيث الآن نموذج آخر من المتسكعين، ينتظرون كل ما يمكن أن يأتي في طريقهم

من المرور الجديد للبلدة ذات الحامية. قال ألفارو: "من الأفضل عدم التوقف عند هؤلاء الأشخاص. لا يملك المرء أي سيطرة عليهم."

ومثلما فعل في بداية المساء، وقاد السيارة حول الطرق الخلفية للمزرعة، راح الآن يجول في الشوارع الأكثر هدوءاً للبلدة، مخرجاً رأسه أحياناً من سيارة اللاند-روفر، ومتحدثاً بصوت سرّي إلى أناس يراهم. أخبرني أنه يبحث عن مكان جيد للرقص، والأماكن تتبدل على الدوام، كما قال. هذا أفضل من الذهاب إلى بار. يمكن أن تكون البارات أمكنة متوحشة. في البار لا تتعامل مع الفتاة وحدك؛ أنت أيضاً تتعامل مع راعيها، الذي يمكن أن يكون أحد متسكعي الشوارع. وفي البار لا توجد تجهيزات. عندما تعثر على فتاة، عليك أن تذهب معها إلى ممر مظلم بين البيوت في البلدة، أو إلى منزل ما في المدينة الإفريقية، مدينة القش، كما تُسمّى، على طرف البلدة، وتكون طوال الوقت تحت رحمة راعيها. هذا ما يناسب جندياً، لكنه سيئ جداً لمدير مزرعة. إذا حدثت أيُّ مشاحنة مع الراعي، وصلت الأخبار بسرعة كبيرة إلى المزرعة، ويمكن أن تسبب مشكلات مع العمال.

أخيراً، وصلنا إلى المكان الذي كان ألفارو يبحث عنه. تخيلت أن يكون مكاناً مجهزاً. قال: "كما يقول عجائزنا، إذا أكثرت من السؤال أمكنك أن تصل إلى روما." كنا على طرف البلدة، حيث تنتهي الطرق الإسفلتية، وتبدأ الطرق الترابية، ومعظمها غير سالك بسبب الأمطار. كان الظلام مخيماً، ماعدا بضعة أضواء مبعثرة، والمكان هادئاً حتى أن فتح أو إغلاق أبواب اللاند-روفر بدا مثل انتهاك الصمت.

توقفنا أمام بناء ضخم يشبه المستودع. عالياً، على إحدى الزوايا

يوجد مصباح كهربائي مظلل معدنياً، يعلوه الغبش، يومض وينطفئ، وحوله يتجمّع نملٌ طيار (إنه الموسم). سيارات أخرى كانت مصفوفة في الفسحة الأمامية؛ وكنا نرى الآن مراقبين من نوع ما، (أو مراقبين فحسب) يجلسون وراء نصف حائط على حافة فسحة المستودع، حيث الأرض قد انهارت. أحد هؤلاء المراقبين باشر بإعطائنا التعليمات، وهبطنا ممراً إسمنتياً بين المستودع ونصف الحائط، باتجاه بناء آخر يشبه المستودع. سمعنا موسيقا تنبعث من الداخل. يُفتح بابٌ صغير، ويأذن لنا رجل يمسك هراوةً بالدخول، حيث أعطيناه كلانا نقوداً. ممر الدخول مظلم وضيق، وينحدر بانعطاف حاد على شكل دبوس قبل الوصول إلى الغرفة الرئيسة. مصابيح ضوئية زرقاء تضيء فسحة رقص صغيرة. زوجان كانا يرقصان- رجال برتغاليون، نسوة إفريقيات- تنعكس صورهما بشكل ناصل في المرآة القاتمة، أو قرميد المرآة الذي كان يغطي الجدار في نهاية حلبة الرقص. كانت الغرفة تغص بالطاولات ذات الأضواء الخافتة، لكن لم يكن سهلاً رؤية العدد المشغول بينها. لم ندخل بعيداً في العمق. جلسنا إلى طاولة على طرف حلبة الرقص. عبر الردهة كانت تقف الفتيات، مثل مومسات الظهيرة الفائتة، اللواتي كنّ مبتهجات وهنّ يمشين في الشارع بثيابهن الجميلة، ويلتفتن برؤوسهنّ. عندما تآلفتُ مع الضوء، رأيت أن العديد من الفتيات، على الطرف الآخر من حلبة الرقص لسن فتيات القرية من الداخل، بل كن من الساحل، ومن نسل عربي بعيد. نادلان إفريقيان ورجلٌ برتغالي نحيل يرتدي قميصاً رياضياً- المالك، على ما أظنّ- كانوا يدورون بين الطاولات. عندما أتى الرجل البرتغالي، ووقف قريباً منا، وجدتُ أنه ليس شاباً، كانت له عينان هادئتان، ويدا، بغرابةٍ، منفصلاً عن كل شيء حوله.

وددتُ لو كنت أمتلك حياديته. لكنني لم أكن مدرّباً على هذا النوع من الحياة، واستحوذ علي العار. الفتيات جميعهنّ إفريقيات. يجب أن يكون الأمر كذلك، على ما أظنّ؛ لكنني تساءلت عمّا إذا كان النادلان الإفريقيان لا يعانيان قليلاً. والفتيات صغيرات السنّ جداً، حمقاوات جداً، ولا يمتلكن أدنى فكرة، كما اعتقدت، عن الطريقة التي يسئن فيها إلى أجسادهنّ ويُسوّدنَ حياتهنّ. فكرت متأسياً بالأشياء القديمة في الوطن. فكرتُ في والدتي، وفكرت في والدي المسكين، الذي لايكادُ يعرف معنى الجنس. فكرتُ فيك، أنتِ أيضاً، ساروجيني. تخيلت بأن الفتيات يمكن أن يكنَّ أنتِ، وتصدّع قلبي.

ألفارو نفسه استسلم للمشهد. كان قد استسلم منذ اللحظة التي دخل فيها المستودع المظلم. أثاره جنس القرويات، حيث في كل شهر ثمة مجموعة جديدة من الفتيات البريئات، اللواتي مررن بفترتهنّ الأولى، وكنّ جاهزات للالتصاق به بنهودهنّ. ما كان يدور حولنا في هذا المستودع نصف المقلوب بدا مختلفاً. لا أظنّ أن مكاناً مثل هذا، مجهّزاً بالأدوات، كان يمكن أن يوجد قبل مجيء الجيش. لابدّ أنه كان مكاناً جديداً بالنسبة لألفارو. وأعتقد أنه على الرغم من لعبه دور الدليل معي، كان في الواقع يتدرّب، يلفه الارتباك، ويحتاج إلى مساعدتي.

احتسينا البيرة. الشعور بالعار ولّى. نظرتُ إلى الراقصات في الضوء الأزرق، وإلى انعكاس صورهنّ المغبرة في الفضاء الغامض لمرآة الحائط العالية الداكنة. لم يسبق أن رأيتُ أفارقة يرقصون. ونظراً لطبيعة حياة المزرعة التي كنت أحياها لم تكن هناك مناسبة. وما أن بدأت تلك الفتيات بالرقص حتى خيم عليهنّ نوعٌ من الحُسن. لم تكن حركاتهنّ

ضاجّة ومفرطة؛ بل صغيرة وخفيفة. عندما ترقص إحداهنّ كانت تستقطب كلّ شيء إلى رقصتها- حديثها مع شريكها، كلمة قالتها من خلف ظهرها إلى صديق، ضحكة. كان ذلك أكثر من مجرد متعة؛ بدا المشهد كأنّ روحاً أعمق تسللت إلى الرقص. هذه الروح كانت مقفلة داخل كل فتاة، مهما يكن مظهرها، وكان ممكناً أن يشعر المرء بأنها جزء من شيء أوسع بكثير. بالطبع، وبسبب خلفيتي، فكرتُ كثيراً في الأفارقة بطريقة سياسية. في المستودع بدأت أمتلك فكرة أخرى، هي أن ثمة شيئاً في القلب الإفريقي غاب عنا جميعاً، ويتجاوز كل سياسة.

ألفارو، بابتسامة صغيرة من التهكم الذاتي، والتي لم تخدعني، بدأ يرقص مع إحدى الفتيات. في البداية انحنى على الأرض كالمهرج، ناظراً إلى نفسه في المرآة. لكنه في الحال صار جدياً تماماً، وعندما عاد إلى طاولتنا كان رجلاً متغيراً. عيناه خاويتان تعتملان بالشوق. نظر عابساً إلى كأس البيرة. ومن ثمّ قال: "لا أدري أي أفكار تجول في خاطرك عن الموضوع، يا ويلي. ولكن بما أننا الآن في هذا المكان المأفون، لابدّ أنني حاصل على شيء صغيرٍ ملعون." عابساً بقسوة أكبر، مثل رجل ألمّ به الغضب، ذهب مع شريكته في الرقص باتجاه الباب إلى القسم البعيد المظلم من الغرفة.

كان يمكنني أن أمكث فحسب، أحتسي البيرة وأنتظر ألفارو. غير أن الرجل البرتغالي الهادئ العينين كان يعرف عمله، وبعد ثلاث أو أربع أو خمس دقائق، وعلى إشارة منه، أتت واحدة من الفتيات وجلست على الطاولة. تحت ثيابها المنمّقة كانت صغيرة الجسد تماماً. تحت المكياج، والحمرة على الخدود العالية، والكحل الأزرق والأبيض على الجفون،

كانت صغيرة السنّ جداً. نظرتُ إلى وجهها "العربي"، وتساءلتُ، فقط بعد مرور ربع أو نصف ساعة، محاولاً أن أثير نفسي: "ما الذي تملكه هذه الفتاة مما يكون قد أثار ألفارو؟" عندما نهضَت ودعتني أن أتبعَها، فعلت. اتجهنا إلى الباب الصغير في الزاوية المظلمة. كان ثمة العديد من المخادع خلف الممر الإسمنتي. لم يكن التقسيم يمتد حتى السقف، وجميع المخادع كانت مجهزة بمصباحين أعزلين عالياً على الجدار الخلفي. ظننت أنني لو أصغيت بتمعّن كافٍ، لكنتُ سمعتُ ألفارو. كان المستودع قد حُوّلَ وزُوِّد بالتسهيلات، ولكن بأرخص الطرق. كان ممكناً للمكان أن يُغلق في أي وقت، والمالك لن يخسر.

لولا ثيابها المتيبّسة، لكانت الفتاة صغيرة جداً. لكن الفتاة كانت ثابتة وقاسية، ولابدّ أنها قامت بأعمال جسدية كثيرة وهي طفلة. لم تكن آنا على هذا الشكل؛ آنا ضعيفة وعجفاء. تلمّستُ نهدي الفتاة؛ كانا صغيرين وأقل قساوةً بقليل عن باقي جسدها. لابد أن ألفارو يحبّ تلك النهود؛ وكان ممكناً أن تتخيل الحلمتين الغضّتين تنفران من تحت ثوب قطني جبلي رخيص. لكنّ حلمتي هذه الفتاة الصغيرة كانتا عريضتين وإسفنجيتين عند القمّة: لابد أنها أنجبت طفلاً أو أطفالاً. لم أستطع أن أشعر بأي شوق تجاهها. حتى لو قدرت على ذلك، كانت الأشباح القديمة معي لتوها، أشباح لندن قبل أحد عشر، أو اثني عشر، عاماً: العاهرة المريعة في سوهو، ردفا جون الضخمان على الفراش، فوق الأرضية في البيت السافل في نوتينغ هيل، وكل مشاعر العار بالقصور. لم أكن أعتقد بأن شيئاً سيحدث لي والفتاة الصغيرة المسكينة تحتي على الفراش العسكري الرخيص.

حتى الآن كانت لا تزال عينا الفتاة فارغتين. ولكن بعد ذلك، وفي اللحظة التي كنت فيها على وشك الإخفاق، نظرة استثنائية من الإلزام والعدوانية والحاجة ملأت عينيها، وصار جسدها متوتراً بكليته، ورحتُ أُعصَرُ بين يديها وساقيها القويتين. في جزءٍ من الثانية- مثل قرار الجزء من الثانية عندما نظرتُ عبر موجّه البندقية- فكّرتُ: "هذا ما يعيش ألفارو من أجله،" واستجمعتُ قواي.

كلانا، أنا وألفارو، هدأ أخيراً. ولم يعد ألفارو إلى ذاته ثانيةً، متوثباً وعارفاً، إلاّ عندما صرنا قريبين من بيت المزرعة. مصباح الضغط تُرك مضاءً من أجلي فوق درج المدخل نصف الدائري. كانت آنا نائمة في سرير جدها المرصّع العتيق. مضى عليها ساعتان أو أكثر قبل أن أفكر فيها بطريقة غير عادلة ومهينة. كنت أحتاج إلى الاستحمام قبل الاستلقاء قربها. التجهيزات البائدة في الحمام- المسخّن البرتغالي الصنع، مقدمة رشاش الماء المخادع، حوض الاغتسال المتصدّع والمسنود بدعائم معدنية مزخرفة- كانت لا تزال تُشعرني بأنني غريب. وتجعلني أفكر بكل شخص نام في ذاك السرير الكبير المرصّع قبلي: جدّ آنا الذي هجر المرأة الإفريقية التي أنجبت له أطفاله؛ والدة آنا التي خانها زوجُها، ولاحقاً عشيقُها؛ ووالد آنا الذي خانَ الجميع. لم أشعر في ذاك المساء بأنني خنتُ آنا بأيّ طريقة مهمة أو نهائية. يمكنني أن أقول بكل صدق إنَّ ما حدث كان فارغاً، وإنني لم أشعر بأي شوقٍ أو إشباع. لكن ما علق في ذهني هو ذلك الجزء من الثانية عندما نظرَت الفتاة إليّ نظرةَ من يوجّه أمراً، واستشعرتُ القوّةَ والتوترَ في جسدها الصغير. لم أكن أستطيع التفكير في أي سبب وراء قيامي بذاك الفعل. لكنني بدأت

أفكر، في الجانب الآخر من عقلي، في أنه لابدّ أن يكون هناك سبب ما.

وكما أنه بعد رحلة خطرة، أو طويلة، أو وعرة، يظلّ الطّريقُ يسرعُ في عقل السائق ما أن يستلقي ويخلد للنوم، راح ذلك الجزء من الثانية مع الفتاة يبرقُ مراراً وتكراراً في مخيلتي وأنا مستلقٍ بالقرب من آنا. وهذا ما قادني ثانيةً إلى المستودع المرمّم على طرف البلدة، وإلى المصابيح الزرق وحلبة الرقص والمخادع الصغيرة. هذه المرة لم أقدم أيَّ أعذار لآنا.

بدأت أعيش مع فكرة جديدة عن الجنس، فكرة جديدة عن مقدرتي. بدا الأمر كأنني خرجت بفكرة جديدة عن نفسي. جميعنا ولدنا نحمل دوافع جنسية، لكننا لم نولد جميعاً نمتلك المهارة الجنسية، ولا توجد هناك مدارس تدربنا على ذلك. أناس مثلي عليهم أن يتلمّسوا طريقهم ويتعثروا قدر استطاعتهم، وينتظروا المصادفات أن تأخذهم إلى ما يشبه المعرفة. كنت في الثالثة والثلاثين. كل ما كنت قد عرفته وقتئذ- مغادراً لندن التي لا يمكن في الحقيقة وضعها في الحسبان- تلك التجربة التي عشتها مع آنا. وفقط بعد وصولنا إلى إفريقيا بدأت مشاعرنا تتأجّج. أو لأقل مشاعري. كانت توجد إثارة صادقة هناك، ولحظات من الاكتشاف الجنسي. غير أن جزءاً كبيراً من تلك العاطفة المتأججة على مدى عشر سنوات لم يكن وليد الحسّ أو الرغبة الحقيقية، بل نتاج قلقي وخوفي- مثل خوف الطفل- بسبب وجودي في إفريقيا، وكوني رميت بنفسي إلى ذاك الفراغ. لم ينشأ بيننا شيء يشبه تلك العاطفة منذ ذلك الحين. آنا، حتى أثناء تلك الفترة العاطفية، كانت نصف متهيّبة، وعندما سُمح لي بالتوغل أعمق في تاريخ عائلتها فهمت تهيّبها. إذاً

كنا متعادلين بشكل أو بآخر. كل منّا وجد هناءته في الآخر، وأصبحنا قريبين جداً، لا نبحث خارج الآخر عن الإشباع، غير مدركين، في الواقع، أن نوعاً آخر من الإشباع دائماً ممكن. ولو لم يظهر ألفارو على المشهد لكنت أكملتُ تلك الطريق في قضايا الجنس والشهوات الحسية بصورة لا تبتعد كثيراً عن والدي المحروم.

بعد فترة أقفل المستودع أبوابه؛ لكن شيئاً آخر أتى، وشيئاً آخر بعد ذلك. البلدة الإسمنتية كانت صغيرة جداً. التجار والخدم المدنيون، والآخرون الذين كانوا يعيشون هناك، لم يكونوا يريدون أماكن اللّذة تلك قريبةً من بيوتهم وعائلاتهم. إذاً المصابيح الزرق ومرآة الحائط العالية المظلمة انتقلت من مركز مؤقت إلى آخر. لم يكن من مصلحة أي شخص أن يعول على آمالٍ أكثر ديمومةً، بما أن الجيش، الذي كانت تعتمد عليه التجارة، يمكنه في أيٍّ لحظة أن ينقل مواقعه.

ذات مساء رأيتُ بين هؤلاء الفتيات المتبرجات والمتأنقات ابنة خوليو النجار، الخادمة الصغيرة التي- في صباحي الأول- وضعت مكنستها جانباً، وجلست على كرسي منجّدٍ بالٍ، وحاولت أن تنخرط معي في حديث مثقف. قالت لي لاحقاً إن عائلتها تتناول الطعام نفسه كل يوم، وعندما يصبح والدها ثملاً، أو عنيفاً جداً، كانت تحاول أن تهدهد نفسها، لتنام، عبر المشي ذهاباً وإياباً، داخل الغرفة الصغيرة التي تسكنها. والقصة لاحقاً هي أن هذه الفتاة بدأت تشرب مثل والدها، وأنها غالباً خارج مسكنها. وأعتقد أنه، مثلما كان ألفارو دليلي إلى هذا المكان، لابدّ أن شخصاً ما أرشدها إلى هنا.

قررتُ من فوري ألاّ أراها؛ ويبدو أنها عقدت العزم على القيام

بالشيء ذاته. لذلك عندما عبر أحدنا بمحاذاة الآخر، عبرنا كالغرباء. لم أخبر أحداً عنها؛ وهي، عندما التقينا ثانية في بيت المزرعة، لم تقل شيئاً أبداً، ولم تبدِ حتى إشارة صغيرة للتعرّف الجديد. لم توسّع من عينيها أو ترفع حاجبها أو تحرّك فمَها. عندما فكرتُ في الأمر، لاحقاً، شعرتُ بأنّ ذلك كان عندما خنتُ آنا، ولطّختُ سمعتها، في قلب بيتها.

* * *

مكثت عائلة كوريا بعيداً لمدة عام. بعد ذلك سمعنا، كل بيت بطريقة غير مباشرة، وليس في وقت واحد، أن جاسينتو مات. مات أثناء نومه في فندق في لندن. أصيب ألفارو بصدمة. لم يكن يعلم ما الذي ينتظره. لقد تعامل دائماً مع جاسينتو، وكان لديه شعور بأن كارلا لا تهتم بشأنه.

بعد مرور شهر عادت كارلا للظهور بيننا، تزور البيوت التي تعرفها، وتحصد التعاطف. مراراً وتكراراً كانت تسرد فجائية الموت، وكيف تبضّعا معاً في المخازن الكبرى، وحكت عن الرزم المفتوحة، التي ظلت مبعثرة في تلك الليلة، حول ما سوف يكون سرير الموت لجاسينتو المسكين. فكرت في أن تأتي بالجثمان إلى المستعمرة، لكنها وقعت فريسة "شعور سيئ" (تنبأت به السيدة نورنها) تجاه المقبرة الصغيرة في البلدة. ولذلك أخذت الجثة إلى البرتغال، وإلى البلدة الريفية حيث دُفن جد جاسينتو البرتغالي الصافي. كلّ ذلك جعلها منشغلة عن التفكير في الحزن. غير أن الحزن دَهَمَها لاحقاً. دهمها بصورة خاصة عندما رأت

الشحاذين في لشبونة. قالت: "ليس لهؤلاء ما يعيشون من أجله، لكنهم يحيون، وجاسينتو لديه الكثير ليعيش من أجله، لكنه ميت." هذا الظلم كان شديد الوطأة عليها، ولم تكن لتحتمله. انفجرت بالبكاء في الشارع العام، والشحاذون الذين اقتربوا منها تأثّروا، حتى إن البعض منهم طلب منها الصفح. (أخبرتني آنا لاحقاً: "كنت أظنّ دائماً أن جاسينتو يعتقد بأن المرء إذا أصبح غنياً بما فيه الكفاية فإنه لن يموت. أو أنه لن يموت، إذا صار غنياً بما فيه الكفاية. لكنني تعوّدت النظرَ إلى ذلك على أنه نكتة. لم أكن أعلم بأن ذلك صحيح").

كانت كارلا تقول إن لجاسينتو دائماً نظرة خاصة تجاه التميّز الذي يجلبه المال إلى الناس؛ وهذا ما جعله يعمل بجدّ. أخبر أطفاله، الذين يدرسون في لشبونة، بأنهم ليسوا ملزمين باستخدام وسائط النقل العامة في لندن. كانوا دائماً يستقلون التاكسي. يجب ألاّ يفكر الناس فيهم على الإطلاق على أنهم أولئك "اللا أحد" من المستعمرات. كان قد كرر ذلك على مسامعهم قبل وفاته بأيام فقط. وهي تسرد تلك القصة عن حرص جاسينتو على أولاده، وقصصاً أخرى مشابهة عن طيبة رجل العائلة، كانت كارلا تبكي وتبكي، متنقلةً من بيت ريفي إلى آخر.

مع ألفارو لم تكن رحيمةً على الإطلاق. بعد مرور أسابيع ثلاثة عادت وصرفته من الخدمة، وأعطته وعائلته الإفريقية مهلةَ شهر واحد لإخلاء بيتهم الإسمنتي؛ ولكي تجعل الأمر أكثر صعوبةً عليه لإيجاد عمل، فعلت ما بوسعها لتلطيخ شخصيته بين أهالي المزرعة. كانت تقول إنه رجل يعيش حياةً متسيبة، مع سلسلة من المخادع الإفريقية، إذ كان من المستحيل أن يعيش على راتبه كمدير للمزرعة. حتى عندما كان

جاسينتو يمرّ بأزمة مع الناس في العاصمة، تعوّد أن يقول لها إن عليها أن تراقب ألفارو. ارتجف الوغد عندما طلبت منه دفتر الحسابات. لم يكن لديها عقل جاسينتو، ولم تكن تعرف الكثير عن الحسابات، لكنها لم تستهلك وقتاً طويلاً لتكتشف نوع المكر الذي أخبرها جاسينتو بأن عليها أن تبحث عنه. فواتير زائفة (مع ألفارو كانت الآلات والمعدات تتعطّل طوال الوقت، بما في ذلك حصّادة الليف الألمانية القديمة الموثوق بها، وأبسط الآلات كالمكواة الأسطوانية) طغت على الفواتير الحقيقية؛ وبالطبع العمال المزيفون. وكلما طالت إقامة عائلة كوريا، بعيداً في أوربا، ازداد ألفارو وقاحةً.

كانت كارلا تخبرنا عما كنا نعرفه جميعاً نصفَ معرفة. بطريقته المتباهية الحمقاء كان ألفارو يحب التلميح إلى أنه كان يحلبُ المزرعة. لقد فعل ذلك معي، وكان يمكن أن يفعلها مع آخرين. ظنّ أن ذلك جعل منه رجلاً رفيعاً ، تقريباً مثل مالك مزرعة. حياة المزرعة هي كل ما كان يعرفه ألفارو، وبيت المزرعة كان يمثّل فكرته عن الموضة. والده، الذي كان خلاسياً، بدأ حياته كتقني في المزرعة التي كان يملكها والده البرتغالي، وانتهى به المطاف هناك كمراقب من الدرجة المتدنية يعيش في بيت من بين سلسلة البيوت الإسمنتية المؤلفة من غرفتين. ألفارو قرر، وهو في ريعان الصبا، أن يسطع نجمَه في العالم. كان يجيد التعامل مع الآلات؛ وتعلّم الكثير عن المواشي والمحاصيل؛ وكان يعرف كيف يتكيّف مع الأفارقة. سطع نجمه، وتَبهرَجَ. وبوصفه مدير مزرعة عائلةِ كوريا، مع بيت إسمنتي مناسب وسيارة لاند-روفر، كان يحبَّ التباهي والتفاخر. عندما تعرفته (وقبل أن أعرف شيئاً عن سمعته)

تعوّد أن يقدّم لي الهدايا؛ فيما بعد قال لي إن ما أعطاني إياه كان، في الحقيقة، نوعاً من السلب أو السرقة من عائلة كوريا.

مع ذلك، ظللتُ أشعر بالأسف على ألفارو لافتضاح أمره والإطاحة به من قبل بيوت المزرعة (تاركاً عائلته الإفريقية في البيت)، حيث تمنّى أن يلقى القبول. تساءلتُ كيف يمكن لهذه العائلة أن تعقد فضلها. لقد تلقت أوامر الإخلاء، ويترتّب عليها أن تغادر البيت الإسمنتي قريباً، وسوف يستغرق الأمر وقتاً ليس بالقليل قبل أن تجد ثانية استقراراً مثل هذا. قالت لنا: "يمكن أن يغتنم الفرصة ويهمل العائلة." لم أكن أريد أن أفكر كثيراً في هذا، لكن ذلك كان ربما صحيحاً. لم يسبق أن حدثني ألفارو عن عائلته مطلقاً، ولم يكن يشير إلى أطفاله بالأسماء أو الشخصيات. كنت قد رأيتهم فقط على الطريق: أطفال بملامح إفريقية، بعضهم مثل أطفال المقري، يحدقون من الشرفة الصغيرة إلى البيت الإسمنتي، أو يتراكضون خارجين من مطبخ الكوخ ذي السقف العشبي في الخلف. أعتقد لو أن عملاً يتوفر لألفارو فإنه لن يمانع بالذهاب والبحث من جديد عن امرأة جديدة، أو نساء جديدات من الخارج، في مكان جديد. وكان ممكناً أن يعدّ دخلاً مثل هذا على أنه نعمة، وكان يمكن أن يصالحه مع كل شيء.

لم أكن قد رأيته لبضعة أسابيع. كنا قد توقفنا عن القيام بمغامرات مشتركة إلى أمكنة كالمستودع. وعندما التقينا ذات يوم على الطريق الإسفلتي الواصل إلى البلدة بدا مهزوماً، بفعل الإهانة الناجمة عن طرده والقلق البادي على وجهه. مع ذلك بدا متحدياً. قال: "لا أعلم أي جحيم يظنه هؤلاء الناس بأنفسهم، يا ويلي. كل شيء ذاهبٌ إلى دخان. إنهم يذهبون إلى لندن وباريس ولشبونة ويتحدثون عن تعليم أولادهم. إنهم

يعيشون في جنة الحمقى." ظننتُ أنه ينسخ اللهجة الرؤيوية لسيده الراحل. لكنه كان يحمل أخباراً حقيقية. قال: "ثوار العصابات في المعسكرات على الحدود. الحكومة هناك تقف إلى جانبهم. إنهم ثوار حقيقيون الآن، وهم لا يمثّلون. عندما يقررون أن يتحركوا لا أدري ما الذي سيوقفهم."

لبضعة أسابيع كان ثمة القليل من الجنود في البلدة، وتسربّت أنباءٌ بأن الجيش يعتزم إجراء مناورات في عمق الدغل شمالاً وغرباً. كان ثمة القليل عن ذلك في الصحف. لم يحدث ذلك إلا لاحقاً، بعدما زودني ألفارو بالأخبار، حيث صدرت بيانات عن "اكتساح" الجيش الناجح للشمال والغرب، حتى الحدود. بدأ الجيش بعد ذلك بالعودة إلى البلدة؛ وعادت الأمور إلى ما كانت عليه. أماكن المتعة عادت إلى عملها ثانية. ولكن في غضون هذا الوقت، كنتُ فقدت الاتصال مع ألفارو.

وبدأت أجد متعةً أقلّ فأقلّ في تلك الأمكنة. ويعود السبب، جزئياً، إلى خشيتي من رؤية ابنة خوليو ثانيةً. غير أن السبب الرئيس هو أن الفعل الجنسي هناك، والذي كان يثيرني بسبب مباشرته وقسوته، صار مع الأيام ميكانيكياً. خلال السنة الأولى تعودت أن أحتفظ في رأسي بسجل للمرات التي كنت فيها هناك؛ إذ لطالما أحصيتُ المبالغ والزيارات، مع تلك اللحظات الأكثر سواداً، أو إشراقاً، في المخادع الدافئة، مبتكراً، كما هو الحال، روزنامة خاصة لنفسي عن تلك السنة. بالتدريج، بعد ذلك، حدث إنني كنت أذهب ليس بدافع الحاجة، بل من أجل أن أضيفَ إلى السجل. حتى أنني في مرحلة لاحقة كنت أذهب لكي أختبر قدرتي فحسب. أحياناً، في مناسبات كتلك، كنت أضطر لإثارة نفسي، وكنت أتمنى عندئذ ألاّ أطيل اللحظة، بل أن أنتهي بأقرب

وقت ممكن. كانت الفتيات دائماً توّاقات، ومستعدات لإظهار حيلهنّ في القوة والخصوبة، مما كان قد تركني أغادر في المرة الأولى مزوداً بأحاسيس جديدة، وفكرة جديدة عن نفسي، وبحنانٍ تجاه كل شخص وكل شيء. هذا الحسّ تبدّل الآن إلى حسّ بالإنهاك والعقم، وبكون معدتي السفلية تعرضت للجفاف؛ وكنت أحتاج إلى يوم أو يومين لكي أتعافى. وكان أن عدتُ إلى علاقتي العاطفية مع آنا خلال طغيان ذاك المزاج الواهن، على أملِ أن أسترجعَ تلك الحميمية، التي بدت ذات يوم طبيعيةً جداً. لكن ذاك لم يكن ممكناً. تلك الحميمية القديمة لم تكن مستندة إلى ممارسة الجنس، حيث إنها الآن، وبرغم غيابي الطويل عنها، لم تبادر حتى إلى توبيخي، وظلت جبانة وهيّابة كما كان عهدي بها. كنت أمنحها لذةً قليلة، ولا أمنح نفسي شيئاً على الإطلاق. هكذا أصبحتُ أكثر قلقاً، وسخطاً، مما كنت عليه قبل أن يقول لي ألفارو في مقهىً في البلدة: "هل تريد أن ترى ماذا يفعلون؟" وقبل أن أكتشف نوعاً جديداً من الحياة الشهوانية لم أكن لأعلم بأنني أفتقد لها.

* * *

أعلنت كارلا أنها ستغادر إلى البرتغال نهائياً، حالما تجد مديراً جديداً. أشاعت الأخبار جواً من الأسى بيننا، وبين الناس القاطنين في بيت كارلا الريفي، وحاولنا في الأسابيع التي تلت، أن نثنيها عن عزمها، ليس لأننا كنا نفكر فيها، ولكن- كما هو الحال غالباً بعد كل موت- لأننا كنا نفكر في أنفسنا. كنا نشعر بالغيرة والخوف. رحيلُ

كارلا، واختفاء عائلة كوريا أيضاً، بدا وكأنه يبشر ببداية الأنهيار لعالمنا الخاص. لامسَ ذلك فينا مخاوف جديدة، لم نكن نريد التفكير فيها، وقلّلَ من شأن فكرتنا عن الحياة التي كنا نحياها. حتى آنا، التي لم تكن تحسد أحداً، قالت بشيء يشبه الضغينة: "كارلا تقول إنها راحلة، لأنها لا تطيق أن تكون وحدها في المنزل، لكنني أعرف أنها تفعل فقط ما كان جاسينتو قد أخبرها أن تفعل."

ولم يطل الوقت، حتى تمّ العثور على مدير جديد. كان زوجاً لإحدى صديقات كارلا في مدرسة الراهبات؛ والقصة التي أشاعتها كارلا من أجل أن تستدر العطف للزوجين، هي أن الحياة لم تعاملهما بصورة جيدة. وهما لن يمكثا في بيت المدير؛ ألفارو وعائلته تركوا المكان (والأكواخ التي أضافوها له) في حالٍ سيئة جداً. إنهما سيعيشان في بيت المزرعة نفسه. قالت آنا: "تتحدث كارلا عن صدقة تقدمها لصديقةٍ تواجه أوقاتاً عصيبة. غير أنه يترتب على تلك الصديقة أن تبقي البيت في حالٍ جيدة. لقد عادت كارلا من أوربا إلى بيت كان قد بدأ يتداعى. أشعر في قرارة نفسي بأنّ كارلا ستبيع ممتلكاتها بعد سنوات قليلة عندما ترتفع أسهم السوق."

أقيم غداء خاص يوم الأحد في المنزل، وهو بمنزلة حفلة وداع لكارلا، واستقبال للمدير الجديد. حتى لو لم أكن قد اطلعتُ على ظروفه كنت سألحظ وجوده. كان يلفّه خاصية من العنف المكبوت؛ وكان مثل رجلٍ يضع نفسه تحت السيطرة. كان في الأربعين من عمره، ينحدر من أسلافٍ مختلطين عرقياً، لكنه برتغالي أكثر منه إفريقياً، ضخم الجثة، لكنه ناعم الملامح. كان مؤدباً مع الجميع، بل رسمياً، حريصاً، بطريقة معينة،

على أن يترك انطباعاً جيداً، مع ذلك كان مختلفاً في السلوك والأسلوب عن كل شخص آخر، منفصلاً عمّا عداه. عيناه بعيدتان، وبدتا منفصلتين قليلاً عمّا يفعله. الانتفاخ واضح تماماً على شفته العليا؛ الشفة السفلى ممتلئة وناعمة يعلوها البريق؛ إنه فم رجل شهواني.

السيدة نورنها، المتكورة في كرسيها، برأسها المائل إلى جهة واحدة، قالت في طريقها: "وقت سيئ. قرار سيئ. الكثير من الحزن ينتظرك في البرتغال. سيجلب لك أطفالك الكثير من الحزن هناك." غير أن كارلا، التي كانت قبل سنتين تقفز ذعراً لدى سماع تلك الرسالة من الأرواح، لم تعرها أي إنتباه. ولم تعرها انتباهاً عندما كررت السيدة نورنها تلك الرسالة للمرة الثانية. أما نحن فاستعرنا التلميح من كارلا. لم نتدخل؛ ظننّا أن ما حدث، أو كان يحدث، بين كارلا والسيدة نورنها قضية خاصة. يبدو أن السيدة نورنها فهمت أنها بالغت في تأكيدها. أخفت رأسها بين كتفيها، وبدا الأمر في البداية كأن الغضب والخجل سيعجّلان في مغادرتها، بل كأنها في أيّ لحظة ستشير إلى زوجها النحيل ذي الوجه المكفهر، ورجل الولادة، أن يخرجها مع كرسيها بأسلوب يضمر الاحتقار لصحبة أولئك الناس المتناصفين. لكن الأمر لم ينتم على هذه الشاكلة. إذ خلال الساعة والنصف المتبقية من وقت الغداء، سعت السيدة نورنها أن تزجّ بنفسها من جديد في المحادثة العامة، وراحت تصدر تعليقات حيادية أو مشجعة حول العديد من الأشياء، بل إنها في النهاية بدت مهتمة بالترتيبات التي تقوم بها كارلا في البرتغال. كان ذلك بداية النهاية لها كمتنبئة- على الرغم من أنها ظلت تظهر بيننا لعدة سنوات لاحقة، وصار سهلاً جداً التشكيك

بمصداقيتها. ربما كان السبب يعود إلى أنه، بعدما ظلت أنصاف الأخبار والشائعات تتوارد من التخوم المحاصرة، لم يعد يعني كثيراً العلو الاجتماعي والعرقي الذي كانت تمثّله عائلة نورنها.

ولم ألتق وجهاً لوجه بغراشا، زوجة المدير الجديد، وصديقة كارلا في مدرسة الراهبات، إلا بعد أن غادرنا طاولة الغداء. الشيء الأول الذي لاحظته كان عينيها الملونتين الفاتحتين: عينان قلقتان جعلتاني أفكر ثانية في زوجها. والشيء الثاني الذي لاحظته هو أنه لثانية أو ثانيتين، لا أكثر، راحت تلك العينان تنظران إليّ بطريقة لم يسبق لامرأة أن فعلتها من قبل. كانت لدي ثقة مطلقة، خلال تلك الثانية، أن تَيْنِكَ العينين لم ترياني كزوجٍ لآنا، أو كشخص ينحدر من أصل غير عادي، بل كرجل أمضى ساعات كثيرة في المخادع الدافئة لأماكن المتعة. ويَتَّفِقُ أن الجنس يحمل طبيعةَ تجاربنا على وجوهنا. تلك اللحظة استغرقت ثانية فقط. ربما كانت مجرد أخيولة تلك القراءة لعيني المرأة، لكنها كانت اكتشافاً بالنسبة لي، وشيئاً يخصّ النساء، حيث أضفتُ ذلك إلى ثقافتي الشهوانية.

قابلتها ثانية بعد مرور أسبوعين، أثناء مناسبة وطنية في البلدة بدأت باستعراض عسكري على شرف أحد الجنرالات الزائرين في الساحة الرئيسة. كانت مناسبةً غريبة، مملوءة بالبذخ والبهرجة، بحيث لم يصدق أحدٌ على الإطلاق. كان سراً مفتوحاً أن ذلك الجيش من المجندين، الذي تجمّع هنا بتلك التكاليف، لم يعد يريد أن يخوض حرباً في إفريقية؛ إذ صار مهتماً أكثر بالأوضاع في وطنه. وبينما كان هناك مديح للجنرال الذي خطط لاستراتيجية الاكتساح الواسع على الحدود، قيل الآن (بعد

فوات الأوان مثلما سمعنا) إن الاستراتيجية الأفضل هي حشد القوات على الحدود ، في سلسلة من المناطق المحصّنة، حيث، كل منطقة محصنة، يجب أن تدعمها قوة متحركة فاعلة، يمكنها أن تنضمّ إلى قوات أخرى في أيّ لحظة. وكل شيء، في صباح ذلك السبت، كان لا يزال على ما يرام بالنسبة للجيش في البلدة. كانت ثمة خطابات ورايات. كانت الفرقة تعزف والعرض يستمرّ، ونحن جميعاً، صغاراً وكباراً، أفارقة وبرتغاليين وأناساً من العالم المتناصف، تجاراً ومتسكعين وأطفالاً شحاذين، وقفنا نتفرّج مأخوذين باللباس الموحّد والسيوف والاحتفال، بالموسيقا والمسير، بالأوامر الصادرة، وتطورات العرض.

أعقب ذلك استقبال الجنرال الزائر في المنزل الصغير للمحافظ في البلدة، الذي فُتح خصيصاً لتلك المناسبة. كان منزل المحافظ أقدم بناء في البلدة، وواحداً من أقدم المباني في المستعمرة. بعض الناس قالوا إن عمره أكثر من مئتين وخمسين عاماً، لكن لا أحد كان يعرف ذلك بدقة. كان بناءً من الحجر والركام مؤلفاً من طابقين، مربعاً وبسيطاً، ويبدو من الخارج عادياً تماماً. ربما في الأيام الخوالي كان المحافظون يبيتون هناك أو يمكثون هناك أثناء زياراتهم، ولكن لا أحد يعيش في منزل المحافظ الآن. كان المكان يجمع بين المتحف والنصب التاريخي، والطابق السفلي يفتح للعامة يوماً واحداً كل أسبوع. في المرتين أو الثلاث التي كنت فيها هناك لم أر أحداً، ولم يكن هناك الكثير مما يُنظر إليه: قارب تجذيف متآكل، لكنه مرمّم، قيل إنه يشبه ذاك القارب الذي استخدمه فاسكو دي غاما عندما رسا على الشاطئ هنا؛ وبعد ذلك مجموعة من المراسي القديمة، أحياناً صغيرة جداً، مع دفّات خشبية طويلة، بشكل غير متوقع،

مأخوذة من ألواح خشبية ضخمة، تظهر مهارة النجارين الذين يعملون، مستخدمين أدوات ثقيلة وخشنة، رافعات وأطوال من حبل قديم: بقايا بحرية تاريخية، مثل أثاث عائلة منسي لا يريد أحد أن يرميه بعيداً، ولكن لا يستطيع المرء، حقيقةً، تعرُّفه وفهمه واحترامه.

المشهد مختلف في الطابق العلوي. لم يسبق لي أن كنت هناك من قبل. إنه يمثل غرفةً مظلمة ضخمة. مساحة الأرضية الواسعة والقديمة، الداكنة والمثقلة بالسنين، كانت محوطةً ببريق عميق. مصاريع النوافذ على الجدران السميكة في الخلف تخفف من ضوء البحر والسماء. على السقف الشاحب المدهون بالسواد زخارف نصف ممحوة. في أرجاء الغرفة تتوزع صورٌ لمحافظين عجائز جميعها من الحجم ذاته- خطوط بسيطة، ألوان مسطحة، واسم كل محافظ محفور في الأعلى بحروف قديمة متهكمة- توحي بتفويض راهن لأحد أقسام الحكومة الثقافية، ولكن ربما بسبب الثقة وكمال التوزيع بدت الفكرة معقولةً؛ حيث إنها تترك انطباعاً بالفخامة. مع ذلك كان مجد الغرفة يكمن في الأثاث. إنه من الأبنوس، أو الخشب الأسود، المرصّع بدقة متناهية، إذ بدت كل قطعة من الخشب كأنها جُوّفت أولاً، ومن ثمّ زُخرفت في المقدمة والخلف. لم يكن أثاثاً للجلوس، بل أثاثاً تنظر إليه العين، لترى كيف تحول الخشب إلى خطوط مزخرفة. إنه أثاث المحافظ، وهو علامة للقوة. قيل إنه قديمٌ قدمَ المنزل، وجميعه أتى، كما قال أحد البرتغاليين الواقفين إلى جانبي، من مستعمرة غوا في الهند البرتغالية. هناك أُنجزت كل هذه الزخرفة التي لا طائل من ورائها.

هكذا، بصورة غير متوقعة، وجدتُ نفسي قريباً جداً من الوطن.

كنت أحاول أن آخذ نفسي مئتين وخمسين عاماً في الزمن، إلى بناء منزل المحافظ، محاولاً أن أجد موطئ قدم في ذلك الشطر اللامعقول من الزمن، حيث السماء دائماً صافية، والبحر دائماً أزرق وشفافٌ إلاّ أثناء المطر، والسفن الصغيرة الغريبة تظهر، ومن ثمّ تتأرجح، عند مرسىً في البعيد، حيث البلدة لم تكن قد أصبحت مستعمرة بعد، بل مجرد موطئ قدم على الساحل، من دون طريق داخلي هناك يصل إلى المخروطيات الصخرية، وحيث الناس المحليون عذارى لم يُلمسوا - بالرغم من أنها قد لا تكون كذلك: لابدّ أنه كانت هناك قلاقل من نوع ما، أشياء تُرسل بالناس إلى رجل الفأل أو الحظّ. كنت أفكر على هذه الشاكلة، وبدل إفريقيا حلت فجأة الهند أو غوا؛ حيث انتابني ذلك الخاطر القاسي عن تلك الأيدي التي كانت تشتغل لشهور، أو سنوات، على تلك الكراسي و الأرائك الفاخرة للمحافظ. بدا الأمر كأنني ألقي بنظرة جديدة على تاريخنا نفسه. مئتان وخمسون عاماً: في بعض بقاع لندن يمكن لهذا التاريخ أن يكون بمتناول اليد حيث يشعر المرء برومانتيكيةٍ ما في إعادة ابتكاره؛ في الهند أيضاً، وفي ظل المعبد العظيم لبلدتنا؛ ولكن هنا، في منزل المحافظ، بعيداً كل البعد عن كل شيء، بعيداً عن التاريخ، كان الأمر مرعباً.

ازدحم في الغرفة أكثر من مائة شخص. معظمهم برتغاليون، وكنت أشك في أن أحداً منهم كان يفكر كما كنت أفكر. كان العالم ينغلق على نفسه بالنسبة لهم في إفريقيا؛ لا أعتقد أن أياً منهم كان يشك في ذلك، بالرغم من كل الخطابات والمهرجانات، لكنهم كانوا جميعاً يشعرون بالارتياح وهم يستمتعون باللحظة، مالئين الغرفة العتيقة بالأحاديث

والضحك، مثل أناس لا يكترثون، بل مثل أناس يعرفون كيف يعيشون مع التاريخ. لم يسبق أن كنت معجباً بالبرتغاليين كما في تلك اللحظات. تمنيتُ لو كان ممكناً بالنسبة لي أن أحيا بذات السهولة مع الماضي، لكننا بالطبع كنا ننطلق من منظورين متعاكسين.

وطوال هذا الوقت كنت أفكر بغراشا، صديقة كارلا في مدرسة الراهبات، وزوجة المدير الجديد. كان قد مضى عليّ بعض الوقت في الطابق العلوي عندما رأيتها. لم أرها وزوجَها خلال الاستعراض في الساحة، ولم أكن أبحث عنها هنا. بدت رؤيتها هنا ضرباً من الحظ، أو نوعاً من الهدية، إذ لم أكن أبحث عنها. لكنني لم أكن أريد أن أفرضَ أي شيء. لم أكن أعرف عنها شيئاً باستثناء القليل الذي أخبرتني به كارلا، ومن الممكن أنني أخطأت قراءة عينيها. ظننتُ أنه من الأفضل، طلباً لسلامة أكبر، أن أرى ما إذا كانت المصادفة ستجمعنا معاً. وبالتدريج هذا ما فعلته المصادفة. اجتمعنا معاً، هي وحدها، وأنا وحدي، أمام أريكة غوانية ومحافظ برتغالي قديم. وجدتُ ثانيةً كل ما كنت قد رأيته في عينيها. كنت أضجّ بالرغبة. لم تكن رغبة خاصة بكماء وطائشة، كما كان الحال في لندن، لكنها رغبة تنبثق الآن من معرفةٍ وتجربة، وتعانقُ، حقيقةً، الشخصَ الآخر. في الوقت نفسه شعرتُ بخجلٍ كبير. كنت لا أكاد أطيق النظر إلى عينيها. عيناها كانتا تعدان بكل تلك الحميمية.

قلت: "أودّ أن أراك." قالت: "مع زوجي؟" إذاً، وُضِع المسكين لتوه خارج الطريق. قلت: "تعرفين أن ذلك سؤال أحمق." قالت: "متى تريد أن تراني؟" قلت: "غداً، اليوم. أي يوم." تظاهرت بأنها تفهمني حرفياً.

"اليوم ثمة غداء كبير هنا. غداً موعد غدائنا ليوم الأحد." قلت: "أراك يوم الاثنين. زوجك سيكون في البلدة للتحدث إلى موظفي الحكومة عن سعر الليف والقطن. اطلبي منه أن يحضركِ إلى المنزل. إنه على الطريق. سوف نتناول غداءً خفيفاً، ومن ثمّ أعيدكِ بالسيارة إلى البيت. وفي الطريق سنتوقف عند القلعة الألمانية." قالت: "عندما كنا في المدرسة الرهبانية تعوّدنا أن نقوم برحلات إلى هناك. يقول الأفارقة إن القلعة مسكونة بذاك الرجل الألماني الذي شيدها."

بعد غداء الاثنين لم أقدم أي أعذار لآنا. ولم أحاول أن أخترع شيئاً، وكنتُ مستعداً للأسوأ لو أنها عارضت. ببساطة قلت: "سوف أوصل غراشا إلى المنزل." آنا قالت لغراشا: "أنا سعيدة لأنك بدأتِ تستقرين."

كانت القلعة الألمانية بيتاً ريفياً مهجوراً. كنت قد سمعت قبل سنوات ثرثرات كثيرة عن البيوت الريفية تقول إنها كانت تُستخدم للقاءات غرامية غير شرعية. هذا ما دفعني في الحقيقة إلى المرور. كانت تبعد ساعةً واحدة قيادةً سريعة بالسيارة، وتقع في سهلٍ خلف المخروطيات الصخرية التي بدأت تظهر من بعيد، في مرحلة معينة مثل سلسلة متعاضدة، وطيئة وزرقاء. كان السهلُ رملياً ونصفَ خصبٍ، وبدا فارغاً، مع قرىً مختفية تحت الغطاء الطبيعي للرمل والخضرة. كانت القلعة على المنحدر في هذا الخواء الظاهري، ويمكن للمرء أن يراها من بعيد. إنها بيت ريفي ضخم ومترف، واسع وعالٍ، مع برج دائري تزييني من الإسمنت يحيط من الجانبين بالشرفة الأمامية. وبسبب هذه الأبراج الصغيرة سُمّي البيت بالقلعة. لابدّ أن الشخص، الذي شيّدها على ذاك المستوى في العراء، كان يظن أنه لن يموت أبداً، أو أنه أساء قراءة

التاريخ، وظنّ أنه يترك خلفه ثروةً لا تحصى لأحفاده. لا يحتفظ الناس هنا بأية تواريخ، و لا أحد يعرف بالضبط متى بنيت القلعة. بعض الناس قالوا إنها شُيدت في عام ١٩٢٠، على يد مستوطن ألماني من القسم الذي كان يُسمّى إفريقية الشرقية الألمانية، حيث جاء بعد حرب عام ١٩١٤ إلى أراضٍ برتغالية أكثر أماناً. آخرون قالوا إنها بنيت في أواخر ١٩٣٠ على يد ألماني أراد الابتعاد عن ألمانيا، وعن فترة الكساد والحرب الوشيكة، وأملَ في أن يبني مزرعةً توفر له الاكتفاء الذاتي هنا. غير أن الموت عاجله؛ وحفر التاريخ مجراه؛ وقبل وقت طويل من قدومي، ومع ذلك لا أحد يستطيع أن يقول لي متى كانت القلعة قد هُجرت.

قدتُ سيارة اللاند-روفر داخل الحديقة إلى أقصى نقطة أستطيع الوصول إليها. وما كان في وقت ما حديقة أمامية كبيرة، تملؤها أصص الورد ذات الحوافّ الإسمنتية، صار جديباً ومحروقاً، وتحول الآن إلى رمال، مع بقع متناثرة لأعشاب قاسية، وبضع شجيرات من نبات الزينة الطويلة الساق، وكرمة البوغنفيليا الأرجوانية، التي تحولت إلى أحراش متوحشة. دَرَجٌ واسع وناعم جداً من الإسمنت لم يُشذّب بعد يقود إلى الشرفة. البرج الصغير على الجانبين كان مملوءاً بالثقوب، كأنما وُضعت خصيصاً للدفاع. أبواب طويلة، نصف مفتوحة، كانت تُظهر قاعة الإستقبال الكبيرة المظلمة. الأرضية رملية. وبعض هذا الرمل نفخته الريح إلى الداخل؛ والبعض الآخر أسقطته الطيور البانية للأعشاش. ثمة رائحة سمك غريبة؛ وفسّرتُ ذلك على أنه رائحة بناء يتصدّع. كنت قد جلبت معي شرشفاً مطاطياً تابعاً للجيش. فرشته على الشرفة، ودون كلام تمدّدنا فوقه.

المشوار الطويل كان قيداً. حاجةُ غراشا تعادل حاجتي. كان ذلك جديداً عليّ. كل شيء عرفته سابقاً- اختلاسات لندن، العاهرة الريفية المرعبة، الفتيات السود المأجورات في أمكنة المتعة هنا، واللواتي كنّ قد أشبعن حاجتي، منذ وقت طويل، حيث كنت أشعر تجاههنّ، على مدى سنة تقريباً، بالعرفان، وأنا المسكينة، التي كانت لا تزال في خلدي الفتاة التي أعطتني ثقتها، والتي كانت قد جلست على الأريكة في غرفتي في الكلية وسمحت لي بتقبيلها، أنا التي لا تزال سخية ولطيفة جداً- كلّ هذا تهاوى خلال نصف الساعة التالية، وفكّرتُ كم سيكون الأمر مرعباً لو أنني -وكان ممكناً أن يحدث هذا بسهولة- لو أنني متّ دون أن أعرف هذا العمق من الإشباع، وذاك الشخص الآخر الذي كنت قد اكتشفته للتوّ في داخلي. كان ذلك يستحق أي ثمن، وأي عواقب.

سمعت صوتاً ينادي. في البداية لم أكن متأكداً منه، لكنني سرعان ما أدركت أنه صوت رجل ينادي من الحديقة. ارتديتُ قميصي ووقفت خلف جدار الشرفة نصف المتهدم. كان رجلاً إفريقياً، وواحداً من أولئك السائرين الأزليين على الطرق، يقف على الحافة البعيدة من الحديقة، كأنما خوفاً من البيت. عندما رآني لوّح بيديه وصاح: "ثمّة أفاعي الكوبرا السامة في القلعة." ذلك كان يفسّر رائحة السمك التي رافقتنا: إنها رائحة الأفاعي.

ارتدينا ملابسنا رطبةً كما هي. هبطنا الدرج الملكي العريض باتجاه الأطلال الرملية المحروقة للحديقة، جزعين جداً من أفاعٍ بمقدورها أن تسبب العمى على مسافة عدة أقدام. انتهينا من ارتداء ملابسنا في سيارة اللاند-روفر وغادرنا عائدين بصمت. بعد وقت قصير قلت

لغراشا: "إنني أشمّ رائحتكِ على جسدي وأنا أقودُ السيارة." لا أدري كيف أتتني الشجاعة، لكنه بدا لي الشيء الطبيعي والسهل لأقوله. قالت: "وأنا أشمّكَ." أحببتها بسبب ذاك الردّ. أرحتُ يدي اليمنى على فخذها أطول مدة ممكنة، وفكرت بحزن- دون أي شعور بالعار الشخصي الآن- في والدي المسكين ووالدتي، اللذين لم يعرفا أي شيءٍ عن هذه اللحظة. بدأتُ أرتبُ حياتي حول لقاءاتي مع غراشا، ولم أكن أهتم إذا لاحظ ذلك أحد. في جزء من عقلي كنت مدهوشاً من نفسي، ومدهوشاً من الشخص الذي صرتُهُ. ذكرى ما اجتاحتني عن شيء حدث في الوطن، وفي المعبد تحديداً، قبل خمسة وعشرين عاماً. لابد أنني كنت في العاشرة من العمر عندئذ. تاجر من البلدة أتى لرؤية والدي. هذا التاجر كان غنياً، ويتبرع بصدقات دينية، غير أن الناس كانوا منزعجين منه، لأنه قيل عنه إنه داعر في حياته الخاصة. لم أكن أدرك ماذا يعني ذلك، لكن- وبسبب التربية الثورية لعم والدتي- تلطّخت سمعة الرجل وثروته في نظري. لا بدّ أن التاجر وصل إلى أزمة معينة في حياته، ولأنه رجل مخلص، أتى إلى والدي طالباً النصح والراحة. وبعد تبادل التحيات والحديث المقتضب، قال التاجر: "سيدي، أجد نفسي في حالٍ صعبة." ثمّ توقف الرجل وراح والدي ينتظر. قال التاجر: "سيدي، أنا مثل الملك داساراثا." داساراثا كان اسماً مقدساً. كان حاكماً للمملكة القديمة كوسالا، ووالداً للبطل-الإله راما. ابتسم التاجر، سعيداً بما قاله، وسعيداً بإضفاء التقوى على قصته، غير أن والدي لم يكن سعيداً على الإطلاق. قال بطريقته القاسية: "بأي معنىً أنت مثل الملك داساراثا؟" لا بدّ أن التاجر تلقى تحذيراً من لهجة والدي، لكنه استمرّ يبتسم، وقال:

"ربما لست تماماً مثل داساراثا. كانت لديه ثلاث زوجات. أما أنا فلدي اثنتان. وهذا الاختلاف، يا سيدي، يقبع في جذر مشكلاتي-" ولم يُسمح له بأن يستمرّ. قال والدي: "كيف تجرؤ على مقارنة نفسك بالآلهة؟ داساراثا شخص شريف. تميّز حكمه بعدالة لا مثيل لها. حياته في خريف عمره كانت حياةً من التضحية. كيف تجرؤ على مقارنة نفسك، ومقارنة شهواتك الرخيصة برجل مثل هذا؟ لو لم أكن رجلاً مسالماً لأمرتُ بجلدك وطردك خارج معبدي." هذه الواقعة أضافت شيئاً إلى سمعة والدي، وعندما عرفنا، نحن الأطفال، دعارةَ الرجل، شعرنا، كما يحدث الآن، بالسخط كما شعر والدي. أن يملك المرء زوجتين، وعائلتين، كان ضد منطق الطبيعة. إذ إن استنساخ الترتيبات، واستنساخ العواطف، عدّ تزييفاً بصورة أبدية. وكان يعني إلحاق العار بكل شخص. ويعني أيضاً تركَ كل شخص واقفاً على رمالٍ متحركة.

هكذا كانت تبدو الأمور لي في سنّ العاشرة. مع ذلك أواجهُ آنا كل يومٍ الآن دون شعور بالعار، وكلما رأيتُ لويس، زوج غراشا، كنت أعامله بودّ حقيقي، إذ يكفي أنه ودّ يتأتّى من شعورٍ بالعرفان لقاء حبّ غراشا.

سرعان ما اكتشفت أنه رجل مدمن على الشرب، وبأن الانطباع الذي تركه لدى لقائنا الأول، عن كونه شخصاً عنيفاً يضع نفسه تحت السيطرة، متعلقٌ بإدمانه. كان يشرب طوال النهار، كما أخبرتني غراشا، كأنه يحاول أن يصل إلى أقصى الطاقة التي كانت مسؤولة عن استمراره. كان يشرب كميات صغيرة لا تُرى، جرعة أو جرعتين من نبيذ الرام أو الويسكي، ليس أكثر؛ ولم يكن يبدو ثملاً أبداً، أو خارج السيطرة. في الحقيقة، أسلوبه في الشرب وسط صحبة معينة جعله يبدو

تقريباً معتدلاً. حياة غراشا، برمّتها، كانت مسيّرةً وفقاً لحياة الشرب التي يتبعها زوجها. ولطالما تنقّلوا من بلدةٍ إلى بلدةٍ، ومن بيت إلى بيت، ومن عمل إلى عمل.

وضعتُ اللوم في زواجها على الراهبات. في مرحلة معينة في مدرسة الراهبات، بدأن يتحدثن إليها عن ضرورة أن تصبحَ راهبة. كنّ يفعلن ذلك مع الفتيات اللواتي كنّ فقيرات، وعائلة غراشا كانت فقيرة. والدتها تنحدر من شخص خليط النسل، ومن دون أيّ ثروة؛ أما والدها فكان برتغالياً من المرتبة الثانية، مولوداً في المستعمرة، ويمارس عملاً صغيراً في الخدمة المدنية. صدقةٌ دينية تبرعت بالأقساط لإرسال غراشا إلى مدرسة الراهبات، وبدا لغراشا أن الراهبات كنّ يبحثن عن تعويض ما بالمقابل. كانت تشعر بالخجل تجاههن، وغراشا كانت دائماً طفلة مطيعة، في المدرسة والبيت. لم تقل لا؛ لم تكن تريد أن تظهر كفتاة عاقة. وعلى مدى أشهر حاولن كسرها. كنّ يمتدحنها. قلن: "غراشا، أنتِ لست مخلوقة عامة. تمتلكين صفات خاصة. نحتاج إلى أناس مثلك للمساعدة برفع وتيرة النظام." أخفنها، وعندما كانت تعود إلى البيت لقضاء عطلتها، كانت تشعر بأنها أكثر بؤساً من أيّ وقت مضى.

كانت عائلتها تملك قطعةً من الأرض، تصل مساحتها ربما إلى هكتارين، تحتوي على الأشجار المثمرة والأزهار والدجاج والحيوانات. كانت غراشا تحب كل هذه الأشياء. تحبُّ رؤية الدجاجات وهي ترقد على بيضها، والصيصان الصغيرة المخملية الصفراء وهي تفقّس، وتسقسق، وجميعها من النوع القادر على إيجاد ملجأ تحت الجناحين المبسوطين للدجاجة الأمّ الشرسة، التي لا تفتأ تقرقُ، تتبعها الصيصان حيثما

ذهبت، وبالتـدريج، وفي غـضـون أسـابيع، تكبـر، كلّ له لونه الخـاصّ وشخصيته الخاصة. وكانت تحبّ قططَها وهي تتبعها في أنحاء الحقل، وتركض بسرعة فائقة، ليس خوفاً بل متعةً. وكان التفكير في حبس هذه المخلوقات الصغيرة داخل خم، سواء دجاجات أو قطط، يسبب لها ألماً عظيماً. والتفكير الآن في ترك كلّ هذه الأشياء إلى الأبد، وانحباسها هي بعيداً، كان أمراً لا يطاق بالنسبة لها. كانت تخشى أن تذهب الراهبات من وراء ظهرها إلى أمها. وأمها، متدينة ومطيعة، كانت ستتخلّى لهنّ عنها. كان ذلك عندما قررت أن تتزوج لويس، ابن أحد الجيران. وأمها أدركت ذعرَها ووافقت.

تعقّبَ أثرها لبعض الوقت وكان وسيماً. كانت في السادسة عشرة، وكان في الواحدة والعشرين. اجتماعياً كانا متكافئين. كانت تشعر بالراحة معه مقارنةً بفتيات الدير، اللواتي كن في معظمهن ميسورات الحال. كان يعمل كتقني في إحدى الشركات الصغيرة، التي تتعامل بالسيارات والجرارات والآلات الزراعية، وكان يتحدّث عن التأسيس لشركة تخصه. كان قد أدمن عادة الشرب لتوه، لكنها في تلك المرحلة بدت مجرد موضة، وجزءاً من حياة ما يسمى التقدم إلى الأمام.

انتقلا بعد زواجهما إلى العاصمة. شعر زوجها بأنه لا يتجه وجهةً بعينها في البلدة، ولن يكون بمقدوره أن يبدأ عملاً يخصّه؛ الأثرياء المحليون كانوا يسيطرون على كل شيء، ولا يسمحون للرجل الفقير بالعيش. في العاصمة مكثا لبعض الوقت لدى أحد أقارب لويس. وحصل لويس على عمل كتقني في شركة للسكك الحديدية، بعدئذ تم تخصيص منزل تابع للسكك الحديدية لهما، وكان المنزل يناسب درجةَ

لويس في العمل. كان منزلاً صغيراً مؤلفاً من ثلاث غرف، كل غرفة بجانب الأخرى في صف واحد، شُيدت لتناسب الصفّ فقط. ولم يُشيّد المنزل حسب المناخ. كان يتجه غرباً، ويُشوى بالحرارة كل ظهيرة، ولا يبرد حتى الساعة التاسعة أو العاشرة مساءً. كان مكاناً بائساً للسكن، يوماً وراء يوم؛ ويشحذ أعصاب ساكنيه. أنجبت غراشا طفليها هناك. وعقب ولادة طفلها الثاني حدث شيءٌ في رأسها، ووجدت نفسها تمشي في شطر من العاصمة لا تعرفه. وفي ذات الفترة طُرِد لويس من عمله بسبب إدمانه. حدث ذلك عندما باشرا حياة التسكع. غير أنّ مهارةَ لويس، كتقني، أبقت العائلة على قيد الحياة، وكانت ثمة أوقات عملا فيها بصورة جيدة. كان لا يزال قادراً على إدهاش الناس. حصل على عمل المزرعة وصار بسرعة مديراً. كان دائماً هكذا، يبدأ بداية جيدة ويتعلم الأشياء بسرعة. غير أن عزيمته كانت تفترُ في كلّ عمل. بعض الظلام يغطّي عقله. ثمة دائماً أزمة يتبعها انهيارٌ ما.

وكما كانت تشعر بالإعياء جراء حياتها مع لويس، كانت تثقل كاهلَها الأكاذيبُ التي اضطرت لقولها عنه، منذ البداية تقريباً، لكي تغطي على عادة الشرب لديه. جعلها ذلك شخصاً من نوع آخر. في إحدى الظهيرات عادت إلى المنزل من رحلة قصيرة مع الأطفال، ووجدت أنه كان يحتسي كحول الموز، المصنّعة يدوياً، مع بستانيٍ إفريقي كان بدوره سكيراً عتيقاً. أصيب الأطفال بالذعر. غراشا أطلعتهم على رعب الشرب. وعليها الآن أن تفكر بسرعة، وتقول شيئاً مختلفاً. قالت لهم إن ما يفعله والدهم شيء حسن؛ والأحوال تبدلت، حيث إنه من العدل في إفريقيا أن يشرب مدير المزرعة الخمرَ مع بستانيّهِ الإفريقي. واكتشفت

لويس في العمل. كان منزلاً صغيراً مؤلفاً من ثلاث غرف، كل غرفة بجانب الأخرى في صف واحد، شُيدت لتناسب الصفّ فقط. ولم يُشيّد المنزل حسب المناخ. كان يتجه غرباً، ويُشوى بالحرارة كل ظهيرة، ولا يبرد حتى الساعة التاسعة أو العاشرة مساءً. كان مكاناً بائساً للسكن، يوماً وراء يوم؛ ويشحذ أعصاب ساكنيه. أنجبت غراشا طفليها هناك. وعقب ولادة طفلها الثاني حدث شيءٌ في رأسها، ووجدت نفسها تمشي في شطر من العاصمة لا تعرفه. وفي ذات الفترة طُرِد لويس من عمله بسبب إدمانه. حدث ذلك عندما باشرا حياة التسكع. غير أنّ مهارةَ لويس، كتقني، أبقت العائلة على قيد الحياة، وكانت ثمة أوقات عملا فيها بصورة جيدة. كان لا يزال قادراً على إدهاش الناس. حصل على عمل المزرعة وصار بسرعة مديراً. كان دائماً هكذا، يبدأ بداية جيدة ويتعلم الأشياء بسرعة. غير أن عزيمته كانت تفترُ في كلّ عمل. بعض الظلام يغطّي عقله. ثمة دائماً أزمة يتبعها انهيارٌ ما.

وكما كانت تشعر بالإعياء جراء حياتها مع لويس، كانت تثقل كاهلَها الأكاذيبُ التي اضطرت لقولها عنه، منذ البداية تقريباً، لكي تغطي على عادة الشرب لديه. جعلها ذلك شخصاً من نوع آخر. في إحدى الظهيرات عادت إلى المنزل من رحلة قصيرة مع الأطفال، ووجدت أنه كان يحتسي كحول الموز، المصنّعة يدوياً، مع بستانيٍ إفريقي كان بدوره سكيراً عتيقاً. أصيب الأطفال بالذعر. غراشا أطلعتهم على رعب الشرب. وعليها الآن أن تفكر بسرعة، وتقول شيئاً مختلفاً. قالت لهم إن ما يفعله والدهم شيء حسن؛ والأحوال تبدلت، حيث إنه من العدل في إفريقيا أن يشرب مدير المزرعة الخمرَ مع بستانيّهِ الإفريقي. واكتشفت

بعدئذ أن الأطفال بدؤوا بالكذب هم أيضاً. التقطوا العادة منها. وهذا هو السبب الذي جعلها ترسلهم إلى مدرسة داخلية، بالرغم من تعاستها في مدرسة الراهبات.

وحلمت لسنوات بالعودة إلى الريف الذي عرفته كطفلة، حيث إن أشياء بسيطة من حيوانات ودجاج وأزهار وأشجار مثمرة في الهكتارين من الأرض لعائلتها، كانت تجعلها سعيدة أثناء عطلها المدرسية. وها قد عادت الآن، تعيش كزوجة مدير في بيت المزرعة محوطة بأثاث كولنيالي عتيق. هذا الأثاث كان يمثّل فخامةً مزيفة؛ فالأشياء لا تزال غامضة كما كانت عليه قبل. وكأنّ أمزجة ومنغّصات الماضي ستظلّ دائماً معها، بل كأنّ أمر حياتها قد تقرّر منذ أمد طويل.

هذا ما كانت غراشا قد أخبرتني به على مدى عدة أشهر. كانت قد تعرفت إلى حفنة من العشاق في غضون ذلك، لكنها لم تجعلهم جزءاً من القصة. مرّوا خارج هذا الإطار، إن صحّ التعبير، كأنّ حياتها الجنسية، في ذاكرتها، كانت منفصلةً عن حياتها الأخرى. وبهذه الطريقة غير المباشرة عرفتُ أنّ ثمة أناساً قبلي في حياتها، عادة أصدقاء لكليهما، ومرةً أحد رؤساء لويس في العمل، الذي كان قد قرأ عينيها مثلما قرأتُ، أدرك حاجتَها. شعرتُ بالغيرة من كلّ هؤلاء العشاق. لم أكن قد عرفتُ الغيرة من قبل. فكّرتُ في كل هؤلاء الناس الذين رأوا ضعفها ووجّهوا هجومهم عليها، وتذكرتُ بعض الكلمات لبيرسي كاتو في لندن، ورحتُ للمرة الأولى أكوّن فكرتي عن وحشية الحياة الجنسية.

كنت أغرق الآن عميقاً في تلك الوحشية مع غراشا. صورٌ جنسية لها تلعب في رأسي عندما لا أكون معها. وعلى هَديها، بما أنها كانت

أكثر تجربة مني، أخذت علاقتنا الجنسية أشكالاً صعقتني وأقلقتني لكنها أمتعتني. كانت غراشا تقول: "لن توافق الراهبات على ذلك." أو تقول: "أبتاه، لقد كنت أرتكب الفحشاء." وكان صعباً نسيان ما كانت تفكر فيه، وتجاهل تفتح حواسّ جديدة؛ كما أنه كان صعباً الرجوع إلى الطرق الجنسية البسيطة للأيام الأولى. وفكّرتُ، كما كنت أفعل غالباً في مناسباتٍ كهذه، في الصبيانية التي كانت تتسم بها رغبات والدي.

ومرت الشهور. بل، وبعد مضي سنتين، كنت أشعر بنفسي عاجزاً تجاه هذه الحياة الشهوانية. وفي ذات الوقت بدأ يكبر الآن في داخلي نصفُ شعورٍ بتفاهة حياتي، ومعه جاءت بدايةُ احترامٍ للحظر الديني على التطرف الجنسي.

ذات يوم قالت لي آنا: "الناس يتحدثون عنك وعن غراشا. أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟"

قلت: "هذا صحيح."

قالت: "لا يمكنك أن تتحدث معي بهذه الطريقة، يا ويلي."

قلت: "أتمنى لو تكونين معي في الغرفة ونحن نمارس الجنس. عندها كنتِ ستفهمين."

"عليك ألاّ تفعل ذلك، يا ويلي. ظننتُ أن لديك أسلوباً على الأقلّ."

قلت: "إنني أتحدث إليكِ كصديق، يا آنا. لا أملك أحداً آخر أخبره."

قالت: "أعتقد بأنك جُننت."

لاحقاً فكرتُ في أنها كانت ربما على حق. كنتُ أتحدث انطلاقاً من لحظةٍ ما من الجنون الجنسي.

في اليوم التالي قالت: "أنت تعرف أن غراشا إنسانة بسيطة جداً، أليس كذلك؟"

لم أدرك ماذا عنت. هل كانت تعني أن غراشا فقيرة، وليس لها مكانة اجتماعية، أم هل كانت تعني أن غراشا ساذجة وبسيطة العقل؟

قالت: "إنها بسيطة. أنتَ تعرف ما أقول."

وبعد هنيهة عادت إليّ وقالت: "لدي نصف أخٍ. هل تعرف ذلك؟"

"لم يسبق أن أخبرتِني."

"أودّ أن آخذكَ لرؤيته. إذا وافقتَ، سوف أرتّب ذلك. أودّكَ أن تكوّنَ فكرةً ما عمّا كان عليّ أن أقاسيه هنا، ولماذا حين قابلتكَ ظننتُ أنني أقابل شخصاً من عالمٍ آخر."

شعرتُ بشفقة كبيرة تجاهها، وبعض القلق حول إمكانية معاقبتها لي جراء ما اقترفتُهُ. وافقتُ على الذهاب ورؤية نصف الأخ هذا.

كان يعيش في المدينة الإفريقية على حافة البلدة الرئيسة.

قالت آنا: "عليكَ أن تتذكّر أنه رجل حانق جداً. لن يعبّر عن ذلك بالصراخ في وجهك. سوف يكابرُ. سيحاول أن يجعلكَ تعرف أنه لا يكترث لأمرك أبداً، وأنه أنجز الكثير معتمداً على نفسه."

كانت المدينة الإفريقية قد ازدهرت كثيراً إبان قدوم الجيش. إنها الآن مثل سلسلة من القرى المتجاورة ذات الحديد المموّج والإسمنت، أو الكتل الإسمنتية التي أخذت مكان العشب والقصب. من بعيد كانت تبدو وطيئة وواسعة ومسطّحة بصورة غير طبيعية. أدغال من الأشجار على الطرف القصي حدّدت معالم مستوطنة الأكواخ الأصلية، أو مدينة القصب، كما كان يقول الناس. في تلك المدينة الأفريقية الأقدم كان

يعيش نصفُ الأخ هذا لآنا. قيادةُ السيارة لم تكن سهلة. الزقاق الضيق الذي دخلناه كان ينعطف مراراً وتكراراً، وثمة دائماً طفل يحمل وعاءً من الماء على رأسه. في هذا الفصل الجاف ابتلي الزقاق الوسخ بغبار أحمر تصل سماكته إلى عدة بوصات؛ ذاك الغبار راح يتموج خلفنا، ومن ثمّ حولنا كالدخان. مسيلات من القمامة الداكنة من بعض الباحات كانت تتبخّر مع الغبار، وهنا وهناك كانت ثمة برك أو حفر من المياه النتنة. بعض الباحات كانت مسيجة بالحديد المموج، أو القصب. في كل مكان ثمة أشجار المانغا الضخمة، وأشجار البابو النحيلة الخضراء، تتفرّع باسقةً خلال الغبار، مع مزارع صغيرة من الذرة والمنيهوت وقصب السكر في باحات عدّة، كأنّ المرء في قرية تقريباً. بعض الساحات كانت تشبه ورشات عمل، تصنع الكتل الإسمنتية والأثاث، ترقّع إطارات قديمة أو تصلّح سيارات و جرارات. كان نصف الأخ لآنا يعمل ميكانيكياً، وكان يعيش بالقرب من ساحته الكبيرة، التي يمارس فيها مهنته. بدت الساحة تضجّ بالشغل مع العديد من السيارات العتيقة والباصات الصغيرة، مع وجود ثلاثة أو أربعة رجال بقمصان داخلية مشحّمة كثيراً. والأرض سوداء بفعل الزيوت العتيقة للمحركات.

كان بيته أفضل من معظم البيوت في المدينة الإفريقية. لم يكن للبيت سياج، حيث شُيّد مباشرةً قبالة الزقاق. كان بيتاً وطيئاً من الإسمنت، ومدهوناً بعناية بالدهان الزيتي الأصفر والأخضر. المدخل كان جانبياً. سمح لنا بالدخول عجوز إفريقي أسود، الخادم أو أحد الأقارب البعيدين. شرفة عريضة تشمل الغرف الرئيسة، التي كانت على جانبي الباحة. على الطرفين الآخرين توجد أبنية منفصلة، وهي ربما مقرات

لسكن الخدم أو الزوار، وهناك المطبخ. جميع الأبنية كانت متصلة بعضها ببعض بوساطة ممرات إسمنتية، ترتفع ست بوصات أو أكثر عن الغبار الكثيف (الذي يتحول إلى أوحال خلال المطر). كان الناس ينظرون إلينا من المطبخ وغرف الخدم، غير أن الرجل نفسه ظهر من شرفة البيت الرئيس عندما قادنا أحد الخدم إلى هناك.

كان رجلاً داكناً متوسط الطول. لم ينظر إلي أو إلى آنا. كان حافي القدمين. يرتدي قميصاً داخلياً وبنطلوناً قصيراً رثّاً جداً. ودون أن ينظر إلى آنا كلّمها بنوع من اللغة المحلية الخليطة، التي لم يكن سهلاً عليّ تتبعها. أجابت باللغة نفسها. دون اكتراث، جاراً قدميه على الإسمنت، قادنا إلى الداخل باتجاه الغرفة الرسمية للضيوف. كان ثمة مذياع يصدح عالياً، والراديو جزء مهم من الأثاث في هذه الغرفة الرسمية. النوافذ مغلقة والغرفة مظلمة ودافئة جداً. أعتقد أنه اقترح تشغيل مبردات الهواء. آنا، التي كانت تحافظ على الكياسة مثله، أخبرته ألاّ يكلف نفسه عناء ذلك. كانت الغرفة تغصّ بالأثاث الرسمي الذي يجب أن يكون في أي غرفة للزوار: طقم من الكراسي المنجّدة (مغطاة بقماش صناعي مشعّ)، وطاولة عشاء مع طقم كامل من الكراسي المحيطة (كراسيُّ ليست ملمّعة، وهي خشنة المظهر، ويمكن أن تكون قد جُهّزت في إحدى ورش الأثاث في الزقاق). لم يكن هناك حقاً فسحة لكل شيء؛ إذ كل شيء كان مكدساً بصورة عشوائية. كان يتحدّثُ طوال الوقت، مُطلعاً آنا على ما يملكه دون أن ينظر إليها، وطوال الوقت كانت آنا توجه له الإطراء. دعانا للجلوس على الكراسي المنجّدة. آنا قالت بكياسة تعادل كياسته، إننا نودّ الجلوس في الخارج؛ وهكذا، وبعد أن أطفأ المذياع، عاد معنا إلى

الشرفة العريضة، حيث توجد كراسيُّ وطاولات للاستعمال اليومي.

صاح بصوته. امرأةٌ بيضاء صغيرة الحجم جداً أتت من إحدى الغرف. وجهها مملوء وأملس. لم تكن صغيرة السنّ. قدّم الرجل هذه المرأةَ، زوجته، كما أدركتُ لاحقاً، إلى آنا؛ وآنا قبلت الأمر بأريحية. المرأة البيضاء الصغيرة البنية- كانت قصيرة حقاً، لا يتعدى طولها طول خزانة الحائط الزجاجية (الملأى بالمزخرفات) التي كانت تتكئ عليها- طلبت منا أن نشربَ شيئاً. وسرعان ما سمعنا صياحاً في المطبخ. كان الرجل يجلس على كرسي وطيء. استخدم قدميه لجرّ طاولة صغيرة باتجاهه، وأراح قدميه عليها، فارداً ركبتيه على وسعهما؛ بنطلونه المهلهل انكمش إلى الخلف حتى المنفَرَج. وطوال الوقت كان الناس في الباحة والمطبخ وجناح الخدم ينظرون إلينا؛ لكنه لم يكن قد نظر إليّ أو إلى آنا بعد. واستطعت أن أرى الآن أن عينيه، على الرغم من سواده، كانتا فاتحتين. راح الرجل يربّت على فخذيه من الداخل كأنه يهدهد نفسه. كانت آنا قد هيأتني لهذا النوع من العدوانية، وكان صعباً عليّ لولا ذلك أن أستوعب ما يحصل. وبعد مضي وقت ليس بالقليل رأيت أنه، بالإضافة إلى زوجته وخزانة مزخرفاته، كان يحتفظ بكنزٍ آخر على الشرفة: زجاجة خضراء كبيرة مغلقة تحتوي على أفعى حيّة موضوعة على طاولة مغطاة بقماش زيتي بالقرب من كرسيه تماماً.

كان لون الأفعى مائلاً إلى الاخضرار. عندما كان الرجل يعذّبها أو يتحرّش بها، كانت الأفعى، على الرغم من أنها محبوسة بإحكام، تندفع بغضب مخيف مفاجئ فاتحةً فاهاً عريضاً صوب جدار الزجاجة التي صار لونها عكراً بسبب نوع المادة المخاطية من فم الأفعى. اغتبط الرجل للأثر

الذي تركته الأفعى عليّ. بدأ يتحدث إلي بالبرتغالية. كانت المرة الأولى التي ينظر فيها إليّ. قال: "إنها أفعى تنفث السمّ. تستطيع هذه الأفاعي أن تعميكَ من مسافة خمسة عشر قدماً. إنها تستهدف الأشياء البراقة. يمكن أن تستهدف ساعتك أو نظارتيك أو عينيك. إذا لم تمسحها بسرعة بالماء والسكر فستجد نفسك في مأزق."

في طريق العودة قلت لآنا: "كان الأمر مرعباً. أنا سعيد أنك أخبرتني مسبقاً عن مسألة المكابرة. لا يهمني هذا. ولكن الأفعى- تمنيت لو حطّمتُ الزجاجة."

قالت: "إنه من لحمي ودمي. التفكير في أنه طوال الوقت هناك. هذا ما كان عليّ أن أعيش في ظلّه. أردتكَ أن تراه. هذا ما يمكن أن تتركه خلفك."

* * *

تجاهلت ملاحظتها. لم أكن أرغب في الشجار معها. كانت جيدة جداً ودقيقة مع نصف الأخ هذا، جيدة جداً في وضعٍ سيئ، وارتفعَ منسوبُ الحبّ القديم والاحترام تجاهها في داخلي. حبّ قديم: كان لا يزال هناك، بل يمكن أن يزداد في لحظات كهذه، لكنه ينتمي الآن إلى حياة أخرى، أو إلى شطر من حياتي أكمل دورته. لم أعد أنام في سرير جدها الكبير المرصّع، لكننا كنا نعيش بسهولة في البيت نفسه، نأكل غالباً معاً، ولدينا الكثير من الأشياء نتحدّثُ عنها. ولم تعد تسعى إلى توبيخي. أحياناً ونحن في غمرة حديث ما كانت تنسحب وتقول: "ولكن يجب ألاّ أتحدث إليك بهذه الطريقة." وبعد فترة قصيرة كانت تستأنف

حديثها. وبشأن مسائل المزرعة وأفعال أهل المزرعة استمرّت ثقتي بها.

لم أفاجأ حين وصلت الأخبار بأن كارلا كوريا قررت أن تبيع مزرعتها. إذ لطالما قالت آنا إنّ هذا ما ستقوم به كارلا، وإنه، على الرغم من الحديث عن الصدَقَة إلى صديقة المدرسة، كان لويس وغراشا قد وُضِعا في بيت المزرعة لحفظ النظام فيه إلى أن يتم بيعه. باعت كارلا أملاكها إلى شركة عقارات كبيرة في البرتغال، وباعت بأحسن الأسعار. أسعار العقارات التي كانت تهبط بسبب حرب العصابات في الشمال والغرب، ارتفعت ثانيةً بطريقة غير معقولة، لأنّ بعض الناس المتنفّذين في لشبونة كانوا قد بدؤوا يقولون إنّ الحكومة والثوار على وشك الوصول إلى اتفاق.

إذاً كان على لويس وغراشا أن يستأنفا حياة التنقّل. شركة العقارات أرادت المزرعة من أجل مديريها عندما يخرجون "في جولة" (كانت الشركة تعتقد على ما يبدو بأنّ النظام الكولنيالي والأسلوب الكولنيالي سيستمران بعد الحرب). لكن الأمور لم تكن بذاك السوء بالنسبة لغراشا ولويس. أرادت الشركة أن يظلّ لويس مديراً للمزرعة. سيبنون بيتاً جديداً من أجله فوق هكتارين من الأرض؛ وبعد سنوات قليلة سيكون لويس قادراً على شراء بيت له ضمن شروط سهلة. وإلى أن يُبنى البيت سوف يستمرّ لويس وغراشا بالعيش في منزل المزرعة. كان ذلك جزءاً من الصفقة التي عقدتها كارلا مع الشركة. ولذلك كانت آنا على صواب ومخطئة في آنٍ معاً. كارلا كانت قد استخدمت (بطريقة بسيطة) غراشا ولويس لتضيفَ إلى ثروتها، لكنها لم تنس صديقة المدرسة. كانت غراشا سعيدة جداً. منذ أن غادرت البيت لم يسبق أن كان لها بيت يخصّها. هذا ما كانت تحلم به منذ سنوات، تحلم بالبيت

والحديقة والأشجار المثمرة والحيوانات. وكانت قد بدأت تشكّ في أنّ هذا لن يتحقق أبداً، ولكنه يتحقق الآن بطريقة غير مباشرة.

مباشرةً بعد البيع، وبطريقتها التي تتسم بالفخامة، أرسلت شركة العقارات مهندساً من العاصمة لبناء بيت غراشا. لم تكن لتصدّق حظّها. مهندس، ومن البرتغال! مكث في إحدى غرف الضيوف في بيت المزرعة. كان اسمه غوفيا. كان عفوياً ومدنياً على الطراز الحديث، حيث جعل كل شخص في منطقتنا يبدو قديم الطراز. كان يرتدي جينزاً خفيفاً، جعله يبدو ناعماً وثقيلاً قليلاً، لكننا لم نفكّر في توجيه النقد إليه. كان في الثلاثينيات من عمره. كل شخص ضمن دائرة بيت المزرعة راح يتودد له. وبدأ يأتي معنا إلى مناسبات غداء الأحد. افترضنا أنه بسبب كونه جاء من البرتغال، ويعمل لمصلحة شركة العقارات، التي كانت تشتري المزارع القديمة، مراهنةً على أن الماضي سيستمرّ، افترضنا أنه سيتحدث ضد ثوّار العصابات. لكنه فعل الشيء الآخر. تحدّث بمتعة عن الدم الذي سيُسفح، بالطريقة ذاتها تقريباً التي كان يتحدث فيها جاسينتو في الأيام الماضية. أجمعنا على أنه رجل أبيض يتظاهر بأنه رجل أسود. كان نموذجاً لأناس بدؤوا يدخلون المستعمرة، إباحيين، ميسوري الحال، برتغاليين صرف، أناس مثل غوفيا في الحقيقة، ممن يستطيعون التنصّل والهرب أو تدبّر أمورهم، إذا نشبت هناك مشكلة حقيقية.

بعد أسبوع، أو نحوه، تسربت أخبار بأن غوفيا مرتبط بامرأة إفريقية في العاصمة. وكما هو الحال دائماً عندما يظهر أناس جدد، بدا الأمر كأن شخصاً ما يقوم بالتحرّيات، وفي الأيام القليلة التي تلت ذلك بدأنا نسمع قصصاً عن هذه المرأة. واحدة من هذه القصص تقول إن المرأة

ذهبت مع غوفيا إلى البرتغال، لكنها رفضت القيام بأي عمل منزلي، خشية أن يظنّ الناس في البرتغال أنها مجرد خادمة. قصص أخرى تحدثت عن خَدَمِها في العاصمة. من هذه القصص أن خدمها كانوا دائماً يتشاجرون معها لأنها إفريقية، ولا يكنّون لها أي احترام. وفي قصة أخرى أن أحدهم سألها لماذا تبدو قاسية جداً على خدمها، فأجابت بأنها إفريقية، وتعرف كيف تتعامل مع الأفارقة. بدت القصص ملفّقة، وتتجه صوب الماضي، ولم يكن أحد في الحقيقة يصدقها أو يجد عزاءً فيها، لكنها مع ذلك قصص خلّفت رواجاً. بعدئذ أتت المرأة من العاصمة لتمضي بضعة أيام مع غوفيا، وكان أن أحضرها معه إلى إحدى مناسبات الغداء يوم الأحد. كانت عادية تماماً، ذات وجه أملس، متأمّلة، رصينة الذات، وصامتة، بل امرأة قروية انتقلت إلى المدينة. بعد فترة لاحظنا أنها حامل، وصرنا جميعاً كالفئران. قال أحدهم فيما بعد: "تعرفون لماذا يفعل هذا، أليس كذلك؟ إنه يريد أن يتملّق رجال العصابات. يشعر بأنه إذا كان بصحبة امرأة إفريقية، عندما يأتون، فلن يقتلوه."

مارسنا الجنس، أنا وغراشا، في المنزل وهو لايزال في طور الإنشاء. قالت: "يجب أن نعمّد جميع الغرف." وهذا ما فعلناه. ورحنا نحمل بعيداً رائحة الخشب المصقول والنشارة والإسمنت الجديد. ولكن أناساً آخرين انجذبوا إلى المنزل أيضاً. ذات يوم، سمعنا حديثاً، نظرنا عبر نصف الجدار المشيّد ورأينا بعض الأطفال؛ كانوا أبرياء، مراهقين، مذعورين لرؤيتنا. قالت غراشا: "الآن ليس لدينا أسرار."

ذات يوم وجدنا غوفيا. رأيت في عينيه السوداوين البراقتين أنه قرأ قصدنا. شرح لنا بطريقة فيها بعض التأنق أنه يهدف إلى الانتقال

من منزل غراشا. ومن ثمّ أردف قائلاً: "لكنني أريد أن أعيش في القلعة الألمانية. للبيوت أقدارها، وقدر القلعة أن تكون لي. سوف أرممها بطريقة خرافية وعندما تأتي الثورة سأنتقل إلى هناك." فكّرت في المنزل والمشهد والألماني والأفاعي، وتابع قائلاً: "لا تكن خائفاً يا ويلي. أنا أقتبس من زيفاغو فحسب."

باكراً، ذات ليلة، فيما كانت الأضواء لا تزال تقفز، أتت آنا إلى غرفتي. كانت مكتئبة. إنها ترتدي ثياب النوم القصيرة التي أكّدت نحولها ورقّة عظامها.

قالت: "ويلي، هذا مرعب، لا أعرف كيف أتحدث عنه. ثمة براز على سريري. اكتشفت ذلك للتو. إنها ابنة خوليو. تعال وساعدني على تغيير الشراشف. تعال ودعنا نحرق كل شيء."

ذهبنا إلى السرير الكبير المرصّع وعرّيناه بسرعة. ارتجفت الأضواء، وصارت آنا مكتئبة أكثر فأكثر. قالت: "أشعر بالقذارة. أشعر أن عليّ أن أستحمّ وأستحمّ."

قلت: "اذهبي واستحمّي. سوف أحرق الشراشف."

أخذتُ الصرّة الكبيرة إلى القسم الميت من الحديقة. سكبتُ البنزين فوقها ورميت عود كبريت عليها من مسافة. اشرأبّ اللهبُ ورحت أراقبه، وهو يلتهم الصرّة، بينما كان المحوّل يلفظ أنفاسه الأخيرة والأضواء في المنزل تخفتُ وتضيء.

كانت ليلةً سيئة. أتت إلى غرفتي، مبللة، ترتجف بعد الاغتسال، وضممتها. سمحت لنفسها بأن تُضمّ، وفكرت ثانيةً في الطريقة التي سمحت بها لنفسها بأن تُقبّل في غرفة الكلية في لندن. فكرتُ أيضاً في

ابنة خوليو، التي حاولت، كفتاة صغيرة، أن تبدأ حديثاً مؤدباً معي، والتي كنتُ قد رأيتها، لكنني لم أتعرفها في أحد أماكن المتعة.

قالت آنا: "لا أعلم ما إذا كانت وضعت البراز هناك. أو أنها قرفصت على السرير."

قلت: "لا تفكّري بهذه الطريقة. فكّري فقط في أنك ستتخلصين منها في الصباح."

قالت: "أريدكَ أن تمكث قليلاً في الصباح. لا تُظهر نفسكَ، ولكن قف على مقربة في حال بدر منها عنفٌ ما."

في الصباح كانت آنا قد تمالكت نفسها من جديد. عندما أتت ابنة خوليو قالت آنا: "كان شيئاً حقيراً ذاك الذي فعلته. أنتِ تعيشين في هذا البيت منذ اللحظة التي ولدتِ فيها. إنكِ امرأة حقيرة. كان يجب أن تُجلدي من قبل والدك. ولكن كل ما أريده هو أن تغادري هذا البيت في الحال. معك نصف ساعة: "قالت ابنة خوليو ببعض الوقاحة التي تعلّمتْها من أماكن المتعة: "أنا لست حقيرة. تعرفين من هو الحقير."

قالت آنا: "اخرجي و لا تعودي. معكِ نصف ساعة."

قالت ابنة خوليو: "ليس من شأنك أن تقولي لي ألاّ أعود. يمكن أن أعود ذات يوم، وبأسرع مما تظنين. ولن أسكن عندها في جناح الخدم."

كنت أقف في غرفة الحمام خلف الباب نصف المفتوح. شعرت بأن ابنة خوليو كانت تعرف أنني أقف هناك، وفكّرت، مثلما كنت أفكر طوال الليل: "آنا، ما الذي فعلتهُ لكِ؟"

انضمّ إلينا، في غداء الأحد، ذلك الأسبوع، رجل من البعثة المحلية، كان قد عاد من مواقع البعثة في الشمال. قال: "الناس هنا،

وفي العاصمة، لا يعرفون شيئاً عن الحرب في الأدغال. تمضي الحياة هنا مثلما كانت عليه دائماً. لكن ثمة مناطق بأكملها في الشمال يحكمها ثوار العصابات الآن. لديهم المدارس والمستشفيات، ويسلّحون ويدربون أهالي القرى." قال غوفيا بطريقته المازحة: "ومتى تعتقد أننا سنسمع دوي المدافع في الليل المداري الحارّ؟" قال المبعوث: "ربما كان ثوار العصابات يحيطون بكم من كل الجهات. لم يهاجموا أبداً المناطق المأهولة بالطريقة التي تتحدثون عنها. يرسلون أناساً عزّلاً. إنهم يبدون كالأفارقة العاديين. وهم ينشرون كلمة ثورة. إنهم يحضّرون الناس." وفكرتُ بانطباعاتي عن اليوم الأول في إفريقيا، وعن الأفارقة السائرين، وبالانطباعات الأخيرة عن المزارع ومستعمرات الإسمنت في بحر إفريقي. قال غوفيا: "تعني أنه يمكن إيقافي على الطريق الآن؟" قال المبعوث: "هذا ممكن. إنهم يحيطون بنا." قال غوفيا نصف ممازح الآن: "أعتقد أنني يجب أن أغادر قبل أن يُغلق المطار."

قالت السيدة نورنها، بصوتها المتنبئ: "خزّنوا القماش. علينا أن نخزّن القماش." أحدهم قال: "ولماذا علينا أن نفعل ذلك؟"، لا أحد، منذ كارلا كوريا، كان قد تحدث بتلك الطريقة إلى السيدة نورنها. قالت السيدة نورنها: "إننا الآن مثل الإسرائيليين في الصحراء." أحدهم قال: "لم أسمع أبداً بأن الإسرائيليين يخزّنون القماش." والسيدة المسكينة، نورنها، التي نُسفت مصداقيتها كعرافة، وأدركت أنها شوشت نبوءاتها، ضغطت برأسها باتجاه كتفها وأغلقت عينيها، وانسحبت على كرسيها المتحرك من حياتنا. سمعنا لاحقاً، وبعد تسلُّم الثوار الحكم، أنها كانت أول من أُعيدوا إلى البرتغال.

قبل وقت ليس بالقليل من تسلم الثوار السلطةَ، انتهى بناء منزل غراشا. هي ولويس نظّما حفلة تسلُّم البيت. كان لديهما أثاث قليل. غير أن لويس ارتقى إلى مستوى المناسبة، بأسلوبه كمضيف، منحنياً إلى الأمام كمن يشي بسرّ، وهو يقدم المشروب. بعد أسبوعين اختفى هو وسيارته اللاند-روفر. البوليس الكولنيالي، الذي كان لا يزال يسيطر في ذلك الوقت، قال إنه خُطفَ ربما من قبل الثوار. ما من مسؤول في بلدتنا كان على اتصال مع الثوار، ومن ثمَّ لم تكن هناك طريقة لمعرفة المزيد. طار صوابُ غراشا من الحزن. قالت: "كان ممتلئاً باليأس. لا أستطيع أن أقول لك كم كان يائساً منذ اللحظة التي انتقلنا فيها إلى البيت. كان يجب أن يكون سعيداً، غير أن نقيض ذلك حدث." وبعد أيام معدودات وجده بعض الرعاة خارج الطريق الترابي مع سيارة اللاند روفر، قرب بحيرةٍ للماشية. باب اللاندروفر كان مفتوحاً، وكانت ثمة زجاجات من الخمر. كان عارياً تقريباً، لكنه لا يزال حياً. كان قد فقد عقله، أو هذا ما قاله التقرير. كل ما كان يستطيع التفوه به بضع كلمات تقال له. "أرحتَ تسرفُ في الشرب؟" وكان يردّد، "إسراف." "هل أمسك بك الثوار؟" وكان يردد، "ثوار." وأتوا به إلى المنزل الجديد الفارغ. كانت غراشا تنتظره. ذهب عقلي سنوات إلى الوراء، وإلى المدرسة التبشيرية، وقصيدة في كتاب القراءة للصف الثالث تقول:

ميتاً أتوا بفارسها إلى المنزل.
لم يُغمَ عليها ولم تُطلِق صرخةً.
جميع وصيفاتها اللواتي كنّ يتفرّجن، قلن،
"يجب أن تبكي أو أنها ستموت."

لم تمارس الجنسَ ثانيةً.

راحت تعتني به في منزلها. كان ذلك دورها الجديد، من حيث هي ممرضة، وتشرف عليه مثل راهبة تنفذ أمر الخدمة. لو لم تكن هناك حرب لكان يمكن أن يتوفّر طبيب يعرف ما يفعل. غير أن أناساً مثل الأطباء كانوا يغادرون المستعمرة أو البلاد كل يوم؛ والمزرعة بعيدة ونائية، والطريق خطرة جداً؛ و لويس الذي فقد عقله وكبده، راح يشحبُ ويجفّ في المنزل الخاوي.

أحداثٌ جسام في حياة المستعمرة، شعائر أخيرة، حدثت على مسافة منها. حكومة المستعمرة في العاصمة أغلقت أبوابها بكل بساطة. الثوار تسلّموا الحكم. وبدأ السكان البرتغاليون يغادرون. انسحب الجيش من بلدتنا. أصبحت الثكنات خاوية؛ وبدا الأمر غير طبيعي بعد اثني عشر عاماً من ممارسة الشعائر العسكرية اليومية، كأنها شعائر الكنيسة. وبعد عدة أسابيع من هذا الخواء قدمت قوة من ثوار العصابات، أصغر بكثير، واحتلت فقط جزءاً من الثكنات، التي وسّعت مرات عدّة خلال الحرب. بشرٌ ماتوا، غير أن الجيش، في الحقيقة، لم يرغب في خوض هذه الحرب الإفريقية، والحياة في البلدات بقيت طبيعية حتى النهاية. كانت الحرب مثل لعبة بعيدة. حتى في النهاية، كان صعباً التصديق بأنه سيكون للعبة آثار عظيمة. وكأن الجيش، مدفوعاً بغاية سياسية، تواطأ مع الثوار (عبر تكتيكهم في التوغل غير المسلح) ليحافظ على سلام البلدات؛ وهكذا، عندما حان الوقت، كان بمقدور الثوار الاستيلاء على البلدات ونظامها لا يزال يعمل.

لبعض الوقت، ومثل استخدام المبيدات، لم يحدث شيء، وكان ممكناً أن يظن المرء أن لاشيء تغيّر، إذ ظلت البضائع تأتي إلى المحلات،

والبنزين إلى المضخات. ولكن، وعلى حين غرة، وكما يحدث مع المبيدات، أخيراً ظهرت علامات التبدّل. بعض المحلات أضحت فارغة ولم تفتح ثانية؛ مالكوها رحلوا إلى جنوب إفريقيا، أو إلى البرتغال. بعض المنازل في الساحة المركزية هُجرت. القناديل الضوئية على الشرفات، أو أعمدة البوابات، سرعان ما تحطّمت؛ زجاج النوافذ الذي ظل لسنوات سليماً لم يُمسّ، تداعى بعد وقت قصير، وتهشّم بطريقة غامضة، أما النوافذ فخُلِعت من مفاصلها، و هنا وهناك بدأت العوارض الخشبية تتفسّخ، والسقوف تتداعى وتنهار. كنا نظنّ أن الخدمات البلدية في بلدتنا الصغيرة متخلفة. لكننا شعرنا الآن بغيابها. فتحات التصريف في الشوارع سُدّت؛ أنهار الرمل (مع رقع من العشب في الأجزاء العليا، ومسيلات متعرجة، أو مضفورة من الرمل الناعم ترسبت في مجاري السواقي الصغيرة التي كانت تجري بعد المطر) فاضت عن مجاريها باتجاه المزاريب المختنقة. توحّشت الحدائق بالأعشاب ومن ثمّ تصحّرت لتصبح مثل الحدائق الرسمية للقلعة الألمانية، التي كانت قد هُجرت منذ ثلاثة عقود؛ ففي هذا المناخ كان كل شيء يسرع إلى مآله، ويصبح كما يشاء. في الريف امتلأت الطريق الإسفلتية الرئيسة بالحفر. بعض بيوت المزارع فقدت مالكيها، والعائلات الإفريقية، التي كانت في البداية تشعر بالخجل أمام أناس مثل آنا، بدأت تظهر على الشرفات العريضة خلف دوالي البوغونفيليا.

تلك كانت شهوراً قاسية. كانت السيدة نورنها، في أواخر أيام النظام، قد طلبت منا أن نخزّن القماش تحسباً للزمن الرديء الذي سيأتي. خزّنا البنزين. كان للمزرعة مضختها الخاصة؛ ملأنا صفائح وخبأناها؛ إذ

بدون سيارتنا اللاند-روفر كنا سنضيع. توقفنا عن تشغيل مولّداتنا. وهكذا أصبحت ليالينا صامتة، واكتشفنا سحر الظلال الكبيرة التي يشيعها قنديل الزيت. لم يمض وقت طويل على انهيار كل شيء، وعودة الأمور إلى ما كانت عليه في عهد جدّ آنا، الذي كان عليه أن يعيش لصيقاً بالأرض، لصيقاً بالمناخ والحشرات والأمراض، ولصيقاً بجيرانه وعماله الأفارقة، قبل أن تُعصر الهناءة من الأرض القاسية كالدم من الحجر.

في بيتها تدبّرت غراشا أمورها جيداً. بصورة ما كان هذا ما أرادته دائماً: بيت وهكتاران، دجاج وأشجار مثمرة. كانت أكثر استعداداً من آنا لاستقبال النظام الجديد.

قالت: "يريدوننا أن نعيش بطريقة المشاركة. إنها الحياة الأفضل. كما ترى، الراهبات كن على حقّ بالرغم من كل شيء. لقد حان الوقت لكي نصبح فيه فقراء. علينا أن نتشاركَ في كل شيء نملكه. إنهن على حقّ. علينا أن نكون كالجميع. يجب أن نخدم ونكون مفيدين. سوف أعطيهم كل ما أملك. لن أدعهم يسألون. سوف أعطيهم هذا البيت." كان طفلاها قد ذهبا مع كثيرين من الأقارب إلى البرتغال. "كنت مستاءة منهما. في البرتغال يجب عليهما أن يجهّزا أوراقاً ليثبتا هويتهما. كيف يمكن لأي شخص أن يفعل ذلك؟ كيف يمكن لأيّ من الناس أن يقولَ من هو؟ عليهم أن يحضّروا أوراقاً لكي يثبتوا أنهم برتغاليون. ليس عليّ أن أفعل ذلك هنا. جدّي دُفن هنا. لقد مات شاباً. إنه بين الأسلاف. إنني أذهب كل عام إلى قبره للتحدث إليه. أتحدث عن العائلة. أشعر بالراحة عندما أفعل ذلك. بالطبع، لا أخبر الناس. يظنون أنني ذاهبة إلى السوق."

نظرتُ إلى عينيها المعذّبتين وفكّرتُ: "كنت أمارس الجنس مع امرأة مجنونة. هل يمكن أن يكون صحيحاً ما كنت أشعر أنني أكنّه لها؟"

قالت آنا عندما أخبرتها: "لن تعطيهم أي شيء. حتى في حزنها تخدع نفسَها. إنهم يأخذون ذلك منها. يقول إنهم سيأخذون مني أيضاً. لكنني لستُ هاربة. نصف ما أعطاني إياه جدي سرقَهُ والدي. سوف أمكث هنا، وأحمي النصفَ الآخر. لا أريد أناساً يجلسون في بيتي، أو ينامون في سريري."

مع مرور الوقت وضعت الحكومة الجديدة نوعاً من الإدارة. كل شيء كان يستغرق إنجازه ثلاثة أضعاف ما كان يستغرقه سابقاً أو أربعة أضعافه. لكننا تعلمنا كيف نتدبّر الأمور. كان ثمة خدمات من نوع ما ثانيةً. الشقاوة العظيمة انتهت. ولكن في غضون هذا الوقت، تماماً، تسربت شائعات عن حرب قبلية جديدة. ومثلما كان ثوار العصابات المناهضون للبرتغاليين قد بدؤوا في الدغل، كذلك كان الأمر، الآن، بالنسبة للناس المعادين للمنتصرين، حيث بدؤوا تمردهم في الدغل. كانت الحكومات السوداء على طول الحدود تساند الثوار. المتمردون الجدد تساندهم الحكومات البيضاء في الغرب، وتأثيرهم مميت بصورة أكبر. كانت سياستهم تقوم على تجنيد "دموي" لمتطوعين جدد، وتعليم المتطوع على القتل. كانوا يهاجمون أطراف البلدات، ويقتلون الناس، ويحرقون البيوت، وينشرون الرعب.

لم أكن أعتقد بأنني أستطيع العيش خلال حربٍ أخرى. كنت أرى أنّ الحرب يمكن أن تضمر شيئاً لآنا. لكنني لم أر أنها تضمر أي شيء لي. وعلى مدى أسابيع ظللتُ مشوشَ التفكير. لم أكن أعلم ماذا أفعل.

أعتقد أنه لم تكن لدي الجرأة لإخبار آنا. إنه الفصل المطير. وعندي سبب لتذكّره. غبار الطلع الثقيل من شجرة الفيء، أمام بيت المزرعة، جعلَ الدرجَ الرخامي نصفَ الدائري زلِقاً. انزلقتُ وهويتُ بقوة. عندما استيقظت في المستشفى العسكري، في تلك الثكنات الموجودة في البلدة، كان الألم الفيزيائي في جسدي المعطوب يعادل الألم الآخر الذي رافقني لشهور، وربما لسنوات.

عندما جاءت آنا إلى المستشفى تملّكتني الشجاعةُ، وقلت لها إنني أريد أن أطلّقها.

عندما عادت لاحقاً قلت لها: "أنا في الواحدة والأربعين. تعبتُ من عَيْشي حياتَك."

"أنتَ أردتَ ذلك يا ويلي. بل طلبتَه. وكان عليّ أن أفكّر في ذلك."

"أعرف. فعلتِ كلّ شيء من أجلي. جعلتِ الحياة سهلة عليّ هنا. لم يكن بإمكاني العيش هنا بدونك. عندما سألتكِ في لندن كنتُ خائفاً. لم يكن لدي مكان أذهب إليه. كانوا على أهبة رميي خارج الكلية في نهاية الفصل، ولم أكن أعلم ماذا أفعل لكي أنجو. ولكن الآن الشطر الأفضل من حياتي ولّى، ولم أفعل شيئاً."

"أنت خائفٌ من الحرب الجديدة."

"حتى إن ذهبنا إلى البرتغال، حتى إن سمحوا لي بالدخول إلى هناك، فستظلّ تلكَ حياتك. مضى عليّ وقتٌ طويلٌ وأنا مختبئ."

قالت آنا: "ربما لم تكن حقاً حياتي أنا أيضاً."

آذار ١٩٩٩–آب ٢٠٠٠

صدر للمترجم

في الشعر

- **طواف الآفل**: دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٨
- **باتجاه متاهٍ آخر**: دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٩
- **لن أكلمَ العاصفة**: دار الكنوز الأدبية، بيروت، ٢٠٠٠

في الترجمة

- **قلق التأثر**: تأليف هارولد بلوم، دار الكنوز الأدبية،بيروت، ١٩٩٨
- **نظرية لانقدية: مابعد الحداثة، المثقفون وحرب الخليج**: تأليف كريستوفر نوريس، دار الكنوز الأدبية، بيروت ١٩٩٩
- **سبع ليال**: تأليف خورخي لويس بورخس، دار الينابيع، دمشق، ١٩٩٩
- **خريطة للقراءة الضالة**: تأليف هارولد بلوم، دار الكنوز الأدبية،بيروت، ٢٠٠٠
- **بورخس: مساء عادي في بوينس آيرس**: تأليف ويليس بارنستون، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٢

في النقد:

- **ولاس ستيفنس: تخيل صوفي أسمى**: أطروحة دكتوراه باللغة الإنكليزية من جامعة نيويورك للعام ١٩٩٥

ف. س. نايبول

نوبل ٢٠٠١

ولد ف.س. نايبول في ترينيداد عام ١٩٣٢

من أهم أعماله الروائية:

- بيت للسيد بيسواس ١٩٦١
- الرجال المقلدون ١٩٦٧
- في بلد حر ١٩٧١
- رجال العصابات ١٩٧٥
- منعطف النهر ١٩٧٩

من أهم كتبه النقدية:

- الرحلة الوسطى: انطباعات عن خمسة مجتمعات ١٩٦٢
- منطقة ظلام ١٩٦٤
- الهند: حضارة جريحة ١٩٧٧
- عودة إيفا بيرون ١٩٨٠

نال العديد من الجوائز الأدبية الرفيعة، كان آخرها جائزة نوبل للآداب للعام ٢٠٠١.

علي مولا

ISBN:2-84305-619-X

9 782843 056192